

سعود السنعوسي

# فئران أمي حصّة

رواية



Mechail. Faisal.

# ربيع الكتاب



[book-spring.blogspot.com](http://book-spring.blogspot.com)



[facebook.com/spring.book.eg](https://facebook.com/spring.book.eg)

ما بال سدودك اليوم واهية تقرضها  
الفئران. تكشفُ عن قوم يقتاتون على  
كل شيء فيك، حتى إذا فرغوا منك  
صار واحد هم يقتات على الآخر.  
حالك اليوم تُشبه ما قالته لي أمي  
حصّة صغيراً؛ يخرج من بطنك دودٌ  
يأكلك. هي قيامتك اليوم أرفأ وانها،  
وها أنا اليوم أكتبك خوفاً منك عليك،  
لا أجيدُ شيئاً بكتابتني إلا فراراً منك  
إليك، لأن لا مكان لي سواك. ولأنني  
رغم كل الخيبات فيك، لا أنوي إلا أن  
أموت.. فيك.

كتكوت







# فئران أمي حصّة

---

طبع في لبنان

---

# فئران أمي حصّة

رواية

سعود السنعوسي



منشورات ديفاف  
DIFAF PUBLISHING

الدار العربية للعلوم ناشرون  
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L



الطبعة الأولى: شباط (فبراير) 1436 هـ - 2015 م  
الطبعة الثانية: آذار (مارس) 1436 هـ - 2015 م  
الطبعة الثالثة: نيسان (أبريل) 1436 هـ - 2015 م

ردمك 978-614-01-1544-6

جميع الحقوق محفوظة

**الدار العربية للعلوم ناشرون**  
Arab Scientific Publishers, Inc.



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم  
هاتف: 786233 - 785108 785107 (1-961+)  
ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 1102-2050 - لبنان  
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb  
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

**منشورات ديفاف**  
DIFAF PUBLISHING

هاتف الرياض: +966509337722  
هاتف بيروت: +9613223227  
البريد الإلكتروني: editions.difaf@gmail.com

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأيّة وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أيّة وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

لوحدة الغلاف للفنانة مشاعل الفيصل

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشرين

## كلمة

أنا التاريخ كله، وأحذركم من الآن؛ الفنران آتية، احموا  
الناس من الطاعون!

فؤادة



زُور..

إِبن الزَّرَّزور..

إِلي عُمَره ما كذب ولا حَكف زُور:



## (1-)

إذا ما ألحقت والديّ كلماتها بـ: "والله"، صار الأمرُ إلهياً!

كنت في السابعة من عمري عندما اشترى لي والدي درّاجتي الهوائية الأولى، هدية تفوّقي في المدرسة. منعتني والديّ من قيادتها في حوش بيتنا ظهراً، خوفاً عليّ من درجة حرارة تتعدّى، أحياناً، الخمسين مئوية. هذا ما كانت تقوله. ربما هو سبب حقيقي، ولكنه ليس السبب الوحيد.

كانت والديّ قد تغيّرت. لم تعد كما يصفها والدي مناكفاً ناظرة في المدرسة وفي البيت " صارت قلقة، تنتفضُ كلما ارتطم بابُ الحوش الحديديّ بفعل الرّيح، وتردّد دويّه في الشارع. تصرخُ إذا ما أطلق صبيبة الحيّ ألعابهم النارية، احتفالاً بفوز فريق كرة قدم، أو لسببٍ آخر، أو لغير سبب. تتسمّر أمام التلفزيون لساعات، تترقّب نشرة الأخبار. تتصل بوالدي عشرات المرّات في اليوم الواحد. تقضم أظفارها، تغمغم، تمسح دموعها خلسة. هذا هو ما صارت عليه والديّ، منذ تفجيرات المقاهي الشعبية عام 1985، قبل شهرٍ واحدٍ من حصولي على تلك الدراجة.

كان من بين ضحايا التفجيرات جارنا المسن. خرج من بيته ولم يعد، تقول والديّ التي بكته كثيراً طيلة أسبوع: مات المسكين..  
ترملت حصّة، مرضت ابنتها.

كنتُ أتحين لحظة استيقاظ والديّ من قيلولتهما، لأحصل منهما على مفتاح البيت، حتى يتسنى لي الخروج واللعب بدرّاجتي. طرقتُ، ذات ظهيرة، باب غرفتهما الموصل. "ها؟!"، ردّت والدي بعد طرقات متكررة. سألتها: "متى أسوق القاري؟" جاءني صوتها مثقلاً بالتّعاس: "إذا غابت الشمس قرّبتُ شفّتيّ إلى ثقب الباب. وعدّها بالأبجواز سور الحوش بالدرّاجة. لم ترد. عدتُ إلى غرفتي، أطلُّ من النافذة على سبب إقامتي الجبرية داخل البيت، تلك المشرقة أبداً وقت لهنّ للخروج. نظرتُ إليها بعينين نصف مغمضتين. لا تتحرك! كنت أعرف بأن الشمس محض حجّة، وأن والدي تخشى أن أخرج من البيت أثناء نومها، وتعرض لحادث مثل جارنا، ولا أعود، رغم أن المقهى الشعبي بعيداً ناحية البحر، ولا يمكنني الوصول إليه حتى مع الدرّاجة. كان خروجي إلى الحوش مرهوناً بأوقات صحوها، حتى تتسنى لها مراقبتي من نافذة غرفتها، ما دمتُ أدورُ حول البيت بدرّاجتي.

أدرتُ للنافذة ظهري. اقتعدتُ الأرض، أعبتُ بأغلفة أشرطة الفيديو. لا شيء يستثير اهتمامي بين أفلام كارتون ومسرحيات أطفال أحفظها كاسمي. أهملتُ ميكى ماوس على شاشة التلفزيون الصغيرة. بنيتُ بيوتا ودهاليز من أغلفة الأشرطة. أمسكتُ بدمية هولك هوغان المصارع، أدسّها في قلب مدينة الأغلفة قبل أن أهدها فوق رأسه خراباً. دأبي كلما سئمتُ أو غضبتُ، أن أبني مُدنا لأجل تدميرها على رؤوس دمي المصارعين والحيوانات البلاستيكية. دقائق مرّت كالساعات. عاودتُ النظر عبر النافذة. كل شيء يتحرّك في السماء، التي تُقسّمُ والديّ بمن رفعها؛ تنف غيوم وزراير وحمام، وطائرة ورقية

زرقاء عَلِقَ خيطها في أغصان سِدرة الجيران. وحدها الشمس ثابتة في مكانها. لمحتُ، في حوش الجيران، فهذاً يحمل كرة بحجم كرة تنس، ينحني يجمعُ حجارة. لعلّه يتجهّز للعبة "عنبر مع صبية الشارع. في مكان آخر من الحوش يكسر صادق بيضة على غطاء البالوعة الحديدي، يراقب نضوجها ببطء على سطح الحديد الملتهب بجمرة الشمس.

تركتُ غرفتي سالكا الممر نحو غرفة والديّ. عاودتُ طرق الباب مجدداً: "يُمّه! متى أسوق القاري؟" تناهى إليّ صوتها: "أفففف!" الصقتُ أذني على الباب. تسلل صوتها، عبر الخشب، متموجاً مع هدير "الكنديشة"، مكيف الهواء الـ جنرال، كأنها محشورة داخل قوقعة. هدّدتُ: "يا ويلك إذا سألت عن القاري وأنا نائمة" ليتها اكتفت عند تهديدها الأول دونما استطراد: "والله، إلهي رفع السماء، إذا سألتني عن القاري وأنا نائمة ما تسوقه طول عمرك! إصبر لما تغيب الشمس!" مرّت دقائق أخرى أقف فيها أمام الباب. احتفظتُ بسؤالي داخل فمي خائفاً. أدريها إذا ما أقسمت بالله، صار الأمر يخصّه، ولا رجعة لوالدي في.

نفاد صبري، إزاء تلك الثابتة في السماء، دفعتني لطرق الباب مرةً ثالثة. انطلق صوتها عالياً: "وبعدين!" ازدردتُ ريقِي. عاودتُ المحاولة: "يُمّه!" تلكأتُ قبل أن أسأل: "متى تغيب الشمس؟!" ارتفعت ضحكات والدي من وراء الباب. سمعتُ صرير سريرهما. "ما في نوم!"، سمعتها تغمغم. فتحتُ الباب بعنف، نظرتُ إليّ بعينين متورمتين، وابتسامة زَمّت عليها شفقتها غصبا؛ أنت تجيد طرح الأسئلة، قالت، ثمّ مدّت كفّها إليّ بالمفتاح: "خذ

\*\*\*





لا تقدح شرراً  
لا تكشف سرّاً  
فتشير زوابع ليس لها حدُّ  
والراحة تحت يديك  
ولديك المجد..  
والحكمة في ظل الصمتِ  
والأمل المنشود.. لدى الموت!

أحمد مشاري العدواني

الفأر الأول

---

شَرُّ



## يحدث الآن 12:00 PM

أستعيد وعيي. أشعة الشمس، المتعامدة فوقى، تستحيل فضاء أحمر داخل جفنيّ المطبقين. خيوط سائلة تنزُّ من مفارق شعري الأشعث، تصنع بقعة أسفل مؤخرة رأسي. أفتح عيني ببطء قبل أن أطبقهما بشدة بفعل أشعة الشمس. وخزُّ الحصى تحت ظهري.. جفاف ريقى وشفتيّ ومذاق التراب في فمي. شيءٌ يعيدني إلى مشهد أخير يراوح بين حلم وبقظة. ألمٌ ينبض فوق حاجبي الأيسر. أتحمّس السائل أسفل رأسي بأطراف أصابعي: "دم؟!!" أقرّبُ كفيّ إلى وجهي. ظلُّها المرسوم على وجهي يُبدّد الفضاء الأحمر. أفتح عيني بحرص أعين لون السائل على أناملي، آملاً ألا يكون أحمر هو الآخر. أطلقُ زفرة ارتياح؛ "عَرَق" أطبقُ جفني.

خدر كفتي وتميل ظهري يشيان بطول مدّة بقائي على حالي هذه. أمدُّ كفيّ أتحمّس جيب دِشداشتيّ الأيمن. هاتفي المحمول وعلبة سجائر فارغة. أتحمّس الجيب الأيسر. شعور بالطمأنينة يتتابني لوجود مفتاح السيارة. "الصندوق ما له مفتاح"، الأغنية إياها، بأصواتنا.. أطفالاً ما الذي يستدعيها من أين؟ أهض بصعوبة. أعتدل جالسا. لريقي مذاق غير مألوف. أكاد أبتلع شيئاً ظننته حجرا. أبصقُ دماً بُنيّاً مثل بانٍ خلّفه الهنود بصاقاً على الأرض يوم كانوا في بلادنا. أسعل. ألفظُ سني العالقة في حنجرتي. أصوات

الأطفال في رأسي تخبو وترتفع: "المفتاح عند الحدّاد" ساقاي  
مدودتان على حالهما كأنهما لغيري. الدشداشة مرتفعة إلى ما فوق  
ركبتيّ. أنظرُ إلى قدميّ، إحداهما بنعل، والأخرى بلا. صورة نعلي  
المفقودة، مقلوبة في مشهدها الأخير، لا تبارح مخيلتي. أستلُّ نفساً  
عميقاً. أعبى رثيّ هواء تنن الرائحة. أُطلقُ آهةً طويلةً. أهزُّ رأسي.  
ألتفتُ حولي في الساحة الترابية أتأكد من سلامة ذاكرتي. أجدني  
مقابل حديقة جمال عبدالناصر. أطلال مطعم ماكدونالدز أمامي.  
حسناً.. أنا في منطقتي، في الروضة. أهزُّ رأسي مطمئناً. تعاود  
الأصوات الغناء: "والحدّاد يبي فلوس

سيارتي هناك، كومة خردة على عجلات، بالكاد أتعرّف هيئتها  
الجديدة، في مكان ليس ببعيد عن سيارة فهد، في حين لا أجد سيارة  
صادق. الناس هنا كل يمضي في وجهته دونما اكتراث لي، رغم  
ساعات أمضيتها خارج وعبي ممدداً على الأرض. تتشكل في مخيلتي  
صور لعادة كانت.. ما عادت. اجتماع الناس حول ضحايا  
الشجارات أو الحوادث بدافع الفضول أو المساعدة أو التصوير بواسطة  
كاميرات هواتفهم المحمولة، أما والحالة هذه.. فلا رغبة لأحد بتوريط  
نفسه بأي شيء. والدتي كانت دائماً تقول: "من خاف سلم!" أما  
أمي حصّة ففكره الخوافين. سلّمت الأولى. ماتت الأخيرة.

أنظرُ إلى حالي؛ الخوف، الناس برؤوس لا تلتفت. ومع ذلك  
فإن أحداً في هذه البلاد، رغم الخوف، لم يسلم. أُلصِقُ باطن كفي  
على الأرض المتربة أدفع جسدي للنهوض. أضربُ كفي ببعضهما ما  
إن أنتصبُ واقفاً قبل أن أضرب مؤخرتي بحركة تلقائية أزيل الغبار

الرمادي عن ثيابي. أضغطُ ركبتي أُسْكُنُ أُلْمًا. أعرُجُ نحو سيارتي. أُلْمُ ساقِي لا يُحتمَل. جوقة الأطفال في رأسي تعني: "والفلوس عند العروس عروس الخليج. أتلفَّت حولي. لا شيء يشبهها. أهرب من تسمية قديمة. أهرب من كل شيء. أعاود النظر باتجاه سيارتي: "والعروس تَبِي عيال" عيال فؤادة ربما! أقول لنفسي. أتوقف. أحرر قدمي من نعلها. أواصل مشيتي العرجاء. أفتحُ باب السيارة. شظايا الزجاج النوافذ تكسو المقعد تتلألأ انعكاسا لأشعة الشمس. أجرُّ خطواتي إلى صندوق السيارة الخلفي أفتحه. أبحث عن شيء. أي شيء. الصندوق فارغ إلا من عجلة احتياطية. أنزغُ عنها غطاءها الجلدي السميك قبل أن أعود حيث كنت. أزيلُ قطع الزجاج الكبيرة من فوق المقعد بحذر. أفرشُ الغطاء الجلدي على ما تبقى من شظايا قبل جلوسني. الزجاج الأمامي للسيارة متماسك رغم قشمة. خطوط شبكية لا تسمح برؤية ما وراءها. أترجل. أبحث عن حجر أزيل بواسطته الزجاج. في هذا الوطن، في هذا الوقت، الحجارة هي أسهل ما يمكن العثور عليه. لا يُخلفُ الهدمُ إلا حجارة لا تصلح للبناء! حجارة كبيرة، أو صغيرة كتلك التي جمعناها صغارا للعبة الشعبية؛ عنبر، أو التي ننتقيها بعناية، تليق برأس يهودي عند تقمُّصنا دور أطفال الحجارة الفلسطينيين، عندما كان اليهودي، بتلقين من أُمِّي حصَّة، يعني إسرائيليا. عندما كانت إسرائيل، بتلقينٍ جمعي، عامل كره مشتركاً.

"والعيال يَبُون حليب.. والحليب عند البقر تتشكل في مخيلتي صورة بقرة في طرحة زفاف، جافٌ ضرعها. يبدو أن للكدمة في

رأسي دوراً في هذه الصور والأصوات. أنحني. أمسكُ بحجر مناسب بين التراب الرمادي. أرفعه بيديّ. أهوي به على الزجاج.. مرة تلو أخرى.. هذا جيد، أقول بعدما أفرغ من عملي. أعود إلى مقعدي ثانية. أجدُ شظايا الزجاج الأمامي متناثرة فوق الغطاء الجلدي. أفلتُ ضحكة في فورة غضبي، هذا سيئ! أسحبُ الغطاء برفق. أنفضه خارج السيارة. أعيده إلى مكانه قبل جلوسي خلف المقود. أنظر إلى واجهة السيارة الخالية من الزجاج أمامي. لا مفر من الرائحة! أتحمس هاتفي المحمول في جيبي. عشرات اتصالات ورسائل هاتفية من أصدقاء. من والديّ في لندن. أخرى من مجهولين يسألون عن خللٍ في إذاعتنا وتكرار أغنية وطنية واحدة عوضاً عن بث برامجنا اليومية المعتادة. رسالة بريد إلكتروني من الناشر في بيروت: "فرغنا من تصميم غلاف روايتك "إرث النار" أنصح بحذف أربعة فصول. هذا من أجل سلامتك، ومن أجل مصلحة الدار. أنتظر موافقتك لأرسل الرواية إلى المطبعة" بعضنا، خشية منع الرقيب، يصيرُ رقيباً عن طيب خاطر. أهملُ الرسالة والاتصالات. أهملني. أهملُ كل شيء. أمسكُ هاتفي المحمول أتصل بصادق: "الجهاز مغلق أتصل بفهد. يجيبني الرد الآلي: "أنا حالياً غير موجود.. الرجاء ترك رسالة" يلحقُ جملته المسجلة بأغنية لعبدالكريم عبدالقادر: "بيبي وبينك غربة كَنَّها الليل، ما عاد يذكرنا مكان التلاقي.. إرحل مع النسيان وبرحل مع سهيل، ما عاد في قلبي لك اليوم باقي في كل مرة يترك أغنية لعبدالكريم عبدالقادر أعرف مزاجه، مع زوجته، من خلالها. هذه المرة تحيلني الأغنية إلى زمن جدّته، في شارعنا القديم، وحكاياتها

الشعبية حول نجم سهيل وأساطيره. زمن شَخَص فيه بصري نحو السماء البعيدة الصامته حاضنة الأسرار، مكمّن الإجابات عن أسئلتِي المستعصية. أنتبه إلى صوت الصفّارة يقطع الأغنية. أترك رسالتي بصوت لولا خروجه من حنجرتي لما تعرّفْتُ إليه: "ألو فهد.. أرجوك اتصل أُجري اتصالاً ثالثاً: "ألو أيوب! أي أخبار عن صادق وفهد؟" يجيب سؤالي سؤالاً عما جرى. أجيبه: "ولا شي.. أكلمك بعدين أُمّني نفسي بإجابة في اتصال رابع: "ألو ضاوي!" يسبقني يسأل: "إنت وبنك؟ عمّتي اتصلت من لندن تسأل عنك! وين فهد وصادق مختلفين من الصبح؟!" أجيبه بقم يابس ولسان مُر "ما أدري وينهم يطلق زفرة طويلة. يُطمئن بلازمته: "يجيب الله مطر تنشط الأغنية: "والبقر ييون حشيش.. والحشيش ييي مطر أرفع رأسي إلى السماء الخالية إلا من الشمس، وتّباع الجيف، نذير الشؤم الأسود يحوم مثل موتٍ مؤجل. يفرّد جناحيه الكبيرين، يُحلّقُ عاليًا، يتحرّى أسباب نزوله، قبل أن يُحطّ على الأرض بجسد العُقاب ورأس البومة ولون الغراب، يستمد حياته من موت الآخرين. ألتفتُ حولي. الناس كجياذ العربات كأبقار السواقي. شيء يحجب رؤيتهم عما حولهم. لا ينظرون إلى شيء سوى.. الأمام. أديرُ محرك السيارة. ينطلق صوت الإذاعة فجأة: "الله أكبر.. الله أكبر.. أتم تستمعون إلى إذاعة أسود الحق.. صوت غليظ يضغط على مخارج الحروف أنشاء الحديث. ينقبض صدري. أنظر إلى الشاشة الإلكترونية الصغيرة في مذياع السيارة. رقم المحطة الإذاعية يذكرني بما كانت تُبثه من أغانٍ وبرامج منوعة قبل استحالة الحال إلى غيرها. أديرُ مؤشر المذياع أنتقل





## يحدث الآن 12:17 PM

أقود سيارتي بوجه ثابت إلى الأمام شأن الناس من حولي، إن لم يكن خوفاً، فلأن شيئاً في الجوار لا يحفز على الالتفات. تربة رمادية أحالت البلاد إلى منفضة سحائر عملاقة. دخان حرائق. حجارة بحجوم متفاوتة. كلاب سائبة. ريش أسود. طواير طويلة أمام فرع مفوضية الاتحاد الأوروبي في الروضة تطلب اللجوء. المتاريس المُعدّة من أكياس الرمل على جانبي شارع دمشق، والأوساخ المتكدسة منذ فرّ عمال التنظيف خارج البلاد. كأن يدا ضخمة هوت على البلاد أحالتها خراباً مثل مدينة الأغلفة التي عبثتُ بها صغيراً. أصدُّ كل تلك المشاهد بعدم الالتفات إليها. ولكن الرائحة! تردُّني رسالة نصّية من والدي: "شغلت بالنا آنا وابوك.. أرجوك اتصل أترك هاتفي المحمول فوق المقعد إلى جانبي. أسلك طريق الدائري الرابع. الروضة عن يساري. أشجار الكونوكاربوس يابسة، خالية الأوراق فوق الرصيف بين الشارعين. أنعطف يمينا نحو مدخل منطقة السُرّة. ينقبض قلبي. أسترجع قول والدي: "والله، إلهي رفع السما، ما تدخل السُرّة وأنا موجودة!" هي لم تعد موجودة.

مضت سنواتٌ طويلة يا سُرّة! صرت مدينة أشباح. مطعم، ماكدونالدز المهجور يشبه شقيقه في الروضة، بزجاج نوافذه المهشّم، عن يميني إلى الأمام. وإلى يساري بيت حياة الفهد وسعاد عبدالله،

عندما كانتا محظوظة ومبروكة، في مسلسلهما التلفزيوني "على الدنيا السلام" من أين لهذه المنطقة قدرتها على الاحتفاظ بذاكرتها رغم أن كل شيء فيها لا يشبهه في الأمس؟! يستوفيني النُصب الرخامي القديم، جهة اليمين، بالقرب من مطعم البييتزا المحلي، الذي آل فرعا من سلسلة فروع بيتزا هت، مهجور هو الآخر زالت الحروف السوداء عن رخام النُصب. أزالتها الشمس. ربما اعتراضا. ربما شفقة. ربما خوفا من أن تبقى الحروف في مكان قذر. تيرقُ الذكري في ظلمة النسيان. أستعيد الكلمات على سطح الرخام الصقيل بخط رقعة، أو ربما نسخ، لستُ أدري: "اللهم ارحم الشهيدين: جاسم محمد المطوّع وعبداللطيف عبدالله المنير لو أنهما، قبل ثلاثين عاما، علما بما سوف تؤول إليه الأمور، أتراهما يموتان من أجلنا؟ أطررد تفاصيل زمنٍ ما جاء في ذاكرتي إلا وأخذني إليه، يعزلي عن كل شيء عداه، يفتحُ لي نافذة على أمسي، يُريني طفلا كنته، مسكينًا أشفقُ على حاله أمس، وحاله اليوم. أتنبه إلى صبي صغير، بدشداشةٍ رثة وغترة يلفها بإهمال على رأسه، يقتعد كرسيًا قرب النصب الرخامي. يبسطُ على الأرض قماشًا يحمل بضاعة، مثل الباعة اليمنيين قبل سنوات طوال. أفتح زجاج نافذتي اليمني. ألوّحُ له بعلبة سجائري الفارغة. يهرعُ إليّ يحمل أنواعا. أختارُ واحدة. "ثمان دولارات"، يقول. أسلمه أربعمئة دينارًا. يسألني ممتعضا: "ما عندك دولار؟!" أهزُّ رأسي نافية أنظر إلى دنانيري المسكينة. "الدينار طايح حظ!"، يقول وهو يتسلم النقود يعدّها صامتا. أمضي في قيادتي أجتاوز الشارع الدوّار عند مفترق الطرق. ناحية اليسار مدرستي

الثانوية القديمة، ثانوية صباح السالم. كنت فخورا بانتسابي لها. أول ثانوية مقرّرات في الكويت. كنا كمن يجمع نقاط التميز لصالح منطقتنا. في السُرّة.. أول مدرسة ثانوية بنظام المقرّرات تشبه الجامعة. في السُرّة أول سوق مركزي في دور علوي تصعد إليه السيارات في مواقف مفتوحة. في السُرّة أول شارع مخصص لرياضة المشي، وأول منطقة ينتهي أحد شوارعها بجسر يربطها بمنطقة أخرى. أنظر إلى مدرستي الثانوية الآن تهزأ بذكريات لا تعترف بها. لا أعرفك يا أنت. أنا ثانوية جابر المبارك. لا أسألها كيف صرت، لماذا ومتى؟!

أجتاوز الثانوية ولا تتجاوزني ذكريات استفاقت للتو من غيبوتها. عند أحد المنعطفات، في قطعة 3، حيث كنت أسكن، مدرسة متوسطة كان اسمها "النجاح"، ومثل كل شيء في هذه المنطقة، تعيّر اسم مدرستي إلى مدرسة حمود برغش السعدون، كما تقول اللافتة أعلى سورها. التحقتُ بصفوفها الدراسية عام 1987، قبل حوالي ثلاث وثلاثين سنة. أوقفُ السيارة أمام المدرسة لسبب أجهله. المكان مسرح لحدث سابق. واجهة السيارة أمامي، الخالية من زجاجها، شاشة تعرض صوراً لزمان بعيد. هناك، بالقرب من مبنى محوّل الكهرباء سقطت لي سِنٌَّ وبضعة أزرار من قميصي المدرسي الأبيض في مشاجرتي الأولى. أمرُّ سبّابتي على أسنان فكي العلوي أحصيتها. فراغ جديد اكتسبته بعد حادثة اليوم. أمعن النظر في مبنى محوّل الكهرباء. حرفا F والـ H، والكلمات البيئية، والرسومات الفاضحة التي ألفتها تلميذا استحالت اليوم حروفاً وبقايا كلمات، اختفى بعضها تحت أصباغ رشٍّ محايدة. أميّز من بينها حرباً

كلماتية؛ أم المؤمنين رغم أنوف الحاقدين؛ اللعنة على النواصب، الموت للروافض، وهابية، مجوس، وكلمات أخرى لم أتبينها. وباللون المحايد، في أماكن متفرقة على جدار مبنى محوّل الكهرباء، صورٌ لفئران مشطوبة بعلامة X، وتحذيرات بدأت تنتشر مع انطلاق مجموعتنا: "احموا الناس من الطاعون" "الفئران آتية!" ممهورة بتوقيع "أولاد فؤادة"

من أين للأماكن القديمة أن تحيي ذكرياتها المخبوءة في ثناياها بمجرد المرور بها؟ زمني الآن خليط! في ذلك اليوم، أثناء طابور الصباح، كنا في ساحة المدرسة، نرتجف من البرد في معاطفنا الكحلية. تتكثف أنفاسنا تهتفُ للعلم: "تحيا الكويت.. عاش الأمير.. مثل كل يوم. حدث شيء مختلف ذلك الصباح. سحر صبي ضخم من صادق أثناء هتافنا: "تحيا الأمة العربية" يسأله وهل أنت عربي؟! لم أفهم ما الذي كان يعنيه رغم إصراره: أنتم عجم! كنا نردّد الهتاف سوية، أنا وفهد وصادق، مع زملاء الفصل، عَوْض اليمني وعبدالفضيل السوداني وحاتم المصري والفلسطينيين سامر وحازم وبقية التلاميذ. لا أتذكر من صادق سوى صمته واحمرار أذنيه. بعد رنين جرس انتهاء الحصّة الأخيرة، بالقرب من المكان الذي أراه الآن، أسفل سور المدرسة، كانت مشاجرتي الأولى. كان ذلك شتاء 1988، وكان يوم ثلاثاء كما لن أنسى. سمعتُ أحدهم يصرخ بآخر: "حديقة الحيوان في العُمريّة.. يا حيوان!" كنت قد تجاوزت البوابة، أسفل اللافتة "النجاح المتوسطة للبنين" التفتُ إلى مصدر الصوت. الولد الضخم يصرخ بصادق، وصادق، كدأبه، لا يتكلم

إذا ما انفعل. احمرار أذنيه يشي بما يعتمل في داخله. صبيّان يمسان بفهدٍ يعيقانه عن مساعدة صادق بعدما ألقاه الولد الضخم على الأرض. لم أتمالك نفسي إزاء رؤية صادق تركله الأقدام. تردّدتُ في البدء، ولكن، منظر الدماء على قميصه دفعني لفعل شيء، أي شيء. أزحتُ تردّدي جانباً. ركضتُ نحوهم. رفعت قبضتي عالياً. أجفلت. أخفضتها. ألقيتُ بجسدي أرضاً فوق صديقي. أحطته بذراعي. حلتُ دونه ودون الركلات. تلقيتُ، بدلا منه، الركلة تلو الأخرى. سقطت سني. فقدتُ وعيي.

صبيحة يوم الأربعاء. في غرفة الأخصائي الاجتماعي المصري، في زمن كان لغير الكويتي وجود في هذا البلد الذي ما عاد فيه وافد عدا قوات حفظ السلام العالمية، تنتشر بقبعاتها الزرقاء، حول المنشآت النفطية وبعض المناطق المضطربة، وقوات درع الجزيرة، التابعة لما تبقى من دول لم تنشق عن مجلس التعاون الخليجي، تفض اشتباكات الفريقين المتخاصمين، وجماعات متطرفة وفدت إلينا من الخارج بعدما أشرعنا لها أبواب الداخل. أجاب الصبي الضخم ميرا بأن صادقاً قام بشتمه أولاً، قال له: مكانك ليس في المدرسة، مكانك في العميريّة في حديقة الحيوان! عاجله الأخصائي بالسؤال، ألهذا كسرت ذراعه وأسقطت سنّ صديقه؟! لازم الصبي صمته. ارتفع صوت الأخصائي مستنكراً: "علشان حديقة الحيوان؟! " أجاب الصبي مطأطئا: "لأ" نظر إليه الأخصائي يستفهمه. أوضح الصبي: "أستاذ دسوقي.. الحديقة في منطقة العميريّة" نوّه إلى أن اسمها ليس كما يلفظونها هم استهزاء؛ العميرية. سأله الأخصائي من

يقصد بـ هُم؟ لم يُجب الصبي. ارتفع صوت الأخصائي في وجهه يسأله إن كان من سكان العُمريّة أو العُميرية أو أيّا كان اسمها. هزّ الصبي رأسه نافيا. مطّ الأستاذ دسوقي شفّيته الغليظتين مستغربا. سأله بنفاد صبر: إذن! بمن كان زميلك يستهزئ؟

خلف مقود سيارتي، اليوم، أمام سور مدرستي قديمة البناء جديدة الاسم، لا أزال أتذكّر، أردّد، من دون وعي، كالصدي، إجابة الصبي الضخم: "عمر.. عُمر لم أكن، في تلك السن، أدرك أن المعني هو ثاني خلفاء النبي. أهز رأسي، الآن، أطرّد ذكريات أمقت استرجاعها. أديرُ مقود السيارة تاركا جزءا من ذكرياتي، في مكانها، بالقرب من سور المدرسة الذي نسيتُ داخله كل دروسي القديمة؛ حيث بقي الدرس الوحيد عصيّا على النسيان. درس تلقّيته في الباحة الخارجية لمدرستي فاق تأثيره كل المناهج التي تعلمتها في فصول الدراسة داخلها. أستعين بالنظر إلى اللافتة أعلى باب المدرسة. أوافقها. مدرسة حمود برغش السعدون. هذه ليست مدرستي القديمة. ليست النجاح. إن شيئا مما كنت أسترجعه للتو لم يكن. أنا واهم. أريد أن أكون واهما. ألتفتُ حولي. تتكاثر البيوت على جانبي الطريق. ما عادت المنطقة تشبهها وقت كنت أسكنها. قبل سنوات كنا، صادق وفهد وأنا، نقطع السكك الضيّقة والمساحات الترابية ذهابا وإيابا إلى المدرسة مشيا على الأقدام. لم تكن هذه الرائحة الكريهة موجودة. اختفت السكك بين بيوت يسابق واحدها الآخر أيهما يبلغ السماء قبلا، والمساحات الفضاء والملاعب الترابية لكرة القدم التي أحفظ تفاصيلها، مثل وجهي،

استحالت إلى مبانٍ تجثم على صدر المنطقة. البيوت ذات الطابق أو الطابقين أصبحت ذات ثلاثة وأربعة وخمسة. بيوت ضيقة بلا أحواش. على هذا الرصيف كنا نجري، نلتفت إلى الوراء، بعدما استعدتُ وعيي، هرباً من الصبية، أو خوفاً من أن يلحقوا بنا، مخلفين وراءنا، على أرض الشجار، فوق الرصيف البارد، أجزاء منا.. سيناً ودماء.. وكرامة.

لو أنني لم أترك منطقتنا القديمة، لربما صنعتُ فيها ذكريات أجمل. لي سنوات لم أزر خلالها حيناً القدم. منذ تركنا بيتنا وأنا أتحاشى المرور هنا؛ خوفاً من أن ألوث صورة جميلة أحملها في داخلي لمصنع طفولتي، صورة جميلة لماضٍ بغيض. تمنيت لو أنني أبقيت على قطيعي مع السُرَّة، خروجاً بلا عودة، كمن انقطع به حبل السُرَّة. كنت قد عاهدت نفسي، منذ انتقالي وأسرتي إلى الروضة، ألا أدخل منطقتي القديمة أبداً، وألا أزور شارعنا حزناً على مكان أحببته، لم يعد لي فيه بيت، وغيره على بيتنا من أناس اشتروه من والدي، والتزما بقسم والديّ بألا أدخل المنطقة. في هذه الزاوية، عند المنعطف المؤدي إلى حيناً القدم، كان محل الجزار السوري عدنان، ركنًا مطلقاً على الشارع مستأجرًا في بيت العويدل. وهناك، على مبعدة شارع، في مجمّع الأنبي، يوم كان اسمه.. مجمّع الأنبي، في هذا المبنى الكبير المتهالك دكاكين عدّة تطل على الشارع، المطعم الهندي وصاحبه شاكر البهري، مطعم الشاورما، حيث يدير جابر المصري سيخه أمام النار كما عودنا، يوم لحم ويوم دجاج، أو يوم "لحمة" ويوم "فراخ"، يحضّر أشهى سندويشات معكرونة



بالكاتشب. يلومنا إن تجاوزنا مطعمه مُضَيًّا إلى مطعم شاكر: "كِدَه  
بَرَضُه تَشْتَرُوا من الواد الهندي الوِسِخ وتسيبو العربي؟!"، قاطعنا  
شاكرًا منذ ذلك العتب، ليس إيمانًا بقذارة المطعم الهندي، بل تضامنا  
مع جابر العربي. بين المطعمين، شاكر وجابر، الهندي والعربي،  
كان البقال الإيراني حيدر، والخياط والحلاق الباكستانيان سليم  
ومُشتاق، ومكتبة البدور وصاحبها الكويتي العجوز العم بو فوّاز،  
وجهة صغار الحيّ لشراء مجلتيّ "الرياضي" و"العربي"، وقصص  
المغامرين الخمسة، وروايات إحسان عبدالقدّوس الحرّمة، رغم لوم  
البعض لصاحب المكتبة: "ما يجوز تبيع الخرابيط لبناتنا!" يكتفي بالرد  
دائمًا: "الحكومة ما تمنع!" وهنا، في هذا البيت، على ما أظن، كان  
محلّ غسيل وكيّ الملابس، دُكَّان مستأجر في بيت قدم. استحال المحل  
اليوم إلى مرآب سيارات في بيت ضخم جديد يعلوه القرميد. لا أثر  
للمحل ولا عتباته الثلاث ذات البقع البنية التي ييصقها علامين  
البنجابي كأها ماء صدي. اسمه علامين، رغم اكتشافنا، بعد  
سنوات، أنه علي أمين! ولكنه بلهجته ينطقها على النحو الذي  
ألّفناه. لا أزال أتذكره بلون بشرته الأبنوسي وشعره الأشيب وجسده  
النحيل وإزاره المهترئ، وباسم قدم يشبهه، اختاره بنفسه، ولا يجينا  
إن نادينا به غيره. علامين الذي كانت حروفه تعليّ باب المحل في  
لافتة كبيرة. "علامين لغسل وكيّ الملابس محظوظٌ فَرَضَ اسما  
يشاءه. رحل. تركنا في بلاد تمسخ كل شيء باستبدال اسمه فور  
اكتسابه ذاكرة وهوية. مؤسف كل أولئك غادروا. بالشارعنا القديم  
المسكين! ما بالك لا تُشبهك؟! هنا، في رأس الشارع كان بيت

"الزَّلَمَات" كما كنا نُسميه صغارا. ليس غريبا ألا يكون موجودا، فقد شهدنا اختفاء أهله زمن الخيبة. بيتٌ بائس يسكنه، في ما مضى، الشقيقان أبو طه وأبو نائل، مع زوجتيهما وعدد كبير جدا من الأبناء، وحده البيت القادر على تشكيل فريق كرة قدم من دون الحاجة إلى آخرين. كانوا يشاركوننا اللعب في ساحات السُّرَّة الترابية. نغلبهم تارة، يغلبوننا أخرى. منذ وُجدنا وبيتهم في رأس الشارع، عائلة فلسطينية هاجرت من جنين. شهدنا هجرتهم، أو تمجيرهم من الكويت لاحقا.. ولكن! عدا ذلك البيت، أين بقية الخليط الذي لوَّ نَ شارعنا القديم؟ وكيف لفهد وعائلته أن يحتملوا البقاء في هذا الشارع من دون روحه؟! أتوقف عند بيت فهد، لم يعد على هيئته التي أعرف، لم أكن لأتوقف أمامه لولا أمسكت نخلاته الثالث عيني، إخلاصة وسعمرانة وبرحية، أو بنات كيفان كما تسميها صاحبة البيت العجوز، نسبة إلى منطقة كيفان التي أحضروا منها النخلات، حيث كانوا يسكنون بيتا قديما، قبل انتقالهم إلى بيتهم هذا. تحاذي بنات كيفان السور في مساحة صغيرة، خارج البيت، كانت مزروعة يوما ما تيّلا يغطي كامل المساحة. ماتت نخلتان، سعمرانة في المنتصف وبرحية عن يسارها تجاه بيت صادق. طالهما الجفاف مثل أشياء كثيرة، يَبِس سعهما وقوَّس الإهمال جذعيهما. وفيما تبدو إخلاصة ميتة هي الأخرى، الملح الأخضر يلوّن سعفا نابتا في رأسها. يبدو الأخضر في رأس إخلاصة نشازا ودودا بين صُفرة لحقت ببقية السعف المائل على الجذع. وراء سعمرانة، عند الباب الأسود الحديدي، أرى اللوح المعدني العتيق، مثبتًا إلى سور تقشّر

دهانه، بقيت حروفه مرئية رغم الصدأ والغبار "منزل صالح آل بن يعقوب" وحده فهد وأسرته لم يتركوا بيتهم، الذي بقي والبيت اللصيق له، عن يساره، لم يتغيراً، بالطابوق الجيري ترابي اللون العتيق، والسُدرة العجوز المائلة، مَسْكَنَ الجن، تخرق سور البيت الجانبي المشترك. تضرب جذورها في عمق الأرض، تنحني، تلقي بجزء من ظلالها في بيت فهد، وجزء آخر في بيت صادق المهجور. البيتان قطعة من الأمس لم تُمس، بانوراما خرساء تجمع أزمانا في زمن مسخ. لم يتغير شيء، لولا نوافذ بيت فهد التي استسلمت لقضبان الألمنيوم، وسوره الذي ازداد ارتفاعا، وما حلّ بنخلاته الثالث. هنا، في بيت قريب من البيتين، يلاصق بيت آل بن يعقوب، عن يمينه، بالقرب من إخلاصة، لم يعد موجودا الآن، أعني، لم يعد باقياً على شكله القديم وناسيه الأولين، ركلتُ الباب قبل سنوات طويلة. أطبقته وأسندتُ ظهري إليه لئلا يدفعه صبية خشيتُ أن يلحقوا بنا. حررتُ كفتي من ثقل حقيبي المدرسية. أخذتُ أنادي بأعلى صوتي: "يُمّه.. يُمّه!" كانت قد عادت من عملها للتو. شهقت إزاء ما رأيت؛ هيئي المتربة وقميصي المفتوح وفمي الدامي. مسحتُ فمي بظهر كفتي لاهثا: "يُمّه.. إحنا شبيعة والا سنّة؟"

\*\*\*

## يحدث الآن 12:31 PM

أترك سيارتي محاذة بيت فهد. أترجّل حافي القدمين نحو بابه الصديء. باب متاكل في مثل عمري فهل أكون؟ ها أنا أمام البيت، يختل ببي الزمن. أمر غريب. كيف نمُّ، في زمن حاضر، مكانا تركناه في زمن بعيد، تتوارى السنوات بين الزمنين، نعود صغارا كيوم تركناه. أثنه إلى ما يستفزُّ حاسة الشمّ لديّ. للماضي رائحة! ووحدها الروائح قادرة على الوفاء للمكان زمن التحلي. أتراها الخالة عائشة قد غسلت حوش منزلها صباح اليوم كما كانت والدة زوجها تفعل؟ هي لم تفعل، مثل أمي حصّة، قط. أتراها مازالت تحارب النسيان بكاميرتها الـ Polaroid الفورية تُخلدُ صور الفنانين؟ أو توثق كلّ مناسبة بكاميرا الفيديو الـ HITACHI القديمة. تنتقم من موتٍ سلّب والدها، بحادث سير في البصرة، قبل ولادتها، من دون أن يترك لها صورة عدا واحدة في أوراقه الثبوتية، شابا لا يشبهه كبيرا؟ أتراها لا تزال تردّد أغنية شعبية قديمة: "وين راح أبوي.. وين راح أبوي؟ راح البصرة.. راح البصرة!" أهى ساخطة على كل شيء كما كانت، أم أنها تخلّب عن مزاجها القديم بعد نيلها ما كانت تصبو إليه طيلة سنوات؛ في أن يكون لها بيتها الخاص؟ ها هو البيت وقد آل إليها بعد رحيل أمي حصّة. لا رائحة لقفص الدجاجات القديم. أتذكر قولها: "أستحي أستقبل ضيوفي في بيت يربي الدجاج!". ما عادت تحجل

الآن بعد اختفاء الدجاجات وصاحبتهما. حسن أنهما لم تقتلع السدرة العجوز، ربما صدقت أمي حصّة: "الجن يحرس مسكنه" ربما استجاب الله إلى دعائها كلما مرّت قرب شجرتها: "سكّنهم مساكنهم الجن أوفى للمكان منا لا شك! الرائحة هنا ماءٌ مشبّعٌ بغبار، وتربة مبتلّسة، وثمار نبق طازجة، رغم مضي خمسة شهور على موسمها! كيف للرائحة أن؟ أوْدُ لو أتجاوز هذا السور الذي ما عدت أرى ما يخفي وراءه. أستلُّ نفساً عميقاً. روائح قديمة محببة تقاوم النتن الساكن مثل غيمة كثيفة أبت أن ترح مكاها. لا أميز روائح حقيقية وأخرى تنثها الذاكرة. الأكد أن سَمَكاً يُطهى في مطبخ آل بن يعقوب. هذا الزفر، والقطط الكثيرة حول البيت، يذكراني باتصال فهد بأمه قبيل فجر اليوم: "يَمَّه.. مشتهي مطبّق سمك"

وراء هذا السور كان لنا حياة تضح بالحياة. ياه! وحدها ذاكرة الطفولة موشومة في الوجدان وكل ذكرى عداها عابرة. أُحس بي، أمام سور البيت، طفلاً في عاشرته. كان السور أوطأ من هذا الذي أراه الآن بكثير. نصفه أو أقل. لون جديد يشي بجِدَّة الجزء العلوي منه، يشهد على تحوّل زمنٍ بين الـ ما قبل والـ ما بعد. صباحات أيام الجمعة، الشتوية منها بالذات، كانت أقصى ما تنمناه نحن الثلاثة، صادق وفهد وأنا. كان حوش بيت العم صالح، والد فهد، جنتنا الصغيرة. بودّي أن أدفع الباب، ولكن، الخوف.. تبا لسطوته. في سنوات بعيدة كنت أُقعي، في دور مكرور، أمد كفي الصغيرتين داخل الشّق الأفقي أسفل الباب، أعالج المزلاج الحديدي المثبّت في ثقب أرضي. أنتصبُ واقفاً. أدفعُ الباب على مصراعيه بكل سهولة. اليوم،

تري كم مزلاج وقفل وسلسلة وراء هذا الباب؟ بسبابة مرتعشة أضغط مكبس الجرس. يتناهى إلي صوت صرير الباب الداخلي، يتبعه صوت خطوات أشبه بصوت احتكاك مكنسة سعف على الأرض. لولا وفاة أمي حصّة، جدة فهد لأبيه، لقلت إنها من يجر خطواته خلف هذا السور، لكنها رحلت مخلفة وراءها بيتها العتيق وسيدرهما الأثيرة و.. نحن. يتوقف صوت الخطوات. في الشق الأفقي أسفل الباب جزء من ظلّ مضطرب يشي بوجود أحد ما. أطرق الباب الحديدي بيدي. "منهو؟"، يبادرنى صوت خالتي عائشة، من وراء الباب، واهنّا مرتبكا خلال طرقاتي. أسألها بصوت لا يشبه صوت طفل العاشرة الذي خلّطني لا أزاله: خالتي أم فهد؟ هذا أنا.. وكانني أفتح أبواب الجحيم بلفظ اسمي: خالتك؟! تخلخل عظامك يا ولد السؤو ما جانا منكم إلا الشقا وحرقة القلب.. لعنات وسباب تختمها بسؤال كالسؤال الذي ساقني إلى بيتها: "وين فهد.. وين راح ولدي.. وين راح ولدي؟" أبتلع سؤالي أبج عن جواب كنت أنتظره منها. تقول إنه كان في طريقه إلى البيت في الرابعة فجرا ولكنه لم يعد. أسألها متجاوزا: "وين عمي صالح؟" أنصتُ إلى خطواتها الثقيلة تكنس بلاط الحوش مبتعدة: "عمك صالح؟ الله لا يصلح لك حال.. ولا يزيدك مال.. تستأنف وصلة اللعنات قافية: ولا يبارك لك عيال.. يا زرع الشر يا أسود الفال كان صوتها مرتفعا. ليس هناك من يردعها بعد رحيل أمي حصّة: صوتك يا عايشة! أنت في البيت، وفري صراخك للبنات في المدرسة! يختفي صوتها مع ارتطام الباب الداخلي. يعود السكون، وتبقى الروائح والأصوات القديمة تزيل عن

أذني ما علق بهما من لعنات. أدير ظهري للبيت أنوي الذهاب إلى مكان لست أدريه. الباب الداخلي يعاود صريره. أرفه السمع. ما أعود أميز بين صرير الباب ونحيب خالتي عائشة في الداخل. يرتفع صوتها: "قلبي قارصني يا صالح!" يقلقني أن أستشعر حزناً في صوت هذه المرأة، وها أنا الآن أستمع إلى نحيبها! ماذا يجئني الوقت لفهد، وما الذي يدفع أمه إلى البكاء على هذا النحو؟ أتذكرها إذا ما أقلقها شيء تخبرنا بأن قلبها يقرصها، وما قرصها قلبها ساعة إلا وكشفت الساعة التي تليها عن مصيبة. لطالما استغربتُ أمي صدق حدس زوجة ابنها صالح. خلعت عليها لقباً: "الساحرة!"

يُفتح الباب الحديدي كاشفاً عن عمي صالح هزيلاً بالكاد أتعرفه. لُغده الممتلئ صار كيساً جلدياً مهترناً. أنفه المعقوف يبدو أكبر مع ضمور وجهه. شاخ كثيراً. يبدو أكبر من سنواته السبعين. بات صورة عن أمه حصّة رحمها الله، ما تركت له الأيام شعرة سوداء في جانبي رأسه الأصلع أو لحيته القصيرة لتذكره بشبابه. يقف أمامي ذابلاً بدشداشته المنزلية المقلّمة الواسعة. لا ينظر إلى عيني. يسدّد نظرتَه إلى قدمي العاريتين. أندفع نحوه لأقبل جبينه. يمدُّ كفه مبسوطة أمام صدري يقول: "مكانك!" يتفرّس ملامحي. لعل آثار الكدمات صورت له مصير ابنه. يُسدّد سبّابته نحو وجهي يهزُّ رأسه: "هذا ثمركم يا زرع السبخة.. هذا زرعكم يا عيال فؤادة!" ألوذ بصميتي. يردف قبل أن يطبق بابه: "لو راح فهد.. دمه وضياح عياله في رقبتك".

\*\*\*

### الفصل الثالث

الجهل بالشيء نعمة في بعض الأحيان. والطفل في لهجتنا "جاهل ونحن، الجهَّال، كنا نعيش هذه النعمة؛ نعمة اللاأدرى. كبرتُ قليلاً وانشغلتُ بأسئلة ممنوعة. ربما لم أكن في حاجة إلى إجابات لها بقدر ما كنت في حاجة إلى لفظ السؤال والتحرُّر منه، أو الشعور بتفاهته من خلال ردِّ المسؤول. كنت في الابتدائية. أسأل عن كل شيء. أزعجتُ والديّ بقبيلة أسئلة؛ كيف ولماذا وهل وأين ومتى. أتذكر الأستاذ مُرهف السوري بعينه الجاحظتين، لاحقاً في مدرسة النجاح، ينصحنى بألا أكثر الأسئلة، الدينية على وجه الخصوص. يقول امتعاضاً من أسئلتى إنني كمن يعيثُ بصناديق لا يأمن أحدٌ محتواها. "السؤال، يا بُنيّ، صندوق، وبعض الصناديق تبتلع أخرى. ما حاجتك لأسئلة كهذه؟"، يقطع أسئلتى العيب والـ حرام على حدِّ وصفه. وإذا ما ألححتُ أواصل، مستمداً جرأتي من كلمة بُني في حديثه، يقاطع: "يفتح الصندوق في أوانه!" لا أتوقف عند قوله. أسأل. يصرخ: "لكُ ما يبصر!" أرفع يدي متعهداً بأن يكون سؤالى الأخير. يقذفني بقطعة طباشور: "لكُ خلاص.. بدنا



نشوف شغلنا!" أمسح جبيني أزيل أثر رصاصته البيضاء. يلين.  
يسمح لي بنفاد صبر: "آخر سؤال أسأله هل الإنسان في أصله قرد،  
أم القرد في أصله إنسان؟ تحفظ عيناه أكثر. أتبرأ من سؤالي: جارتنا  
أمي حصّة تقول إن القرد كان في الأصل إنساناً! ينزعج فهد لأنني  
ذكرتُ اسم جدّته على الملأ. يعض الأستاذ مُرهف لسانه. يصرخ  
بي: "اصطُفَل مِنك لَمعلم التربيّة الإسلاميّة.. العمى شو نَقّاق!"  
ينتهي بي الأمر واقفاً ووجهي إلى الحائط الخلفي، مادّاً ذراعِي إلى  
الأعلى. ألتفتُ إلى صادق، المشغول بالرسم على طاولته في صف  
المقاعد الأخير. أهمس له: "اضغط الزّر!" يضغط الزّر، ولا يختفي  
الأستاذ مُرهف!

في الابتدائية كنتُ، أتوقف عند أمرٍ غامضٍ وآخر مبهم. ألبأ  
إلى والدتي. أشاهد إعلانات الفوط الصحية في التلفزيون أو المجلات.  
لا أحصل على إجابة شافية منها حين أسأل في حيرة: "ليش الحريم  
يلبسون بامبرز؟!" لا يشغلني الأمر كثيراً بعد تحرري من السؤال  
بلفظه، وبعد تورط والدتي وتلكوها في الرد واحمرار وجهها. لا  
تعنّفي، كما سيفعل الأستاذ مُرهف بعد سنوات، لتزيد فضولي حول  
فداحة السؤال وخطورة جوابه، بما يدفعني إلى الإصرار على معرفته،  
أو إلحاح رغبتِي في إدراك سبب خطورته على الأقل. كل الأسئلة التي  
تخص الأنثى، الجسدية والجنسية منها بالذات، ماتت فور لفظها  
بسبب افتعال والدتي لا مبالتها. كيف تحب المرأة؟ لماذا بعد الزواج  
وليس قبله؟ ماذا يعني الرجم الذي سمعت عنه أول مرّة في بيت  
جيراننا؟ ولماذا لا تحب خالتي عائشة بعد عملية إزالته؟ رأيت ديك

أمي حصّة يفعل! من أين تخرج بيضة الدجاجة؟ وحده السؤال، غير الجنسي، الوليد بعد مشاجرة المدرسة تعذر عليه مغادرة رأسي بسبب انتفاضها حين أقسمت، بالله الذي رفع السماء: لولا الدماء في فمك، لصفعتك على شفتيك! أطلقت قسما وهي تمدُّ لي كأس الماء بالملح لأتمضمض وأوقف نزيف سني الساقطة. كنت معها في غرفة الجلوس. في زني المدرسي، أسند ظهري إلى الباب لا أزال بقلب ينتفض بعد مشاجرة المدرسة. أردفت هزُّ سبابتها: "إنت مسلم وبس.. ما يكفيك؟!" كانت قد شكنتني لوالدي. وبّخني وهدّدي بقطع المصروف من دون أن يفهمني سببا لخطورة سؤالي. والدي لا يملك ما يعزّز سلطته سوى تهديده هذا، قطع المصروف وعدم اصطحابي إلى "ألعاب الوليد" و"مركز نحن والأطفال نهاية كل شهر. دفعني فضولي لاستراق السمع بعدما أغلقا باب غرفتهما. ألصقت أذني على الباب الخشبي كعادي. دار حديث جدّي بينهما زاد حيرتي حيرة، ما كان يجب عليك الانفعال.. جهّال.. الكويت كانت.. ما عادت.. قبل بعد.. منذ الثورة الإيرانية.. ثم الحرب العراقية. أقفلت عائدا إلى غرفتي لا أجد تفسيراً لتشنجهما على هذا النحو، ولا أدرك معنى لكلماتهما التي تشبه نشرات الأخبار. لا أفهم ماذا تعني ثورة. حمنت: "يمكن.. زوجة الثور؟" منذ ذلك اليوم والأمر يلفه غموض. لا ألفظ اسم أي طائفة من الطائفتين خشية صفة تورّم شفتي. في تلك السن حسبت أن كلتا الطائفتين لا تنتمي إلى الإسلام. كبرتُ وفهمتُ عكس ذلك. كبرتُ أكثر، ومع ظهور المتطرفين، هنا وهناك، أصبحتُ أشك في ذلك.

صباح الخميس، بعد يومين من حادثة فقدان السن، ذهبتُ باكراً إلى بيت عمي صالح. رأيت الصبي الإيراني، ابن حيدر البقال، بسرّوالة المُقلّم، منصرفاً للتوّ يعدّ نقوداً أمام باب البيت. حيّته وأنا أفكر في الممنوعات التي يحصي ثمنها. أزحّت مزلاج الباب الحديدي من الخارج، انطلقتُ جرياً إلى غرفة الجلوس. صوت التلفزيون مرتفعاً يستفز الهدوء في حوش البيت، وهو ما يعني أن العم صالح غير موجودٍ في بيته، وأن فوزية، عمّة فهد، وحدها في غرفة الجلوس. توقفتُ عند عتبة الباب. أحذية وأنعلٌ بعضها مقلوب على ظهره، وهذا دليل على أن أمي حصّة ليست في البيت. رغم صعوبة حركتها لا تكفُّ تنحني، تسندُ كفيها إلى ركبتيها تنهد، إذا ما رأت نعلاً مقلوبة في الحوش أو عند عتبة الباب. تعيدها إلى وضعها الطبيعي. "يَمّه حصّة! ليش؟"، كنت أسألها. تشير بإصبعها إلى السماء من دون أن تنظر إليها رهبة. تجيب: "أستغفر الله" أتخيل الله، في حدود وعيي، فوق عرشه في السماء من دون أن أرفع رأسي. أطأطئ هامساً: "أستغفر الله" تمسّدُ على رأسي: "عَفِيه على وليدي"

رحت أعيد الأحذية والأنعل المقلوبة إلى وضعها الطبيعي. أوجه باطنها إلى موطن الشيطان، ذلك الذي كنت أخافه، أهينه مستمداً جرأتِي من الله عبر تصرفات أمي حصّة. لعينٌ لا عمل له سوى مطاردتي. حبيث فاسدٌ لئيم، كانت تقول. إن أنا أهملتُ قص أظفاري سَكَنَ تحتها. يأكل من طبقي إن نسيتُ ذكر الله على المائدة. يدخلُ معي أي مكان أدخله بقدمي اليسرى. يستقبلني في

الحَمَام إن دخلتُ بقدمي اليميني. ينسلُّ مع الهواء إلى باطني إن تئاءتُ دون أن أحجب فمي بكفّي. يبول في أُذني إن نمتُ عن صلاة الفجر. كنتُ أحتاطه في كلِّ شيء عدا فعله الأخير. أظنه فعلها كثيرا. كنتُ، إذا ما أيقظتني الشمسُ، أمهض إلى الحمام مسرعا أدسُ إصبعي في أُذني، مُتقززا، أدعكهما بالماء والصابون. أقضي صباحي مستغفرا.

تجاوزت عتبة الباب. في الممر المؤدي إلى الداخل كان في استقبال، كالعادة، الرئيس العراقي، بطل القادسية، أبو عُدي، أو الرئيس كما يخلو للعم صالح، آنذاك، تسميته، يرتدي بذلة سوداء في صورة بإطار مُدَهَّب معلقة إلى الجدار بين مزهرتين كبيرتين لريش طاووس، تحيط إطارها نبات متسلقة. قصاصات جرائد لتصريحات وزير الدفاع والخارجية، حفظتها عن ظهر قلب، ألصقها صاحب البيت المهووس بالشعارات أسفل الصورة. جريدة الوطن: "وزير الخارجية: الكويت تدعم العراق علنا" جريدة الرأي العام: "الكويت ترفض القواعد الأجنبية" "وزير الدفاع للأميركيين في واشنطن: حلّوا عن سمانا وبحرنا" "مؤكدا دعم جميع الدول العربية للكويت، وزير الدفاع: لن نوقع أي اتفاق لمنح قواعد أجنبية وتسهيلات عسكرية" تجاوزت الممر نحو غرفة الجلوس. تاركا وراء ظهري جدارية عمي صالح. وجدت فوزية تتكى إلى مسند، منسجمة، تتابع نفسها صغيرة على شاشة التلفزيون، في أغنية وطنية شاركت بها في احتفالات وزارة التربية في فبراير 1981. تردّد الأغنية، "أحلى السوالف"، مع الفتيات الراقصات على الشاشة بصوت خفيض:

"بنقول لكم سالفه، وللسامعين كافة، أحلى السوالف.. حلوة فوزية، في شاشة التلفزيون كما هي في غرفة الجلوس. لم أمنحها اعترافاً قط، هي ليست في حاجة إليه، بألها تتخذ في محيلتي صورة فراشة وردية تحلق في حدائق الأغنيات والبهجة. انتبهت إلى وجودي من دون أن تلتفت نحوي. دسّت قطعاً من الشوكولاتة، كانت في حجرها، أخفتها أسفل المسند. كنت أستغرب إدمانها الشوكولاتة وهي فتاة تقتلها الحلويات. لو أن أمي حصّة تعلم بتواطؤ ابن حيدر البقال! تقدّمتُ إلى خزانة التلفزيون الخشبية. خزانة خشبية متينة مزخرفة. في كل مرة أزور فيها بيت عمي صالح أجد صورة فوزية جديدة لفهد، إلى جانب صوره القديمة، ملصقة على باب الخزانة. ألقى نظرة على الصورة الجديدة قبل أن أجلس إلى جانب فوزية. ولأنها تكبرنا بسنة أعوام فقط، كنت أناديها باسمها: "السلام عليكم فوزية" لم تحفل بتحيّتي وكأنني غير موجود. واصلت غناءها وهي توجه سبابتيها إلى أذنيها: "تعالوا سمعوها.. وأمانة حفظوها.. هكذا كانت، تتجاهلني إن لم أسبق اسمها بـ عمّتي، وإن كان فهد مكرها على ذلك، فلأنها عمته، أما أن تكون لي عمّة في السادسة عشرة! مددتُ كفي أمام وجهها أحولُ بين نظرها والتلفزيون. لم تكثرث. أخذتُ أمشي أمامها جيئة وذهاباً أعمدّ مناكفتها. عيناها ثابتتان نحو الشاشة وكأنني كائن شفاف. دنوتُ بوجهي إلى وجهها بعينين حولوين وابتسامة واسعة تنقصها سن. زمّت شفتيها على ابتسامة ملحّة. رفعتُ دُشداشتي إلى ما دون ركبتي، أميل برأسي يمينا ويسارا، أقلد رقصات الفتيات في التلفزيون. أرددُ بصوت عال ما تقوله

الأغنية عن الكويت: "هي عندنا إسدیره.. اسمها أم الخير.. والمولى من خيره.. عطاها كل الخير.. أسندت ظهرها إلى الأريكة تقيهقه. تدريني أقوم بتقليد رقصاتها بين الفتيات في حفل العيد الوطني. ربّت على الأريكة تطلب مني الجلوس لتحدّثني عن الأوبريت. جلستُ إلى جانبها، أشير بسبّاتي نحو شاشة التلفزيون، متهكما: "خلّيني أسولف لك عنك في الأوبريت هالمرة!" كانت، متهللة الوجه، تشاهد نفسها بين عشرين فتاة بفساتين وردية منفوشة. تعلق رأس كل واحدة منهن وردتان وشرائط بلون فساتينهن. "كان عمرك تسع سنوات يا فوزية.. لم تمهلني أكمل. ارتفع صوتها تزجري بتسمية تخصني بها: "كتكوت!" قالت من دون أن تبعد عينيها عن الشاشة. أتمّت: "آنا مو أصغر عيالك!" تداركتُ: "يا عمّي فوزية" هزّت رأسها كمن حقق انتصارا. واصلتُ استعراض ما لقنتني إياه: "في عيد الاستقلال العشرين، كان عمرك تسعة، اختاروك مس بين.. قاطعتني: "بس كافي! حفظتُ الدرس تمام يا ولد!" مددتُ لساني. أعاود رقصاتي الغبية. استطردتُ وهي تنظر إلى عيني حانقة: "كل الكويتيين يعرفون البن الحلوة في التلفزيون.. مسكين انت من يدري عنك يا كتكوت؟!" أجبتها مواصلا رقصي الأبله بأنها حلوة لأن دماءها مليئة بالسُّكَّر لم ترد. رأيتُ سخافة مُزحيتي على ملامحها. جلستُ إلى جانبها أحدقُ في وجهها يعترضني ندم. ذلك الوجه يُشبهه يوم كان طفلا على التلفزيون. لم تتغيّر فوزية كثيرا غير أنها غدت امرأة بحسّ طفولي لم يغادرها. أتذكر عينيها الواسعتين وبشرتها السمراء وشعرها شديد السواد يغطي ظهرها كاملا يجاوز مؤخرتها،

كما تصفه أُمي حِصَّة. فوزية تغضب إزاء الوصف: "قولي تحت ظهرها.. يُمه!" أتذكر أنفها الدقيق، تصفه أمها بـ "سلة سيف" ما جعلني لا أفوتُ فرصةً أناكفها، أحمل سيفاً بلاستيكيًا أُقربه إلى أنفها: "تبارزين؟!"

لم يكن لدى فوزية شيء تحكيه سوى مشاركتها في الأوبريت الوطني إياه، وظهورها في التلفزيون مع أخريات تم اختيارهن من مدرسة إشبيلية الابتدائية، وقت سكَن آل بن يعقوب بيتًا قديمًا يقابل مسجدًا درَج الناس على تسميته بمسجد بن عبيدان نسبة إلى إمامه، في شارع إشبيلية، قبل انتقالهم من كيفان إلى السُرَّة. شارعٌ تخاله يقطع مروجًا خضراء مزهرة وأشجارًا مثمرة وبحيرات تطفو على بساط أخضر إذا ما تحدّثت عنه الفراشة الوردية. تصر فوزية دائمًا: "كيفان أحلى من السُرَّة!" تغيب في حديثها تستعيد ذكريات منطقتها القديمة؛ حديقة الأندلس، مدرسة إشبيلية، مسرح المسعود، وصوت الإمام بن عبيدان يتلو القرآن في المسجد مقابل المسرح. لم آبه يوما بحديثها وأنا أرى مناطقنا تتشابه في كلِّ شيء عدا أسمائها. أُمي حِصَّة دائمًا تجيب ابنتها مثلًا شعبيًّا إذا ما راحت تبالغ في وصف كيفان: كلُّ بلدٍ في عين أهله مصر!

رغم حظوظ فوزية الوفيرة بالظهور في برامج تلفزيونية مشهورة مثل "ماما أنيسة والأطفال"، و"الفنان الصغير"، و"مع الطلبة"، فإن ظهورها في الأوبريت الوطني، ممثلة مدرستها القديمة، كان مغايرًا. تعتزُّ به كحدث فريد، لأن أمير البلاد كان حاضرًا في صف المقاعد الأمامي. سوف تتعلق بذكراياتها القديمة أكثر حينما يقف أحوها

صالح، بعد سنوات، ضد إكمال دراستها عقب المرحلة الثانوية. يجنبها مخالطة الذكور في الجامعة. نعرفه شديد الغيرة على نساء بيته. كان حُلْم شقيقته أن تتخرج في الجامعة بمُعدَّل عالٍ، كي تحظى بمصافحة أمير البلاد الذي يرعى حفل التخرُّج كل سنة، إلا أن شيئاً من أحلامها لم يتحقق بسبب عناد شقيقها صالح، وبسبب ما حلَّ بها لاحقاً. أمي حصّة ذاتها لم تستطع أن تُثني ابنها عن قراره حين اتخذه قاطعاً: "مكافأ البيت!"، في حين لم يمنع زوجته، خالتي عائشة، عن العمل في التدريس، مبرراً بأن عملها في مدرسة بنات غير مختلطة. دائماً ما تردّد فوزية، في غياب شقيقها الأكبر "أسد علي.. دجاجة مع زوجته!" أمي حصّة توليها اهتماماً غير عادي: قليلة حظ.. يتيمة أب.. هدّها المرض. سألتُ فوزية فور انتهاء الأغنية في التلفزيون عن فهد. أجابت: "بعده الحارس الأمين نايم كان عمي صالح وزوجته وأمه في مزرعتهم في منطقة الوفرة. وكانت فوزية لا تحب الذهاب إلى مزرعة لا شيء فيها عدا الخيار والبصل والخس والطماطم: "لا حَمَّام سباحة ولا حيوانات أليفة.. هذي جيرة مو مزرعة!" تواصلت تذرهما على وقتٍ يهدره أصحاب البيت في جلب بعض الخضراوات والفواكه من المزرعة بدلا من جلبها من جيرة الخضار في الشويخ!

ولكي لا تبقى فوزية في البيت وحدها، كان لابد أن يبقى ابن شقيقها، بأمر من أبيه، رقيقاً عليها في البيت أثناء غياب البقية. عادت إلى شرودها مع التلفزيون. سؤالي المؤجل، قسراً، عاد يلحُّ داخل رأسي. نبهتها: "فوزية!" حدجتني نظرة مستنكرة. ضربتُ جبيني بكفِّي أُصَحح: "أقصد.. عمي فوزية" أجابت: "نعم تحسّستُ



شفتي أستعيد تهديد والدي. ماذا لو سألتُ فوزية إلى أي طائفة  
ينتمون؟ أتراها تصفعي على شفتي؟! ألبستُ سؤالاً ثوباً يجنبني  
الوقوع في مأزق.

حديقة الحيوان.. في أي منطقة؟"

أجابت على الفور:

"العُمريَّة.. ليش تسأل؟"

ظننتُ أنني اكتشفتُ، بحيلتي، إلى أي مذهب ينتمي بيت العم  
صالح. سألتها:

"العُمريَّة أم العُميرية؟"

قالت من دون اكتراث:

"عُمريَّة عُميريَّة.. وين الفرق؟!"

"أنا أسألك عن الفرق"

أطرقتُ تفكر بصوت مسموع؛ ربما في لافتات الشوارع تُكتب  
بالفصحى "العُمريَّة"، وفي اللهجة الدارجة "العُميريَّة" تقول إنها  
ليست متأكدة، ولكنها، على أي حال، تلفظها بالطريقتين.

وجدتني بلا إجابة شافية بعد أن حسبتني قد توصلتُ إليها.  
انتظرتُ فهذا مدةً طويلة في غرفة الجلوس، ولكنه لم يظهر في ذلك  
اليوم. تملمت فوزية في جلستها بعد انتهاء الأغنيات الوطنية في

التلفزيون. شرعتُ تغني: "شُلُوح مَلُوح.. إِلي يدَل بيتَه يروح"  
كانت تطردني بلطف. تجاوزتُ سخافة لطفها. سألتني إن كنت  
سأطيل البقاء. كانت مرتبكة. أحببتها بأني لن أبرح مكاني قبل أن  
يصحو فهد. أطلقتُ زفرة تخفي تدمرها. أزاحت، من تحت مرفقها،  
مسند الممنوعات التي أحضرها ابن حيدر البقال. نظرت إليَّ بابتسامة  
ودودة. التقطتُ كتابا كانت قد أخفته أسفل المسند مع قطعتي  
شوكلاتة "آرو" و"ككاو أبو أسد" بادرتُ وهي تمدُّ يدها إليَّ  
بقطعة: أنت لن تحير أُمي بهذا. لوَّحت بقطعة الشوكلاتة. تسدَّدُ  
نظرة رجاء إلى وجهي. هززتُ رأسي موافقا. تقاسمتُ معي حلواها  
في حين كنتُ أنظر إلى الكتاب بين يديها. لستُ في حاجة إلى أن  
أخمن: "إحسان دُفوس.. صح؟"، سألتها ساخرا. أجابت مرتبكة  
تصحح: "عبدالقدُوس.. لا تذكر اسمه عند صالح" هززتُ رأسي  
متفهما جدِّيتها إزاء حساسية شقيقها تجاه قصص حبٍّ ممنوعة تُفسد  
العقل والأخلاق والسلوك. تركتني فوزية ترتقي السُّلم إلى غرفتها  
وهي تغني كالغائبة عن وعيها:

"ونحن أبناء الكويت الرائدة.. طريقنا نحو المعالي صاعدا"

\*\*\*

## يحدث الآن 12:36 PM

"لو راح فهد.. دمه وضياع عياله في رقبتك"

ما زالت كلمات عمي صالح تتردد في رأسي. أطبقُ باب السيارة. لا أدير محرّكها. أسند رأسي إلى رأس المقعد. أعاود الاتصال بهما، صادق وفهد، أولهما جهاز مغلق لا يزال، والثاني جهاز ردّي آلي عنيد يُملي عليّ أوامره بترك رسالة. أي رسالة وقد فات أوان الرسائل؟! أطوف ببصري أمسح شارعنا القديم. بيت صادق يكاد يكون أثرى. مهجور منذ ستة عشر عامًا، منذ تركه أصحابه لصالح بيت جديد في الرميثة. طبقات غبار نزل عليها المطر أحلها طينا جفّ على الأرض وأعلى السور والعتبات الثلاث أمام الباب. سلاسل قديمة صدئة أسفل مظلات السيارات، وعبارة "مواقف خاصة" لا تزال المحّ أثرها على السور، قيل إن عمي عباس كتبها على سور بيته ثاني أيام عزاء آل بن يعقوب عند وفاة صاحب البيت العجوز في تفجيرات المقاهي الشعبية. ضاق ذرعا بزحمة المعزين لدى جاره. أحاط المساحة أمام بيته بالسلاسل. كُتب صراحة: مواقف خاصة!

أمكث في سيّارتي وسط شارعنا القديم. أدير مؤشر المذيع لعل شيئاً يُذكر عن حادثة اليوم. إذاعة الكويت تُبث أغنية "الله يا الأيام" لعبدالكريم عبدالقادر. أتذكر فهدًا المعجب به طفلاً والمجنون به

مراهقاً. لماذا هو من بين كل المطربين؟ كنت أسأله. يجيب بأن عبدالكريم يعني له وحده. كان يصفُ كل أغنية بأسلوب لا أفهمه. يرى في كل واحدة لونا وموسماً ورائحة ومذاقاً. يسألني عمّا أراه أثناء استماعنا. لم أرَ شيئاً قط. لون هذه أزرق سماوي، تلك بيضاء قطنية، أخرى ترايبية بلون سماء مغبرة، أو حمراء بلون أذني صادق. هذه شتوية، وتلك ربيعية ملوّنة، وأخرى قاتظة مثل يوليو.. مالحة، حلوة، مرّة، حاذقة مثل أچار جدّته، أو عطرية مثل قهوة عربية. أناكفه، إذا ما انتهى من وصفه، أسخر من مطربه الأثير. لا يحتمل. يُنهي حوارنا موجهاً سبّابته إليّ: "حيوان!"

اليوم، أسترجع جملة فهد أمام بيته القلم. أجدها تناسني أكثر، رغم عجزني عن توصيف لونٍ للأغنية في خلفية رمادية، وموسمٍ مسخٍ غير واضح، ومذاق كريبه ورائحة لا تحتمل.. عبدالكريم يعني لي، الآن، وحدي: "البيت، ذاك البيت.. وسبكتُه سهله.. أموت لو مرّيت.. من شوقي لأهله" كدأبه إعلامنا لا يُشبهنا، كأنه في بلد آخر. ولكن، صدقاً، بثه هذه المرة يجيء، وإن بغير قصد، في أوانه. يأخذني بعيداً عني. يأخذني إلى بقعة في مكان سحيق من الذاكرة. حين تملكني فحأة. لسنا في وقت يسمح لنا بترف الحنين إلى زمن طفولة في ماضٍ كان، ولكنه حنين إلى زمن، رغم الخيات فيه، عشناه بأفضل ما يكون. ألتفُّ إلى المكان حولي. أتذكر أغنيات الأطفال، الأهازيج، الزغاريد، الفرح والأعلام والزينة.

أنظر إلى بيت العم صالح بشكله الجديد المنفر. تستنزف إذاعة الكويت ما تبقى من تماسكي، تجلدي بصوت عبدالكريم، وتُقلِّب

ذكرياتٍ ليس هذا أوان استرجاعها. أجدني غائبا كغياب فوزية في  
حضرة أغنياها الوطنية قبل سنوات. يقسو علي عبدالكريم بحب:  
"هالبيت وش زينته.. وش زينها سنيته.. كنا تحت سَقْفَه.. نسهر ولا  
نعفى.. وجوتنا صافي.. وقلوبنا أصفى ماذا لو يُبعث الأطفال الذين  
كُفّنوا في داخلنا من جديد، وإن كان ماضيهم محض خدعة أزيح  
الستار عن حقيقتها اليوم! هل كان جوتنا صافيا بحق؟ وهل كانت  
قلوبنا؟ وهل لي أن أوقف أسئلة ما نفعني يوما؟!

يرن هاتفني المحمول: "ألو!"

"وين صادق؟"

"عمي عبّاس؟!"

يصرخُ:

"عمّا بعينك.. وين صادق؟"

كانت خالتي عائشة أكثر لطفًا في انتقاء سبابها ولعنائها. يحتم  
مكالمته:

"يلعن أبوكم لآبو فؤادة لآبو من أسسكم يا عيال  
الكلب!"

تجنّبي مكالمته خطورة طريق كنت أنوي عبوره إلى منطقة  
الرميشية. إذن صادق ليس في بيته. أفتح دُرج السيارة تحت مرفقي.  
أتناول زجاجة عطر. أصبُّ منها في راحة كفي. أستنشق العطر في

نفسٍ طويلٍ أغسل رثيَّ من الهواء العَفِن. أدير مؤشِر المذيع إلى محطة  
أخرى: "في إجراء غير معلن سحبت قوات ما يُسمى بدرع الجزيرة  
الكافرة آخر كتائبها من الكويت صبيحة هذا اليوم المبارك، وذلك  
في رد فعل فوري إزاء قيام ثورة جديدة في الجوار ينفذها إخواننا  
إحياء واستكمالاً لانتفاضة محرّم 1979.. هيهات منا الذلّة" أهرب  
إلى محطة غيرها: "هذا وأكد مصدر مسؤول استتباب الأمن الداخلي  
بعكس ما يشيعه أذنان الفُرسِ في الخارج.. أتقل بين الإذاعات لا  
أدري من أصدّق. الذي أدريه أنني أشتاق إلى صوت أمي حصّة  
تخاطب مذياعها الترانزستور: يفوتك من الكذّاب صدقٌ كثير!

\* \* \*



## الفصل الرابع

مثل كل يوم جمعة، انطلقتُ إلى حوش بيت عمي صالح باكرا، ليسعني الوقتُ لأذهب إلى المسجد تاليا، أحتلُّ مساحة أسفل عمودٍ ألفتُ إسناد ظهري إليه، أستمع إلى الخطبة أو أقرأ القرآن قبل بدئها. سيارَة عمي صالح أسفل المظلة، محمَّلة بأصناف الخضار، ما يعني أنهم قد عادوا من الوفرة للتوّ. انتظرتُ، صباح الأمس، طويلا كي يصحو فهد بعد ذهاب فوزية إلى غرفتها، ولكنني عدتُ إلى بيتنا من دون أن ألتقيه.

أقعبتُ عند الباب. كان خرطوم الماء يمتدُّ من الصنبور داخل الحوش، يمرُّ أسفل الباب مثل أفعى، يصبُّ ماءه في مجرى بنات كيفان الثالث. دفعتُ الباب الحديدي بعد إزاحة مزلاجه الأرضي. كعادتها أُمي حصّة تفتعدُ كرسيًا خشبياً أسفل سقيفة من جريد النخل، يخترقها جذع السُدرة، في الحديقة الصغيرة. زرغٌ في حوض ترابي مستطيل، بحجم بركة سباحة متوسطة الحجم، تنتشر فيه عشوائيا بعض الحشائش، عن يمين الداخل إلى الحوش المفروش بلاطٌ أبيض مطعّم بكتل صخرية سوداء وبنية ورمادية متفاوتة الحجم والأشكال. يقوم، في جانب الحوش الأيسر، مبنى الملحق حيث الديوانية وحمامها



الخارجي والمطبخ. عادة ما يكون مبنى الملحق، فهارات الجمعة، محجوبا وراء الشراشف وغطاءات الوسائد البيضاء على جبل الغسيل. تنتُ روائح محببة تُلطِّفُ أسوأ أيام الأسبوع، قبل استئناف الدراسة كلَّ سبت. رأيت أُمِّي حصَّةً، بثوبها الأسود وجوَّريَّها الصوفيَّين الثقيلين، تجلس أسفل السِّدرة على مقعدها الخشبي قصير القوائم، تلقي ملفعها الأسود على كتفيها كاشفة شبيها الأحمر بفعل الحناء، تُسندُ طبقها النحاسي الدائري إلى ركبتيها، تضيقُ عينها، تُنقي الرُّز وتزيل عنه الدُوِّيَّة. تغني بصوتها المعجوز مع زقزقة الزرازير "يا سِدرة العشاق، يا حلوة الأوراق.. لا يُخرجها إلى الحوش، أسفل السقيفة، إلا الشتاء والربيع اللذان يمران بسرعة قبل الصيف الطويل. في الصيف لا تخرج إلا نادرا لريِّ سِدرتها الأثيرة بين يومٍ وآخر. لا تطيل الجلوس أسفل سقيفة جريد النخل، تكتفي بدقائق حانية، كما تقول، مقارنةً بكونك ريت باردٍ ثقيل دمٍ لا حياة فيه.

التفتُ إلى قفص الدجاجات خوفاً من فأرٍ عابرٍ يعكر علي صفو الصباح، رغم تأكيد أُمِّي حصَّةً أن الفئران لا تجرؤُ على الاقتراب من قفص الدجاجات ما لم تكن إحدى بيضاتها مكسورة، ولا تتخلى الدجاجة عن بيضتها، للفأر، إلا إذا رأت زلالها مهدورا! جلستُ على الأرض بقرها بعدما قطعتُ أغنيتها أقبل جبينها: "صَبَّحَكَ اللهُ بالخير يُمُّه حصَّةً" دسَّت كفها مفرقةً أصابعها المحتاة بين حَبَّات الرُّز: "صَبَّحَكَ اللهُ بالنور.. شلون الست الناظرة؟" لم تنتظر ردِّي تواصل غناءها: "ملزوم عليه أشفاق، يا سِدرة العشاق" لستُ أدري، وقتها، إن كانت تشير إلى والدتي. بمسماها الوظيفي تقديرا أم تمكما. الذي

أدريه أنني دائم الإجابة: "أمي زينة" كانت غاضبة من والدي، منذ سنة، لأنها وبَّختُ كَنَّتْها المعلمة في المدرسة نفسها. تقول إن الست الناظرة لما رأت عائشة تضحك مع إحدى المعلّمت، في أحد ممرّات المدرسة، صرختُ بها: "إنّي! على شنو تضحكين؟! " أشارت بسبّابتها إلى غرفة المعلّمت أمرة: "على شغلك!"

أمي حصّة ترى، في موقف والدي مع كَنَّتْها، خيانة للحيرة. باب الحديث عن والدي، إذا ما فتح، لا توصله محاولات. كان والدي قد قاطعت زيارة بيت آل بن يعقوب منذ هاتفتها العجوز، تلومها على صرامتها مع عائشة في المدرسة. "زعلتُ الست الناظرة، شال في قلبها، مع إني سافرت ورجعت من بيت الله، ولا كلّفت نفسها تزورني وتسلم علي مثل باقي الجارات!"

فتحت فمي إزاء قولها. شطّ خيالي بعيدا يُصور طائرة تمضي في السماء نحو بيت الله:

"رحتي بيت الله؟"

أخرجت كفّها من بين حَبّات الرُّز. تحرّك ثلاثة أصابع أمام وجهي:

"ثلاث مرّات"

ارتفع صوتي أسألها:

- "وشفتي الله؟!"

تركت طبق الرُّزّ النحاسي على حجرها. أسندت ذراعيها  
إلى رأسها تزجرتي:

"الله ياخذك! راح تطيح علينا السما!"

التصقتُ بقائمة مقعدها الخشبي. أحتمي بذراعي خشية  
سقوط السماء. تبراتُ من سؤالٍ سريعاً:

"إنّي تقولين رحتي بيت الله!"

شدّت أذني حتى كادت تنتزعها:

"بيت الله يعني الكعبة يا خيل! استغفر ربك!"

صرتُ أستغفر وأضغط بكفّي على أذني كأنني أعيد تثبيتها.

ارتفع فجأة، من حوش الجيران، صوت المذياع بأغنية عراقية  
لناظم الغزالي. تركتُ أمي حصّةً الطبق النحاسي في حجرها. ضمّت  
كفّيها إلى بعضهما، تطقُّ إصبعيها كما يفعل العراقيون. رفعت  
صوتها:

"أغاني في يوم الجمعة يا عجوز الشّطّ؟!"

جاء صوت جارتنا العراقية، أمي زينب، ضاحكاً:

"عند الله السّعّه يا عجوز النار! من الصُّبح وآنه جاي  
اسمّعك تغنين يا سِدرة العشاق.. حلال عليك حرام  
عليّه؟!"

ضحكت العجوزتان. كان السؤال الذي لم أجد له إجابة عند والدي وفوزية، يدور في خلدي. "يَمَّ حِصَّة!" التقطت دويبة بين إصبعيها. أطلقتها في الهواء. أجابتي: "خير؟" ترددت قبل أن ألقى بسؤالي في أي منطقة تقع حديقة الحيوان؟ نظرت إلى وجهي. اتسعت المسافة بين عينيها وحاجبيها. برطمت تضرب الهواء بكفها. حطت حمامة رمادية على سور البيت. انصرفت إليها أُمي حِصَّة. نثرت حبات الرز بين الحشائش تحثها على الاقتراب: "تَعُ تَعُ" استجابت الحمامة حطت على الأرض. نَبَّهتني: لا تفزعها. همست لها بسؤالي مرّة أخرى: "ما جاوبتيني! حديقة الحيوان وين؟" انصرفت تنظر إلى دجاجاتها حول حوض الماء البلاستيكي، تكرر من مائه قبل أن تشرئب رؤوسها توجه مناقيرها إلى السماء تغرغر مغمضة العين. هزّت أُمي حِصَّة رأسها مضيقّة عينيها بتبسم: "سبحان الله" تمدد سبابتها باتجاه القفص: "شوف شوف!"، تحثني أنظر إلى الدجاجات تناجي ربها في السماء، تحمده على سقياها. يكفهر وجهها فجأة: حتى الدجاج يعرف الله.. ليت ربي يهدي زوجة ابو سامي! تجاوزت قولها أكرّر سؤالي: "حديقة الحيوان، يَمَّ حِصَّة، في أي منطقة؟" شزرتني: "ليش تسأل؟" ارتبكت. انطلق صوت مألوف لا تكتمل من دونه صباحات الجمعة القديمة مقاطعا حديثنا: "خاااام.. خاااام" فرّت الحمامة مخلفة حبات رز فوق التراب. بائع الصرة اليميني كعادته، ينطلق صوته بعيدا من أول الشارع، يرتفع كلما اقترب من بيوتنا. ثلاثة أصوات تبث الرعب في نفسي عندما كنت صغيرا؛ صيحات بائع الصرة، وزعيق صافرات الإنذار التجريية التي ألفناها

زمن حرب الخليج الأولى بين العراق وإيران، ونباح الكلب السلوقي  
 الطليق في حوش بيت جارنا أبي سامي، البيت المطل على بيت  
 صادق، بيت زوج الأميركية كما تسميه نسوة الحي. وفي المقابل،  
 كان صوت واحد ينسني أصوات الشارع المخيفة، الصوت المحبب  
 لدى أطفال الحي كافة، بائع الثلجات الفلسطيني الكهل، أبو سامح،  
 وقت مروره بعربته ذات الشمسية الحمراء، عصر كل يوم، في  
 شارعنا ينادي: "بَرْد.. بَرْد.. أو إذا ما استقرَّ بعربته في آخر  
 الشارع. يسند ذقنه إلى كفه. يردُّ أغنيته الأثيرة بصوته المتعب: "عمبي  
 لي الجرّة" أو إذا ما راح يتغرَّل بعربة مكنته من إلحاق أبنائه الثلاثة  
 بالجامعة. أرهفت أُمي حصّة سمعها تتحقّق من نداءات بائع الصُّرّة.  
 قالت بابتسامة واسعة إن تينا تنتظره منذ أسبوع. أزعجت طبق الرز  
 عن ركبتيها تمده إلى: "امسك" تأمري بأن أجرب أن أكون ربّة  
 بيت ولو لمرة واحدة في حياتي. وقفت، بقامتها القصيرة، تنفض ثوبها  
 من بقايا غير صالحة. اقتربت نداءات بائع الصُّرّة أكثر: "حالاام..  
 خاااام" جلستُ على الكرسي الخشبي القصير أسند الطبق  
 النحاسي إلى ركبتيّ. حثت أُمي حصّة خطواتها الثقيلة إلى داخل  
 البيت تنادي: "تينا.. يا تينا" اختفت وراء شراشف جبل الغسيل.  
 خرجت بعد ثوان تتبعها "هندية" بيت عمي صالح السيريلانكية  
 ترتدي الدّراعة المنزلية. معظم خدام المنازل من الهند، وكلمة هندية أو  
 هندي، في حدود وعينا، لم تكن تعني سوى خادمة أو خادم: "هندية  
 بيت أبي سامي الفلبينية، أو هندي بيت العويدل البنغالي خادمة  
 بيت آل بن يعقوب، كما تسميها خالتي عائشة: "بنت أُمي حصّة"،

غيرةً وهكّما على مبالغة حماقتهما في معاملة الخادمة معاملة طيبة، اسمها تينا، فتاةٌ أُمّيةٌ سيريلانكية جاءت من بلدها هرباً من الحرب الأهلية بين السنهال والتاميل. ما كنت لأدري بأنها لا تقرأ ولا تكتب لولا مكوثها في غرفتها نهاية كل شهر تسجل رسائل صوتية لأهلها على شريط كاسيت. قضت سنوات طويلة في بيت عمي صالح كأنها من أفراد العائلة، تشاركهم الطعام على الأرض كل يوم، وتأخذ من الوقت ما تشاء لمتابعة الأفلام الهندية عصر كل جمعة عندما يرتفع صوت أمي حِصّةً منادياً: "تينا! تعالي بسرعة! فيلم لـ أميتاب باتشان!" نجلس مع تينا نتابع بشغف رغم مبالغات أفلام أميتاب الخارقة. لا يجرؤ أحد على تكليفها بأي عمل تزامنا مع عرض الفيلم. كان ذلك أمراً ملفتاً ما كنب لأراه لولا أن صاحبة البيت.. أمي حِصّةً.

أحكمت أمي حِصّةً لفّ الملفع حول رأسها قبل أن تفتح تينا الباب الحديدي لبائع الصرّة تدعوه للدخول. جلس الرجل أرضاً، بالقرب من الباب الحديدي، يفك رباط صرّته الزرقاء، المرقّعة بقطع قماش من كل الألوان، يفرشها فوق البلاط. تقدّمت تينا نحو أسفل السدرة. مدهون شعرها بزيت جوز الهند. فترتني أمرّة بأن أترك لها كرسي "ماما كبير!" تركته لها أهزُّ رأسي مدعنا: "حاضر عمّتي!"، لا ضير في أن تكون، ما دامت في سينّ تؤهلها لذلك. حملت الكرسي مسرعة نحو البائع. جلستُ على الأرض المتربة. كدتُ أسنّد ظهري إلى جذع السدرة. تردّدتُ. رفعتُ رأسي أنظر إلى أعصافها من خلال الهوة أعلى السقيفة. انتبهت أمي حِصّةً: "لا تخاف! الجن يسكنها

فوق، في الغصون" أرحتُ ظهري على الجذع أقوم بدور ربة البيت مرة أولى في حياتي. بين ترقُبٍ لأي حركة تصدر عن جنّياتٍ وقيّاتٍ لسدرتهم، وخوف من رجل عجوز حادّ الصوت مكفهر الوجه، وقلق إزاء ظهور محتمل لفأر جائع، كنت دائم الالتفات إلى قفص الدجاج. أتنفس بحذر. شيء من شهيق أطرده قبل أن يملأ رئتيّ، خوفا من طاعونٍ، حدثني عنه والدتي، تنقله الفئران إلى البشر. أمي حصّة أيضا أخبرتني، ذات يوم، أنها شهدت زمنا في الكويت، قبل حوالي عشر سنوات من يومنا ذاك، انتشرت فيه حملات التلفزيون التوعوية لمكافحة الفئران والتحذير من خطرهما: رأيت بعيني فئراننا تهاجم الققط! قالت لي.

جلست أمي حصّة على كرسيّها تمسك بطرفي إصبعيها جزءا من مِلْفِعِها، يحول دون وجهها وعيني البائع الذي لا يرفع وجهه عن صرّته احتراماً. تسند كفها الأخرى إلى وركها كلما انحنّت تعالين الأقمشة قبل أن تختار تينا ما تريد. كنت أحاول تجنب النظر إلى وجه البائع ولا أستطيع. أختلس النظر إلى الرجل المسن في حين كنت أقَلِّبُ حَبَّاتِ الرُّزِّ بكفّي الصغيرة. رجل قصير القامة لولا نفوري منه لشبهته بواحد من الأقزام السبعة المحبين. يعتمر عمامة يمنية. وجهه العابس أسمر مليء بالخطوط الغائرة. له لحية مدببة بيضاء المنبت تتحول إلى اللون الأحمر نزولا يرتدي معطفا ثقيلًا وإزارا بألوان متداخلة. كنت قد جمعت بعض الدوية بعدما أزهرتُ أرواحها سحقا بين حَبَّاتِ الرُّزِّ التالفة في كفّي الصغيرة. أنتظر عودة أمي حصّة لأذكرها بسؤالِي. كانت تتحدث مع الرجل فيما تتفحّص

بضاعته. أمسكت بقطعة. سألته عن ثمنها. قبل أن يجيبها يحدّد ثمنًا، أجابته: "غالي!" ضحك الرجل. سألته أن يخفض لها الثمن. اعتذر. راحت تُثني عليه وعلى بلاده: "اليمن أصل العرب"، وعلى ذلك يجب أن يكون كريمًا معها. رضخ لطلبها ضاحكا. أعاد لفّ صرته بعد أن نقدته أُمي حصّة ثمن "الخامات" التي اشترتها تينا من أجل أن تخيط أثواب الـ "ساري" لدى سليم الحياط في مُجمّع الأنبي. التفت إليّ البائع بيتسم ابتسامة سميحة لم أتخيلها تعلق وجهه. انصرف مستأنفا نداءاته قبل احتفائها آخر الشارع: "خاالم.. خاالم" أفسحتُ مجالاً لـ تينا تعيد الكرسي الخشبي إلى مكانه. جلست أُمي حصّة تمسّد يديها نحوي لأناولها طبق الرُز بعد أن أسقطت ملفعها على كتفيها. تنظر إلى أغصان الشجرة من خلال هوّة السقيفة فوقها: "السلام عليكم لم يرد الجن تحتها. أردفت: "سكنهم مساكنهم ابتلعتُ ريقها أناولها طبق الرُز. بسطتُ كفي أريها حصيلة الدور الذي مارسته. نظرت إلى مجزرة الدويبة في كفي. هزت رأسها مؤنبة: "ما تخاف الله!"

الذي لا تدريه أُمي حصّة هو أنني كنت أخاف الشيطان وفقا لصورته الشريرة، بقرنيه وذيله المدبّ ورمحه ذي الرؤوس الثلاثة، في الوقت الذي يمثل لي الله الخير بكل صورته، أحمل له مشاعر جمّة ليس الخوف من بينها. دسّت أصابعها تفرّق حبات الرُز. استطردت: "هذه روح" التقطت بين إصبعيها دويبة. أفلتتها على الأرض الترابية متمعمة. قلت لها واثقا: سوف تموت بعيدا عن الرُز على أي حال. أجابت: "ربك ما ينسى عبيده" نظرتُ إلى مصائد الفئران، تحمل



شعار وزارة الصحة، تنصبها حول قفص دجاجاتها. سألتها ماذا عن الفئران.. لا رَبَّ لها؟! أَلقت ملفعها على رأسها بغير إحكام قبل أن تستقيم واقفة تحمل طبقها النحاسي. جرَّت خطاها نحو المطبخ المطل على الحوش دونما اهتمام لسؤالي. انسلت من بين شراشف جبل الغسيل. سمعتها حانقة: "عيال اليوم.. لسان يلوط الآذان!" تبعتها إلى المطبخ وقد ألقى قطُّ بُني هزيل عند بابه، يهز ما تبقى له من ذيل مقطوع. نظرتُ إليه: هذا فهد ينتظر الغداء! ضحكك، على قطُّ يشبه حفيدها، قبل أن تطرده: "تتَّ تَتَّ!" سبقتها عند باب المطبخ: "أمي حِصَّة.. أمي حِصَّة!" أجابت منزعة: "خير؟"، من دون أن تلتف. عدتُ أسأل: لم تجيبيني! حديقة الحيوان. قاطعتني ضاحكة: "الخبل ما ينسى سالفته!" أزعجني وصفها لي خبلاً في وقت كنت فيه، لدى والدتي، أشد الأولاد ذكاء وفطنة. كنت على عتبة المطبخ أقف. تينا تزيل القشور عن ثلاث سمكات مثلجة تتزاحم فوقها أسراب الذباب: "كشْ كشْ"، تطردها أمي حِصَّة. ناولتُ تينا طبق الرُّز وكانني غير موجود. قالت إنني أريد أن أسولف، وهي لا وقف لديها للسوالف. هي تعرف أنني أنتظر الإجابة. أرادت أن تتسلى بفضولي كعادتها. أجابتي سؤالاً:

"جاويني إنت بالأول.. ليش تسأل؟"

أردتُ أن أثير فضولها أستعجل ردّها:

- "أجاوبك بشرط تجاويني بالأول!"

سألتنى حازمة:

"نلعب؟!"

أجبتها بنفاد صبر:

"عشان أروح حديقة الحيوان"

هزّت رأسها تفتعل اهتماما. سألت بعدما ركّزت نظرتها في عيني مباشرة:

"وليش تروح حديقة الحيوان؟"

شعرتُ أن الأمر سوف يطول أكثر مما ينبغي، وقد تملكني الفضول لسماح إجابتها. أتوق لمعرفة اسم المنطقة، بإحدى الطريقتين، على لسانها. ليموت سؤالى فور ولادة جوابه. أجبتها كاظما غيظي:

"عشان أشوف القروود!"

تَهَلَّل وجهها المجمعّد:

"أصيل يا ولد.. صيلة الرحم واجبة!"

\* \* \*

## يحدث الآن 12:43 PM

أديرُ محرِّك سيارتي، أعادِر حينًا القلَم. بيت العم صالح ورائي. أتجه إلى مقرِّ تجمعنا في الجابرية لربما وجدتهما هناك. أتجاوز شارع علي بن أبي طالب نحو جسر الجابرية. كان في ما مضى الشارع الوحيد في الكويت الذي يحمل اسمه، قبل أن تتكاثر الشوارع حاملة الاسم ذاته، شارع علي بن أبي طالب، إياه، في السُرَّة، تلحق اسمه في الالفة عبارة رضي الله عنه " غيره في مناطق أخرى، الرميثة والدسمة والقرين، يُلحق الاسم في الالافات بد: "عليه السلام" مناطق كثيرة ما عدنا نعرف أسماءها بعد تسميتها من قبل السكَّان بأسماء جديدة، وكأن الأسماء حكرٌ على طرف دون الآخر. لم يتوقف الأمر عند، عليّ، الاسم، راح البعض يطلق أسماء على شوارعه، يتداوله نكاية بآخرين.. شارع يزيد بن معاوية وشارع ابن تيمية وشارع أبي لؤلؤة.

أدركُ الجسر بين منطقتي السُرَّة والجابرية. فوق نهر البين، كما يُسمى الأهالي امتداد الطريق أسفل الجسر، بين المنطقتين، بعدما طفح الشارع بمياه المجاري منذ سنوات. تجمعت فيه الأوساخ، تطفو على سطحه، مخلقة رائحة نفاذة تزكم الأنوف. تحطُّ تباعة الجيِّف على ضفتيه تشرب من مائه. يقال، إن كل أولئك الذين احتفوا أو تمت تصفيتهم، منذ اندلاع مصيبتنا، يستقرون في قاع نهر البين. أهدئ

سرعة السيارة. المَحُ زحاما في مقدمة الجسر يُنبئ بوجود حادث سير أو نقطة أمن، يسمونها هكذا، رغم أنها تمنح الخوف وحده. لم يكن حادثا، هذا ما أتبيّنهُ عند اقترابي من الجسر. أرتبك. أتراهم عاودوا حظر العبور؟ ماذا عن الهدنة في يومها الثاني؟! مع اقترابي أكثر المَحُ العلم الأسود، يؤكد حدسي، يرتفع بين مُلثمين يحملون بنادق. يتكئون إلى أكياس رمل يقيمون حاجزا حديديا يعترض الشارع بين إطارين يشتعلان ينفثان دخانا أسود. الرائحة التنتنة تزداد كلما اقتربت من الجسر غريب أنني كلما شكوت من رائحة المياه العفنة يجيبني الأصدقاء: "أنت واهم!" وحده أيوب، من بين أولاد فؤادة، يضيقُ بالرائحة مثلي. أكمّمُ فمي وأنفي بكفّي أو اصل قيادة السيارة متمهلا. أخرجُ من تحت المقعد قطعة ورقية مربوطة بشريطة أحفظ بها لوقت الحاجة. صورة قلب أحمر يتوسطه اسم زوجة النبي، كُتِبَ أسفله: "أم المؤمنين رغم أنوف الحاقدين أرفعُ يديّ ممسكا بالشريطة أنوي عقدها حول مرآة الزجاج الأمامي. نسيتُ أنني أزحت الزجاج بحجر ظهيرة اليوم! أخفي الورقة مجددا أسفل المقعد وأستخرج بدلا منها رزمة منشورات دعوية كُتِبَ عليها: "أبو بكر في الجنة وعمر في الجنة، وعثمان في الجنة، وعلي في الجنة، وطلحة، و.. أديرُ مؤشر المذيع على إذاعة أسود الحق. هي الطريقة الوحيدة التي تجنبني الوقوع في مشاكل مع حياذ اسمي الذي يصعب معه تحديد طائفة يفترض أن أتمي إليها. أفتحُ زجاج النافذة أناول رجلا بلا لثام، يمسك بندقية، بطاقتي الشخصية: "الله بالخير يتفحص بياناتي في البطاقة قبل أن يجيب: "وعليكم السلام ورحمة الله

وبركاته" يتفرّس ملاححي يُمسّدُ لحيته الكثّة. عابس الوجه. يشير  
بسلّاحه إلى كفيّ، يسألني لماذا أكّمّ مداخل الهواء في وجهي. أبرر  
بأن الرائحة تؤذيني. يلتفت كمن يبحث عن شيء. ينظر إلى  
الإطارات المشتعلة. يشير إلى الواجهة الخالية من زجاجها يسألني عن  
السبب. أهزُّ رأسي أفعل أسفا: "أولاد الحرام.. كسّروها" بيدي  
اهتماما لما أقول. يتفحصّ سيارتي من الداخل. تقع عيناه على رزمة  
الأوراق. يسأل لصالح من أعمل؟ بوّدي لو أجيبه نحن أولاد فؤادة،  
ولكن.. أنظر ناحية نافذة السقف. أشيرُ بسبّاتي إلى السماء. يهز  
رأسه مستلظفا إجابتي. يستدير حول سيارتي يتفحصها. أنتهز فرصة  
ابتعاده. أرفعُ صوت الإذاعة أكثر يعود يناولني الرخصة مبتسما  
ابتسامه لم تغير شيئا في وجهه. يحذرنّي: لا أنصحك بدخول الجابرية  
في هذا الوقت. أنظر إليه مستفهما. يوضّح: الراضة يتربصون بنا.  
هي واحدة من كلمات يستخدمونها وصفا لأعدائهم، رافضة؛ أولئك  
الذين يرفضون الترضي على صحب النبي وزوجته عائشة، في حين  
ترى الجماعة الأخرى أنّها رافضة للباطل منحازة للحق. أومئ للرجل  
برأسي أشيرُ بسبّاتي إلى السماء: ربك لا ينسى عبده. أكمل إجابتي  
في سرّي ناظرا في وجه الرجل: لو كنت أُمي حصّة، وأكون أنا  
دوية! يسأل: معك سلاح؟ أهزُّ رأسي: "الحافظ الله" يمطُّ شفّتيه  
قبل أن يستدير يصرخ بأحدهم: "افتح.. افتح.. أقطع الجسر حتى  
منتصفه. أحبُّ هذا المكان الوسط رغم زخ المياه في الأسفل وعفونة  
رائحتها. برزخ بين جحيمين. مكان وحيد أجدي فيه بعد إعلان  
السُرّة والجابرية منطقتين تعادي إحداهما الأخرى. أخففُ سرعة

سيارتي. ألتفتُ إلى اليسار، نحو حارة المشاة في جانب الجسر، أتذكرني هنا صغيراً تحت أشعة الشمس، أمضي بصحبة فهد عبوراً إلى الجارية في رحلة مضنية من أجل مؤسسة الحشاش للفيديو. في هذا المكان كانت ترتفع ألواح كبيرة تحمل شعار "كسي لا ننسى" انتشرت في 1991، قبل تسع وعشرين سنة، واستمرت لسنوات. يبدو أنها كثيرة تلك الأشياء التي لم تُنس، وكثيرة تلك الذكريات التي نصنعها اليوم، نصدّرها للغد، إن كان هناك غد، ولا أظننا ننساها.. ذاكرتي التافهة ترهقني! ألتفتُ، هرباً من داخل رأسي إلى خارجه. أنظر ناحية اليمين. أوقف سيارتي تجاوباً مع صراخ صبيّة، أسفل الجسر، تتني ساقها تجلس على ضفة نهر اللين تحمق فيهِ. تضمُّ كفيها إلى بعضهما. تصرخ: "ييه! ييه الله يخليك رد علي.. ييه تسمعي؟" تنطلق أعيرة نارية في الهواء. تهرب الصبيّة، بشعرها المنكوش وحقية تحملها على كتفيها، متعثرة بثوبها الأسود.

أرى، من منتصف الجسر، نقطة أمنية قبل آخره، ترتفع منها الأعلام الخضراء هذه المرة. أوارى رزمة الأوراق أسفل المقعد. أدس إصبعي بخاتم عقيق أحمله دائماً في درج السيارة. أديرُ مؤشر المذياع على محطة أخرى، تنطلق منها أصوات جماعية تُنشد، على إيقاع منتظم للطم الصدور، أنشودة للإمام الحسين. أضغط بقدمي مداس الوقود حتى آخره قبل أن أكبس الفرامل بقوة، متعمداً أن تصدر العجلات صوتاً عالياً على الإسفلت. يتحلّق حولي ثلاثة فتیان ملثّمون يشهرون أسلحتهم نحوي: "إنزل.. إنزل!" أترجل بسرعة ألتف إلى الوراء في هلع مفتعل: كاد أولاد الحرام أن يمسكوا بي

في الطرف الآخر من الجسر! يخفضون أسلحتهم. يبادر قائدهم: الله  
يلعنهم نواصب أنجاس.. لا بأس، هدى من روعك. يلتفت إلى آخر:  
أحضر له ماء. يطلب مني أن أستريح في مقعدي. أسرح في كلمته،  
نواصب، أستعيد كلماتٍ تكررهما إذاعتهم عمَّن يناصب العداء لآل  
البيت. يناولني قنينة الماء. أرفع رأسي أعبُّ منها على عجالة بلا  
افتعال للظماً. أشعر بنزول الماء في جوفي بارداً. أخفض رأسي. ينتابني  
دوار. يسألني الفتى إن كنت على ما يرام. أعزو سوء حالي لرائحة  
المكان. يزيح لثامه يتشمَّم الهواء. يسألني مستغرباً: رائحة ماذا؟ أتجاوز  
سؤاله. أحتلق عذراً. أرجوه أن يسمح لي بالمرور: أنا ذاهب لزيارة  
مريض في مستشفى مبارك بالجابية. يفسح لي طريقاً جانبية. يلوح  
مودعاً: "الله ومحمد وعلي ويّاك"

أمضي أقطع الطريق وحيدا.

\*\*\*

## الفصل الخامس

تبعَت أُمِّي حِصَّةً إِلَى دَاخِلِ الْبَيْتِ فِي حَيْنِ كَانَتْ تَوَاصَلُ ضَحْكُهَا إِزَاءَ رَغْبَتِي الْكَاذِبَةِ فِي زِيَارَةِ الْقُرُودِ. كَانَ يَنْبَغِي أَنْ أُحْتَارَ حَيَوَانَاتٍ أُخْرَى. أُمِّي حِصَّةً لَا تَحِبُّ الْقُرُودَ. لَا تَرَى فِيهَا إِلَّا مَسُوخَ بَشَرٍ طَاهِمٍ سَخَطٌ مِنَ اللَّهِ. أَتَذَكِّرُنِي مَرْعُوبًا. أَتَذَكِّرُنَا خَاشِعَةً. وَقْتُ حَكَّتْ لِي عَنْ امْرَأَةٍ مَسَحَتْ مَوْخِرَةَ ابْنِهَا، بَعْدَ قَضَاءِ حَاجَتِهِ، بِرَغِيفِ خَبْزٍ عَاقِبَهَا اللَّهُ بِأَنْ مَسَحَهَا فِي صُورَةِ قَرْدٍ. كُلُّ الْقُرُودِ فِي أَصْلِهَا إِنْسَانٌ رَفَسَ النِّعْمَةَ، كَانَتْ تَقُولُ.

تَجَاوَزْتُ الْمَرَّ الصَّغِيرَ مُقَابِلَ بَابِ الْمَدْخَلِ مَرُورًا بِالصُّورَةِ الْمَثْبُتَةِ إِلَى الْجِدَارِ. هَمَّتْ فُوزِيَّةُ تَقَبَّلَ جَبِينِ وَالِدَتِهَا. عَانَقَتْهَا. أَغْمَضَتْ عَيْنَيْهَا تَسْتَلُّ نَفْسًا طَوِيلًا تَشْمُ دَهْنَ الْعُودِ فِي أَمِهَا. ذَكَرْتُمَا: "يَا نَظَرَ عَيْنِي، أَحَدَتْ الدَّوَاءَ؟" ابْتَسَمَتْ أُمِّي حِصَّةً تَهَزُّ رَأْسَهَا إِيْجَابًا. تَسَأَلُنَا: "وَأَنْتِي؟" أَجَابَتْهَا فُوزِيَّةُ تُطْمَئِنُّ: "وَأَنَا" بَدَأَ أُنَّ أُمِّي غَيْرَ مَرْتَاحَةٍ لِإِجَابَةِ ابْنَتِهَا. قَالَتْ: "الْجَاكَلِيَّةُ وَالْكَكَاوُ يَا فُوزِيَّةُ.. لَا تَشْقِينِ قَلْبِي أُمِّيْمَتِكُ!" عَاوَدَتْ فُوزِيَّةُ مَعَانِقَةَ أَمِهَا فِي صَمْتٍ.

وَقَفْتُ أَمَامَ خِرَازَةِ التَّلْفِزِيُونِ أُبْحَثُ عَنْ صُورَةِ جَدِيدَةِ النِّقْطَتِهَا



خالتي عائشة لفهد. لم يخطئ حدسي إذ وجدته في صورة جديدة يغتصب ابتسامة لكاميرا أمه. كان التلفزيون يُظهر عبدالكريم عبدالقادر، بعقاله المائل وإيماءات يديه الشهيرة، في أنشودة "عصفورة ووردة"، شأن كل يوم جمعة. العم صالح كما هو دائما في صباحات العُطل، بدشداشتته المنزلية المقلّمة والطاوية البيضاء. رغم وجود الأرائك حوله في غرفة الجلوس، يقرفض أرضا فوق سجّاد فارسيّ سماوي الزرقة، أسفل تُربة كريستالية ضخمة. يشرب الشاي بالحليب. لطالما برّر جلوسه على الأرض الصلبة بأنه أفضل من الأرائك اللينة التي تسبب آلام ظهره. وكانت شكواه من آلام الظهر تزعج أُمي حصّة: "الله يخلف عليك! هذا وانت عمرك ثمانية وثلاثين!" تناكفه، تعزو سبب آلامه إلى استحمامه بعد منتصف الليل. لم أكن أعرف سببا للضحك وعتبه: "يمّه!"، ولم أفهم الداعي لاحمرار وجه خالتي عائشة لا تبدي تجاوبا مع قول العجوز. أشياء كثيرة لم أكن أفهمها، مثل الصُحف الثلاثة المهملّة على الأرض إلى جانب عمي صالح، لا يهتم بقراءتها، فلا شيء في الصُحف يستحق كما يقول، ولا تصلح لشيء عدا أن تكون مفرشا تحت أطباق الطعام منذ فرّض عليها رقابة حكومية مسبقة. أنا أحفظ فقط ما يقول، لست مثل فهد وصادق يفهمان كل شيء عن الرقابة وعن البرلمان المعطّل. أعرف أن عمي صالح يتحرّى يوم الإثنين من كل أسبوع، مثل أُمي حصّة، هي تصوم يوم الإثنين، وهو يخرج مع رجال كثيرين يحملون لافتات، ولكنني لم أكن أدري ماذا يريدون.

يجلس فهد وراء أبيه على أريكة في الزاوية، بدشداشتة بيضاء، ممسكا بمقصّ، غائبا في متعته في مثل قطّ يعبث بيكرة صوف.

منهمكا بتصفح مجلة "الرياضي" لا داعي لسؤاله عمّا يشغله وأنا أدريه يبحث عن صورة لاعبه الأثير، مؤيد الحدّاد، ليضمها إلى مجموعة صورهِ على جدار غرفته. وكأنني أرى وجهه الآن، بسُمرته وعينيه السوداوين الواسعتين وخدّيه الغائرين وشعره الناعم الفاحم. ربما كانت تلك أسعد اللحظات بالنسبة إليه ينظر إلى صور الحدّاد في المجلة بين يديه، منصتا إلى صوت عبدالكريم في التلفزيون يغني: "الحمد لك، والشكر لك يا الله" يرفعُ رأسه عن المجلة. يضعها على فحذيه. ينظر إلى الشاشة. يضيقُ عينيه. يومئ بيديه يعزفُ على أوتار عودٍ غير مرئية، متماهيا مع نموذجهِ الأعلى في الغناء. انتهت الأغنية. سكت غرفة الجلوس إلا من دويّ الكنديشة وموسيقى برنامج الشيخ متولي الشعراوي تعلن بدء حلقاتهِ الأسبوعية. يحرص أبو فهد على متابعتها قبل ذهابهِ إلى المسجد لصلاة الجمعة.

صورة الدين، زمني ذاك، بعيدا. عن فصول الدراسة، هو ما أتلقاه من التلفزيون في البرامج الدينية، وما أتقطه من صور وأصوات تترك أثرها في نفوسنا قبل الكلام، تمهّد للكلمة الطريق قبل لفظها.. بساطة الشيخ الشعراوي مقرّفا على مقعده الخشبي المزخرف.. هدوء الشيخ خالد المذكور في برنامجه "مع الإسلام" حنجرة الشيخ علي الجسّار المتعبة على الدوام في برنامج "حديث الأسبوع"، وصوت المقرئ أحمد الطرابلسي يتلو القرآن إذا ما افتتح تلفزيون الكويت بثه صباح كل يوم. سوف يأتي زمن أجتزّ فيه هذه الصورة، ولا أتعرّفها.

تقدّمتُ نحو عمي صالح أقبلُ رأسه. أنفهِ الطويل المعقوف يوشك أن يسبق شفّته إلى كوب الشاي بالحليب. رائحة الهيل وخبز

التنور والبيض والنّخي تستدر ريقى. التفت إليّ بلُغْدِهِ الممتلئ يسأل شامتا: كسر الأولاد سِنَّك؟ زَمْتُ شَفِيّ التفتُ إلى فهد أستفهمه. غاصت رقبته بين كتفيه من دون أن يفوه بكلمة أو ينظر صوبي. استطرد أبو فهد: "لو كنت مكاهم كنت كسّرت راسك!" هَمَّتْ أُمِّي حِصَّةً بالجلوس قرب ابنها وصينية الشاي. نظرتُ إليه تعاتبه بحدّة. تذكره بجديث دار بينهما في المزرعة: "إش قلنا أمس؟!" لم يبال. استطردتُ: "خاف الله يا صالح!.. جَهَّال صغار لا تشبّها بينهم!" أجاها مُبررا: "خليهم يعرفون اللي لهم واللي عليهم يُمّه" لا أنسى ملامحها الجادة وهي تتفرّس وجهه تقول: "النار.. ما تورث إلا الرماد" فهمتُ سبب قهرها من سؤالي عن موقع حديقة الحيوان. أخبرهم فهد عن مشاجرة المدرسة قبل يومين. عمي صالح أصبح كائنا آخر بعد فجيئته بفقدان والده في تفجيرات المقاهي الشعبية قبل ثلاث سنوات. بعد سنوات سوف أعرف أقوالا تضارب حول تنفيذها. قيل إنها من تدبير جماعات موالية لإيران انتقاما من موقف الكويت المساند للعراق في حرب الخليج الأولى. إيران تمثل طائفة. العراق تمثل طائفة ضد. أجاها عمي صالح ساهما: "هُم اللي شَبَّوها.. يُمّه" أشار لهم، كما فعل الصبي في غرفة الأخصائي الاجتماعي قبل يومين، بـ هُم! زاد فضولي حول هُم! سكبتُ أمّه قليلا من الشاي في صحن الاستكانة، قبل أن تشربه، تُبرِّدُه على طريقتها. قالت: خبول! هُم يتداجون هناك.. وانتو تقلدوهم هني شرعت تتحدث عن الحرب العراقية الإيرانية. أتذكرها تصمت. تحدّق في استكانة الشاي في يدها. تفكّر. تتحدث عن سريلانكا وعن لبنان:

"باكر يخفّسنا الله مثل الخبول!" تنظر إلى عمي صالح: "وباكر تشتغل زوجتك خدامة في البيوت!" ضحك ابنها لقولها، في حين اكتفت هي بالصمت. بقيت كلماتها سنوات طويلة تتردّد في أذني عن حروب أهلية أشعلها الخبول، على حدّ تعبيرها، من التاميل والسنهال في سريلانكا، ومن المسلمين والمسيحيين في لبنان! يناكفها عمي صالح بقوله إنها إذا بقيت تنصت إلى حكايات تينا سوف تتحدث السربلانكية بطلاقة: "تينا غسلت راسك يُمّه!" تجاهلت تعليقه. فرغ فهد من قص صور الحدّاد من صفحات المجلة. راح يعبث بالمقص يفتح فكّيه في الهواء ويطبّقهما. صرخت به جدّته تأمره أن يكفّ عن جلب الشؤم والمشاكل إلى بيتها. قطّب حاجبيه لا يفهم ما تقول. راح تحدّثه عن خيوطٍ خفية تربط أفراد البيت ببعضهم. من شأن عبثه بالمقصّ أن يقطع أحدها من دون قصد. ضحك حفيدها. زجرته. لمضتُ تشير إلى ما بين فخذيها بإصبعيها منفرجين: "أقص خصاويك!" أطبق فخذيّه. ضمّ ركبتيه إلى صدره يتوسل إليها: "توبة توبة!" أخفضت صوتها تشتمه على طريقتهما: "يهودي!" نظرتُ إلى ساعة الحائط ذات البندول. التفتت إلى فهد في زاويته تحته على الخروج بصحبي: "لعبو في الحوش"، ما دام لدينا متسع وقت قبل صلاة الجمعة. مطّأ فهدُ شفّتيه في خيبة يناكفها: "لازم نروح الصلاة؟" هزّت سبّابتها تحذره: "لا تروح.. عشان تطيح السما فوق روسنا!" سألتها كيف، إن لم يفعل هو، تسقط السماء على رؤوسنا نحن؟ أطرقت تفكّر: "نموت كلنا.. نروح للحجّة وهو للنار.. ياالله برّه". قالت لعمي صالح: "يا كتر ما يسأل هالوكّد!". صاحب، قبل

خروجنا، تُذَكِّرُ فهدًا: "لا تتأخر.. الغدا مطبَّق سمك يا قَطُوفُ المطابخ" تهلل وجهه. باعد بين أصابع كَفِّهِ يخرِش الهواء يَجِيهًا: "مياااو!" وهو الذي ما أَحَبَّ أَكَلَةً في حياته كتلك التي سَمَّتْها جدُّته يومنا ذاك، والتي جعلته قَطُّ مطابخ بامتياز، لا ييارح البيت إذا ما تحسَّس أنفه زفر السمك في مطبخ تينا. نظرت أُمِّي حِصَّةً إلى وجهي تفتعل شعورا بالحرج: "سامحنا يا وليدي.. ما عندنا موز!" دفعها تعبيرٌ على وجهي، ربما، لأن تفتح ذراعيها: "تعال ضمتني إلى صدرها. همست في أذني: "لا ترعل وتقاطعنا مثل أمك.. أنا أضحك معاك يا وليدي"

في الحوش، قريبًا من سِدرة أُمِّي حِصَّةً، أخبرني فهد بأن جميع من في البيت قد علِمَ بمشاجرة المدرسة قبل ثلاثة أيام. كان مثلي، يضحُّ رأسه بالأسئلة. "هذي سواف ما تنفعك"، أجابته جدُّته تحثه على الانصراف عن أمور لا تجلب إلا عوار الرأس وضعينة القلب. "باكر كلنا نموت ونخليك يا وليدي.. ربَّعك عزوتك!" أشار فهد إلى برحيَّة وسعمرانة وإخلاصة وراء سور الحوش: "أُمِّي حِصَّة تقول كونوا مثل بنات كيفان.. نظرتُ إلى حيث يشير. أنصتُ إلى حديث أُمِّي حِصَّة، بلسانه، حول نُحلات ثلاث انتقلتُ سوية من بيت كيفان القدم إلى بيت السُّرَّة الحديد، ولم تمت بموت صاحبها. "توعدي؟"، سألته جدُّته. أجابها: "والله" حذرتَه: "إن قلت والله وكذبت.. تطيح علينا السما!" لا شيء مما تقوله أُمِّي حِصَّة يقوله عمي صالح. علاقة الجارين لا تشبه علاقة أُمِّيها ببعض. هو يحترم أُمِّي زينب، والدة جاره اللدود. يُبرِّرُ السبب وراء احترامها، كما

أخبرني فهد، إلى والدة أمي زينب التي لا نعرف عنها شيئاً عدا اسمها،  
حَسِيبة، والتي ليست مثل هُم!

لَمْ أبو فهد ولده على توريط نفسه بمصاحبة صادق. نصحه أن  
يتحاشاه. حدّثه عن رأي علماء دين تجاه صادق وعائلته.  
"كفروهم!" تخيلت العمّ عبّاس والخالة فضيلة بشياب سوداء ووجوه  
عابسة يرميان الأشواك في طريق النبي، وفق صور منفرة يظهر فيها  
الكفّار في الأفلام والمسلسلات. حذرته بالأب لا يخبر صادقاً بما قاله أبوه!  
أجابني على الفور: "عادي.. قال صادق، إن عمي عبّاس يقول، إن  
أهل البيت يلعنوننا" سألته مندهشاً: "أهل بيت عمي عبّاس؟!" رد  
ضاحكاً: "لا يا حمار! أهل البيت اللّي بعدهم عمي عبّاس وخالتي  
فضيلة وأمي زينب وصادق وحوراء!"

أطرقُ أفكّر بما يقول. ذكّرني: "نسيت اسم جد صادق؟"  
أجبت من دون تفكير "عبدالنبي!" هزّ رأسه مؤكداً: "فهم؟!"

\* \* \*

## يحدث الآن 1:08 PM

أترك سيارتي أسفل البناية في الجارية. هدوء لم تصوره لي حواجز الجسر حين عبرته قبل قليل. أترجل أجرُّ رجلي العرجاء نحو المصعد. أكبس أرقام الطوابق 4 و6 و8، تمويها، قبل أن أكبس على رقم الطابق الأخير 10، حيث مقرّ أولاد فؤادة. اعتدتُ حيلتي هذه رغم تأكيد بعض ما يردنا من تهديدات عن انكشاف موقع مقرّنا. الحكومة نفسها أرسلت لنا ما معناه: لا نتحمّل مسؤولية ما قد يصيبكم. لطالما رجوت أولاد فؤادة أن نقل المقر إلى منطقة محايدة بعيدا عن السُرّة والجارية، ولكن! أستندُ بثقلي على ساق واحدة أريحُ رُكبتي. أنظرُ إليّ في مرآة المصعد؛ أنا جثة تمشي على قدمين. أعرج بشعرٍ مُغير وسين ساقطة ودمٍ متحجّر أسفل شفتي. أتمنى لو أن المصعد تابوت، يتجاوز طابق البناية الأخير صعودا إلى السماء.. يأخذني هناك عند.. أستغفر الله. هل صحيح أن السماء، كما أخبرتنا أمي حصّة صغاراً، كانت أكثر قرباً؟ يتوقف المصعد عند الطابق الأخير. خطواتي ثقيلة، وكأن أرض الممر المفضي إلى الشقة مدهونة بالصمغ. الباب مشرع. ورقة مُلصقة على الجدار بقربه: "الدين غفلة!" أنظر إلى الورقة أتفحصها، مهمورة بشعار شبكة الملاحدة، كما صاروا يُسمون أنفسهم مؤخرًا، متخلين عن تسمية قديمة مهدت لظهورهم. لم يعد نشاطهم حصراً على الإنترنت. صاروا يطوفون

المساكن والأماكن العامة يوزعون منشوراتهم. لم يصدق أن شاهدنا أحدهم يقوم بالدور. كنا كلما أزلنا منشورا ظهر الآخر كأنه ينضح من الجدار. أنتزع الورقة. أمزقها. أتقدم إلى الداخل أحمل فارق توقيت بين نبضات قلبي وخطواتي. "يا شباب!" أمضي في الشقة أفتح بابا تلو آخر: أي أحد هنا؟ لا أحد إلّاي وأجهزة الكمبيوتر، وطابعات التصوير، وجهاز الإرسال، موصولا بالإنترنت، لا يزال يكرر أغنية أهديناها المستمعين مع ختام بثنا الإذاعي بعد منتصف ليل أمس: "هذي بلادٌ تطلب المعالي.. إلّا الإصرار على ما لن يُغيّر؟ ينضح واحدنا كحبة التمر، ظاهرها لينّ ونواها أفسى من أن تلين. نواصل إخفاء ما بداخلنا، بعد عجزنا عن إصلاحه، بأغنيات لفظ أنفاسها الأخيرة منذ سنوات. وكأننا اجتمعنا في هذه الشقة انتقاما من ماضٍ كاذب بخداع حاضر أحقق، نعيد بثّ أغنيات منتهية الصلاحية. نسعى لخداع جيل مقبل كي لا نشعر بأننا، وحدنا، من انطلت عليه الخدعة.

يفزعني رنين هاتفني المحمول، فجأة، يومض باسم أيوب: "الو! ها؟ أي أخبار؟" أندفع بسؤالٍ. يتردد قبل أن يجيب: أخبارٌ لا تسرّك. أسأله بعد أن ألقى بثقلي على كرسي قريب: صادق أم فهد؟ يطمئنني ليعاود طعني: لا هذا ولا ذلك.. انس أمر الهدنة. اشتباكات في المنصورية، اضطرت قوات الداخلية لفضّها مُسـ...! شعور بالطمأنينة ينتابني لتدخل القوات التي ما عاد عددها يكفي للسيطرة على الوضع في البلاد. شعوري لا يستمر طويلا إذ يختم أيوب جملة: مستخدمة السلاح. لا أفوه بكلمة. يستطرد: أخبار عن مقتل رجال



أمن وأفراد من كلا الطرفين. الأغنية في جهاز الإرسال لا تزال: "الحمد لله جزيل الفضل.. لما حمانا من ظلام الجهل يردف: معتقل التحرير يغص برجال يُشْتبه بتورطهم. يستطرد: رصدت وزارة الداخلية مبلغ عشرة آلاف دولار أميركي لمن يُبلغ عن القنلة. يواصل مازحا: خمسمئة ألف دينار كويتي.. مبلغ محترم! يتجاوز صمتي يسألني عن صادق وفهد. أخبره بسهرة البارحة حتى فجر اليوم. ألزم صمتي عما انتهت إليه الأمور في الساحة الترابية في منطقة الروضة. يكتسي صوته جدية يدفعني أواصل. أعده بأن أخبره تالياً. أنا نفسي غير قادر على البوح واستعادة حادثة الفجر يُخمن بأنهما تشاجرا كعادتهما. أحبيه: "تقريبا" يشرع يطمئنني رغم قلقه وانفعاله إزاء صمتي: لا تقلق. أنت تعرف صادقاً، كلما غضب أغلق هاتفه يُخفي. سألته: "وفهد؟" قلقه يعترضه أدري، ولكنه كعادته باردٌ يُهَوِّن الأمور. يفتعل ضحكة تنفخي برودتها: قَطُّ بسبع أرواح، ما الذي سوف يصيبه؟ تجده الآن في أحد المقاهي يلعن حاله وحال زوجته. أتذكر قَطُّ المطابخ فهد، وفق تسمية جدته، بوجهه القديم. أنفجر أشتم الجميع. أشتمني. أشتم صادقاً وفهداً، وأحوالنا التعيسة وهذه البلاد. يطلق زفرة طويلة يقول: هوّن عليك! أهمس: يا صبر أيوب. يجيب مازحا: دعك من صبري وانشغل بصبرك! يختم مكالمته آمراً: استأنف بث البرامج. وأعلن؛ اليوم بعد المغرب، مقابل النادي العربي في المنصورية، اعتصام "آتية 40" للتديد بأحداث اليوم. يجب أن نحشد له! لا يزال ينادي "آتية" وكأنها لم تأت منذ سنوات! برنامجي في التاسعة مساءً، ولا يمكنني المكوث هنا حتى ذلك الوق.

سأقدم وصلة فهد، بدلا عنه، لأن هذا أواها. بتُ أكره عملي هذا. كره المستمعون صوتي. صرتُ مثل تَبَاع الجَيْف أنعب فوق الخرائب. أدنو بمقعدي إلى جهاز الإرسال. أقوم بتثبيت السماعات إلى أذني مقرباً وجهي أمام المايكروفون بعد أن أتأكد من توصيل البث بموقعنا على الإنترنت. أخفض صوت الأغنية الوطنية جاعلا منها خلفية لصوتي. أغمض عيني على وجه فهد القديم: "السيدات والسادة المستمعين.. نعتذر عن هذا الخلل الطارئ، ونستأنف بث برنامجنا بدءاً بفقرة حديث اليوم، قبل نشرة الثالثة عصرا بعد نصف ساعة من الآن" أنتقلُ إلى موسيقى البرنامج في فاصل لا يتجاوز الدقيقة. أجهز خلالها واحدة من قصائد سجلها فهد بصوته، يرافقه عزفه على العود لأشهر أغنيات عبد الكريم عبدالقادر أستأنفُ التقديم: "يعتذر زميلنا عن تقديم برنامجنا هذا اليوم، ونبدأ البرنامج، نيابة عنه، بقصيدة يلقيها بصوته.. قصيدة للشاعر خليفة الوقيان أنتقلُ ثانية إلى الفاصل الموسيقي. تردني خلاله، عبر هاتفني، رسالة نصية من أيوب: "صوتك يرتعش. تحكّم بأعصابك يا أخي!" ينطلق صوت فهد منفعلا يلقي القصيدة:

المجد للظلام

للصوص السارقين من فم الرضيع

لثغة الكلام

الغاصبين من جفون أمّه

شهية المنام

أنتبهُ إلى وميض هاتفِي المحمول ينبهني لاتصال أيوب مرة  
أخرى. أجهله. ينكسر صوت فهد بأداء تعبيرِي فائق:

الفخرُ للسهامُ

للحرابِ الظامئاتِ للدماءِ

تلوبُ في الدروبِ

يقتفي حينها

هائم السلام

هاتفِي لا يزال يلحُ باتصالات أيوب بشكل يقلقني. يلحق  
اتصالاته برسالة: أوقف بث القصيدة فوراً! يرتفع صوت فهد:

النصرُ للرممِ

للخارجين من حفائرِ العصورِ

سطورهم شواهد القبورِ

وجوههم ملامح الحجرِ

يكفُ أيوب اتصالاته. لا تستمر شاشة الهاتف بظلامها طويلاً.  
تضأُ برسالة: "الحمد لله. أنا وأبوك، ألحين نسمع صوتك في  
الإنترنت" تُلحق كلماتها رجاء بأن أكفَّ عن عنادي. أواصل  
نشاطي في لندن، ثم أعود لاحقاً إلى الكويت. على من تكذبين  
يا والدي، عليك أم علي؟ وأنتِ تدريبي إن تركتُ مكاناً أحببته لا  
أعود! تردني رسالة أخرى من أيوب: سأعاود الاتصال.. اخرج  
بفاصل موسيقي وأجيني على الفور!



سرّياً. ليس في وسع الحكومة توفير حماية. نحن مرصودون. ويجب ألا تنسى تهديدات الجماعات الدينية. أذكره: ولا تنسى الجماعات الدينية التي في صفنا. لا يبالي. يجب: الغلبة للصوت المرتفع. أحييه منفعلا كيف يُصدّق أنهم يقدمون على حرق مقر أولاد فؤادة؟ يكرّر الاسم ضاغطا على حروفه: أولاد فؤادة، بالمناسبة! يقول، قبل قليل كتّبت أحدهم في الإنترنت تعليقا على اسم جماعتنا: لن يفلح قومٌ ولّوا أمرهم امرأة! أردف يسألني: فؤادة امرأة؟!!

يُعجبه قوله. ينفجر ضاحكا. أصرخُ به:

"الأمر ما يضحك!"

يتجاوز ردّي يسألني عن الجديد حول مسودة روايتي إرث النار.

"ولا شي.."

أحب أن أستمع إلى أيوب جادًا. يقترح للمرّة الألف:

"انشرها باسم مستعار. فكّر في الموضوع"

لو أنه يدري بأن اسمه واحد من بين الأسماء التي جاءت صريحة في أوراق الرواية، على عكس دأبي في تغيير الأسماء في نصوص نشرتها سابقا. لو كنت تدري بأنك أيوب، يا أيوب، في روايتي، أتركُ تنصحي بكتابة اسمي مستعارا على غلافها؟

يستطرد متجاوزا صمّي. يرجوني ألا أنسى نشرة الثالثة. سوف يُعد تقارير موجزة، بما تسمح به الرقابة، لجريدة "الراي" عن اشتباكات اليوم، ثم يرسل لي تقارير كاملة للإذاعة عبر بريدنا الإلكتروني. يعود لاحقا لإعداد تقرير عن تظاهرة المنصورية المحتملة يُحدّثُ بها الموقع الإلكتروني. أسأله: أيوب، هل مازلت مؤمنا بجدوى عملنا؟ يكتسي صوته جدّية: أكثر من أي وقت، يا رجل! اسم أولاد فؤادة، الذي سخرنا منه قبل سنوات، صار شعارا يحمله الناس في الشارع. دع غيرك يسأل هذا السؤال. يختتم راجيا: أرجوك اترك المايكروفون واستعن بأغان وطنية إن كنب في مزاج سيء. اترك عنك القصائد المستفزّة. أنت تفهم قصدي. إن سلّمنا من الرقابة الحكومية لن نسلم من الآخرين.

أغانٍ وطنية! بات واحدنا يتساءل وهو يستمعُ إلى أغنية وطنية.. عن أي وطن يتحدثون؟ أنهي المكالمة. أوصل تقديم فقرة حديث اليوم، تارة بصوتي، وأخرى بتسجيلات صوتية مُعدة سلفا بصوت فهد. أرسلُ، عبر الهاتف، رسالة لضاوي، أستنجده للحضور وإكمال ما تبقى من برامج اليوم. أنا مضطر لترك المكان في أقرب وقت.

يهاتفني ضاوي. يبادرني بـ "يا وجُل على طريقة لسانه الثقيل في لفظ حرف الراء. يستطرد: كنت أستمع إلى "حديث اليوم" بدا صوتك منفعلا ولكن، حسنا فعلت. كانت حلقة مميزة.

"أتراه استمع إلى القصيدة؟"، أسألني، وأنا الذي أعرفه متحفظا على هذا النوع من القصائد، "قصائد يُساء تأويلها"، كما يقول

دائماً. أنصرفُ عن تساؤلي ملتفتاً إلى تنبيهه في آخر المكالمة. يطلب مني أن أستخدم السلام إن كنت أنوي ترك المقرّ بعد الغروب، لأن الحكومة، على حد قوله، ستعاود قطع الكهرباء في بعض المناطق مساءً، كي تجبر الناس على البقاء في بيوتهم خشية تفاقم الأمور. مسكين ضاوي يقلقه أمر قطع الكهرباء دائماً. سنوات طويلة مضت، منذ رحيل والده، لم تبدّد خوفه المزمّن من الأماكن المظلمة. ما رأيته يدعو الله خاشعاً كما يفعل عند دعائه: "اللهم هوّن علينا ظلمة القبور أطمئنه بأني لن أبقى هنا إلى وقت الغروب. أبرّر: لأنك سوف تأتي إلى المقرّ حالا لتكمل بث البرامج يا شيخ.

يبدو لي، من صوته، أنه يتسم، وهو الذي يصرُّ على أن ذقنه الطويلة لا تؤهله لأن يكون شيخاً: أنا حاضر، أمهلني فقط لأغير ملابسي. أُنَبِّهه: اسلك طريقاً آخر غير الجسر بين السُرّة والجابرية. يظنني أهدره من روائح نهر البين. يجيبي: يا أخي لا أحد يشمُّها عداك وأيوب، أنتما واهمان! ليست الرائحة دافعي لأطلب من ضاوي تجنب المرور بالجسر، ولكن اسمه، في البطاقة الشخصية، ولحيته الكثة يكفلان له عبور الحاجز الأول بسلام، إنما حتماً يوقعانه في مشاكل عند الحاجز الثاني في نهايته. لو أخبرته سوف يسلك الجسر عناداً. لطالما رجوته أن يصدر بطاقة شخصية أخرى باسم مُزوّر، يحذف منها لقب القبيلة، تجنبه المشاكل عند بعض الحواجز، ولكنه دائماً محقّ حين يجيب: فعلها أبي من قبل، ولم ينفعه اسم مُزوّر! يؤكد، حتى لو كان تزوير الاسم مجدياً، فإنه لن يفعل. أتذكر روايتي قيد النشر. نصيحة أيوب. بين اسمي واسم مستعار. اتصالات الناشر اللبناني.

نصيحته بحذف فصول أربعة تلافياً للمنع. أطرده أفكاري. أذكره: لا تنس أن تحضر مصباحاً يدوياً وشموعاً. وكأنه نسي خيراً نقله إليّ للتو. يسألني لماذا؟ أستعير لسانه متخلياً عن "الراء" لصالح "الواو يا وجل.. الحكومة سوف تقطع الكهوباء! يضحك. يُنهي المكالمة ساخراً:

المجدُّ للظلام!

\*\*\*



## يحدث الآن 2:42 PM

لا يكاد يرتفع أذان العصر ينثر شيئا من طمأنينة، حتى يصمُّ أذني دويّ انفجار في مكان قريب، يهزُّ أرضية الشقة، تاركا صفيرا عالقا في أذني، وتصدّعات على زجاج النافذة أمامي. يتبع الدويّ صوت إطلاق أعيرة نارية. أجدني على أربع فوق الأرض. هل سقطت علينا السماء وقت إعلان الهدنة؟! الطف يا رب. أحبو نحو الجدار. أستند إليه مادّا عنقي إلى النافذة المطلة على الشارع. أستطيع أن أشاهد بوضوح، بين تصدّعاتها، سحابة دخان كثيفة في آخره، تخرقها تبّاعة الجليّف مهتاحة. يهاتفني ضاوي فزعا وقد خرج من بيته للتوّ: هل سمع الانفجار؟! أحبيه بأني سمع، وبأني أشاهد، الآن، ما خلفه من دخان وغبار يتصاعد خلف إحدى البنايات الكبيرة. يجيبي: يا ساتر، غير معقول! ظننت أنه، من شدّة الدويّ، قد حدث هنا في الفيحاء. أتوسل إليه، مادام في الفيحاء لا يزال، أن يقفل عائدا، حفاظا على سلامته، فالأمور باتت أكثر تعقيدا. يصر على الجيء متعللا بأنه قد سلك الدائري الرابع ولم يعد يفصله عن مدخل الجابرية، شارع تونس، سوى مسافة قصيرة. صوت الأعيرة النارية مستمر. لا أنهي المكالمة إلا بعد إذعانه لإلحاحي: خلاص، اطمئن ها أنا في طريقي إلى البيت ثانية. يختم محذرا: إياك أن تترك المقرّ!

أكرّر اتصالاتي بصادق وفهد. لا جديد. أيوب لا يرد على هاتفه يضاعف قلقي. أصوات سيارات الإسعاف والإطفاء تتخلل أصوات الطلقات. هاتفي يتلقى اتصالا من رقم مجهول، يشي الأربعة والأربعون في بدايته أنه من لندن. لا أرد. أجوب الشقة جيئة وذهابا كمن ينتظر، في ممر مستشفى، إفاقة قريب يرقد في غرفة العناية الفائقة. لو كان الأمر كذلك لهان الحزن. كل مصيبة تنثال على رؤوسنا نؤمّل أنفسنا بأنهما الأقسى والأخيرة، ولكن المصائب تأتي إلا أن تنهافت علينا أرتالا تلجم آمالنا. ترفع أصابعها الوسطى في وجه هدنة مزعومة.

\* \* \*



## الفصل السابع

خالتي عائشة، تمسك قلمها الأحمر، تصحح كشاكيل تلميذاتها في زاوية غرفة الجلوس. صارمة الوجه كما هي دائما. لست أدري كيف تطبقها التلميذات في الفصل. امرأة لا تضحك لا تبكي. صادق وفهد وأنا، نستلقي على ظهورنا في أرضية الغرفة. أذرعنا مثنية تحت رؤوسنا. نسدُّ أقدامنا الصغيرة إلى الخزانة الخشبية أسفل جهاز التلفزيون. فوزية على أريكة نصف مستلقية. تينا، في زاويتها عند السُّلم تجلس على عتبه الأولى. نتابع حلقة من مسلسل "على الدنيا السلام"، كانت فوزية قد سجّلتها على شريط فيديو. أحببنا هذا المسلسل التلفزيوني أكثر من أي مسلسل آخر، حبًّا يشوبه اعتزاز، لأن تصويره تم في منطقة السُّرّة حيث نسكن. كنا، ثلاثتنا، إذا ما سلكننا شارع طارق بن زياد، بين الساحات الترايبية مترامية الأطراف، مشيا على الأقدام، نشير إلى مواضع مختلفة منه بجمور؛ هنا كانت حياة الفهد وسعاد عبدالله، بطلتنا المسلسل، في مشهد نهاية الحلقة الأخيرة، تجريان هربا من الفئران، تلوذان بمسشفى الجبانين! يقترح فهد اسما جديدا للشارع عوضا عن طارق بن زياد. الأولى أن

يكون اسمه شارع طارق عثمان، نسبة إلى مؤلف المسلسل. تقطع فوزية أمنية ابن أخيها: طارق عثمان فلسطيني، ليس كويتيا! يسألها: "وطارق بن زياد.. كويتي؟! لا تجيب. كنا نجلس ساعات طويلة، نستند إلى سور مدرسة عبدالمحسن البحر الابتدائية، المحاذي لشارع طارق بن زياد، مقابل المبنى الأحمر لمستشفى الطب النفسي في المسلسل، ننتظر ظهور إحداهما، محظوظة أو ميروكة، من دون جدوى. نحث الخطى مسرعين إلى بيتهما. ننتظر ساعات لا يخرج منه سوى أصحاب البيت الأصليين، يضحكون كما لو أنهم اعتادوا منظر الأطفال يتحرّون ظهور الممثلين أمام البيت. تُدير ظهورنا مخفي نحو مستشفى أبقراط في شارع ابن زياد. نراقب بوابته علّ واحدة منهما تظهر. لا أحد. نعيد توزيعنا. فهد عند باب بيتهما، صادق عند مستشفى الطب النفسي، وأنا أمام بوابة أبقراط. لم نكن ندري أن التصوير قد تم قبل شهور من أيامنا تلك، وأن المبنى الأحمر، لمستشفى الطب النفسي، لم يكن سوى مركز شرطة قيد الإنشاء في منطقة السوق المركزي، وأن بيت سعاد عبدالله وحياء الفهد لا يعدو كونه بيتا مثل أي بيت من بيوت السُرّة، وأن مستشفى أبقراط الذي حسبناه مستشفى تخصصيا لم يكن إلا صالة شيخان الفارسي للأفراح، استُخدمت واجهات المباني الخارجية في المسلسل وحسب. أي سعادة كنا نشعر بها تجاه ما حصنا به هذا العمل التلفزيوني، نحن أبناء السُرّة. كنا لا نكف أثناء المتابعة عن الصراخ فجأة إزاء أحد المشاهد: "شوف شوف!" نشير إلى الساحة الترابية أمام مدرستنا! تنفجر فوزية: "هششش!". تطالبنا بالسكوت كي نتابع بهدوء.

نتجاهلها ونواصل تعليقاتنا. ولأن أمي حصّة ليست معنا، يرتفع صوت خالتي عائشة: "بس!" نخرس. ننتظر بشغف انتقال الأحداث إلى مستشفى الطب النفسي. رغم غضب خالتي عائشة، لا نكتم ضحكنا على نزيلات المستشفى بأشكالهن وإيماءاتهن المضحكة، وعلى منظر محظوظة ومبروكة مقيدتين إلى السرير، تصرخان، أثناء علاجهما بالصعقات الكهربائية. تينا تغالب ضحكاتها. تصرخ بها خالتي عائشة: "انتي! على شنو تضحكين؟! قطيعة!" تشير بسبابتها إلى الباب أمرة: "المطبخ!" تترك تينا زاويتها، في حين نواصل ضحكنا على مجنونات المسلسل. وحدها فؤادة عبدالعزيز، في دور مدرسة التاريخ السابقة، بثوبها الأحمر القاني وربطة شعرها سماوية الزرقة، من بين كل نزيلات مستشفى الطب النفسي، تفسد علي استمتاعي بمتابعة المسلسل إذا ما انطلق صوتها ذو البحة يسبق صورتها. تطوّق مصيدة فئران برتقالية اللون بذراعها. تسير في الممرات مخدرة: "الفئران آتية.. احموا الناس من الطاعون" ترعبُ المجنونات بظهورها المفاجئ، تستنفر المرضين، تريكُ الدكتور شرقان ومدير المستشفى أبا عقيل و أنا. صوتها مؤهلٌ ليكون رابع أصوات الرعب القديمة؛ نداءات بائع الصُّرّة اليمني، ونفير صافرات الإنذار، ونباح كلب الجيران السلوقي. خوفي من فؤادة، متحالفاً مع ما سمعته عن برامج تلفزيونية توعوية قديمة تحذر من خطورة القوارض، بات وسواساً قسرياً إزاء الفئران زمن طفولتي. ما عاد ميكى ماوس من الشخصيات الكارتونية المحببة. فقدتُ تعاطفي مع جيري. أصبحتُ أجدلُ توم ما يبرر عدوانيته. كنتُ أحاول أن أوارى خوفي من

تلك الشخصية، إلا أن لا شيء يخفى على فوزية التي صارت تُسكنني، إذا ما ناكفتها، تمثيلاً لدور فؤادة. تُفخّم صوتها تُضفي عليه بحةً مخيفة، تبحلق في وجهي: "كنكووووت" تلوّح بسبّابتها: "أنا التاريخ كله! وأحذركم من الآن؛ الفتران آتية.. احموا الناس من الطاعون!" كانت قد تعرّفت طريقاً لا يمكنني بمجاراتها فيه.

مرّت بنا أُمي حصّة، تاركة غرفتها متجهة إلى المطبخ في حوش البيت. سألت: "وين تينا؟" اكتفينا بالالتفات نحو خالتي عائشة. توقفت أُمي حصّة قبل الممر المؤدي إلى الخارج تلتفت نحونا: "اهتمّوا بدروسكم أخير من التلفزيون" لم تتجاوب معها. أردفت: "أجهّز لكم عشا.. لينة وزيت زيتون وزعتر استأنفت سيرها إلى المطبخ تنصح بأن نأكل الكثير من الزعتر لنصبح أذكاء مثل الفلسطينيين، ولنحصل على تقدير "ممتاز!" كنا، في ذلك الوقت، قد آمنّا بأسطورتها تلك؛ أسطورة الزعتر، إذ لم نجد مبرراً مقنعاً لتفوق التلاميذ الفلسطينيين في مدارسنا وحصولهم على المراتب الأولى دائماً سوى الزعتر الذي يأكلونه كل صباح. أكلنا الكثير منه حتى ملّته بطوننا من دون فائدة. كنت، في السنة التي اشتري لي فيها والدي الدراجة الهوائية، قد نلتُ المرتبة الأولى في مدرستي، من دون زعتر. متفوقاً على بقية الطلبة، عدا الأخوين الفلسطينيين سامر وحازم بطبيعة الحال، إذ هكذا كنا نُصنّفها مرتبة أولى على الكويتيين، مع إيماننا المطلق بأنها مرتبة، في الجمل، لا يدركها إلا تلميذ فلسطيني رضع الزعتر مع حليب أمه.

لم نكن قد فرغنا من متابعة المسلسل حين دخل عمي صالح يحمل صندوقاً كرتونيا أبيض، يحمل حروفاً إنكليزية حمراء HITACHI وضعه

على الأرض وسط غرفة الجلوس. قال مبتهج الوجه: كاميرا فيديو يابانية الصنع. منذ تلك اللحظة أصبحت الكاميرا واحدة من أفراد بيت آل بن يعقوب، تنتصب طيلة الوقت في زاوية غرفة الجلوس، محمولة على قاعدتها المعدنية، مغطاة بعباءة قديمة تحفظها من الغبار. كانت ترعبنا، قبل أن نعتادها، مثل عجوز قصيرة تتشح بعباءة تملؤها الثقوب لا تفارق زاويتها. أسميناها في ما بعد: "تمثال أمي حصّة"، رغم انزعاج جدّة فهد من التشبيه: "أنا قصيرة.. لكنني موقرمة!"

تَهَلَّل وجه خالتي عائشة، في صورة ما ألفتها عليها، إزاء تدشين مرحلة جديدة تخلّد فيها ذكرياتٍ حيّة بدلا منها جامدة في صور الكاميرا الـ Polaroid الفورية. تخلقنا حول الكاميرا مثلما تجتمع ففران أمي حصّة حول بيضة مكسورة في قفص دجاجاتها. كاميرا كبيرة تُثَبَّتُ إلى الكتف، أو إلى حامل معدني ذي ثلاثة قوائم، موصولة بجهاز فيديو VHS وشاحن كهرباء. جاءت أمي حصّة يقودها فضولها بسبب ضحيجنا، تتبعها تينا حاملة أطباق العشاء الأسطوري. لم أترك بيت عمي صالح ذلك المساء إلا بعدما فرغ من تركيب كاميرته وشحن بطاريتها. وقفنا، في الممر، صفًا واحدا أمام الكاميرا، بين مزهريّ ريش الطاووس، تظهر وراءنا صورة "الريس"، على حدّ تسمية عمي صالح. اعتدلنا في وقفتنا، فهد وصادق وأنا، أمام عدسة الكاميرا لتجربتها. فرصة لاستعراض مواهب تمثيلية. بدأ ضوء الكاميرا الأحمر يومض. شرعت خالتي عائشة، من وراء الكاميرا، بوجه لا يشبهها، تردّد أغنية شعبية قديمة: "وين راح أبوي وين راح أبوي؟". لمعت عينا أمي حصّة تنظر إلى كتّتها بحزن: "الله



يرحمه" توحدت أصواتنا، أمام الكاميرا نجيب خالتي عائشة غناء: "راح البصرة.. راح البصرة" واصلت أسئلة الأغنية: "إش يجيب لي، إش يجيب لي؟ شَرَقَ وَرَقَ شَرَقَ وَرَقَ" تبتسمُ وسع فمها: "وين أحطه وين أحطه؟" "في صنديقي في صنديقي ارتفعت أصواتنا أكثر بلحن بطيء نكمل الأغنية: "الصندوق ماله مفتاح.. المفتاح عند الحدّاد" كلمة الحدّاد تترك أثر استحسان على وجه فهد، رغم أن لا علاقة لحدّاد الأغنية بمؤيد الحدّاد اللاعب. تنتهي الأغنية بـ: "المطر عند الله" هزّت أُمي حصّة رأسها تجاوبا: "لا إله إلا الله" اقتربت فوزية مقاطعة. تردّدت. سألت شقيقها إن كان يسمح لها بالغناء. كاد أن يجيبها لولا أحابتها أمها نيابة عنه مشجعة: "غني.. غني يا فوزية" أوما عمي صالح برأسه يفتعل ابتسامة. شرعت أُمي حصّة تُصَفّق. راحت فوزية، فور اشتعال ضوء الكاميرا الأحمر، تقلد سناء الخراز، فنانتها الوطنية الأثيرة، تغني للأمير: "لقيناه، يا أحلا أيام العمر.. وعشناه، فرحة على قلوبنا تمر.. جابر أبونا من عمر زغردت أُمي حصّة. أدار عمي صالح كاميرته باتجاهها يلتقط المشهد. ألقت ملفعها على وجهها بحركة سريعة تخفيه عن الكاميرا. فهقه ابنها خلف كاميرته: "تستحين من الكاميرا يُمه؟!" استحالت صنما. لا صوت لا حركة. أدار عدسة الكاميرا، ضاحكا، إلى حيث كانت أسفل الصورة على الجدار. عادت الحياة لأُمي حصّة. فوزية تواصل غناءها: "عاش الأمير المفتدى.. وكلنا له فدى" قاطعها عمي صالح بعصبية: "بس.. كافي!" تتم بوجهٍ ممتعض: لو أن البرلمان لا يزال..! ترك جملته مفتوحة على احتمالاتها. استعد فهد شادًا جسمه، نافخا

صدره كديك يوشك أن يصيح، يؤدي تحية عسكرية، يحاكي أخبار الجبهة التي يُثبِّها تلفزيون العراق، وقت ينقله اللاقط الهوائي آنذاك مشوّشا. انطلق بلهجة عراقية أحببناها صغارا: "أنا المُجَنَّد عطية خضير، الفرقة الثامنة.. أحيي سيدي القائد من معسكر أربيل وأبشّره بنصر من الله قريب" انتبهتُ إلى صادق، احمرّت أذناه، بدأ ينسحب إلى ما وراء الكاميرا بوجه محبط. فغرت أُمي حصّة فمها إزاء أداء حفيدها. تضحك ممسكة بملفّعها متأهبة لتغطية وجهها في أي لحظة تلتفت نحوها عدسة الكاميرا. عمي صالح يكتّم ضحكاته وراء كاميرته. دفعني الحماس لمقاطعة فهد باللهجة إياها: "أنا المُجَنَّد حمزة أبو المعالي، من الفرقة الثالثة، مدرعة تكريت، أسلم على أهلي وعشيرتي.. قاطعني عمي صالح مؤنبا: "الرئيس أول شي!" تداركتُ مصححا: أسلم على بطل القادسية سيّدي رئيس الجمهورية.. لم يستمر المشهد طويلا. ختمناه بالتلويح عاليا. نضرب الأرض بأقدامنا، على طريقة الهوسة العراقية، مردّدين: "كلنا جنودك سيّدي.. كلنا جنودك" ربما هي المرة الوحيدة التي رأيت فيها خالتي عائشة تبسم ذلك المساء. تنظر إلى الكاميرا الجديدة بجزور. تُؤمن حياة خالدة لمن تحب. انتبه عمي صالح إلى غياب صادق المفاجئ بعد أن مضى الأخير إلى نهاية الممر خروجا. صاح به:

"تعال يا ولد!"

اختفى صادق. لم يحفل بنداوات عمي صالح الذي صاح به مُستفزاً:

"تعال سلّم على الحُميني!"

انتهى المشهد، في ذاكرتي، بصوت ارتطام باب الحوش  
الحديدي.

\* \* \*

### يحدث الآن 3:10 PM

أُتصلُ بضايوي، بعد بث موجز الثالثة، أُطمئن إلى وصوله، وهو المكشوف للطائفة الأخرى. بمجرد النظر إلى وجهه وقراءة اسمه كاملا في البطاقة الشخصية. لا يرد على اتصالاتي. لا أدري إلى من أوجه قلقي. لن أغفر لنفسى إن أصابه مكروه، وأنا من طلب منه المحييء. لا قدرة لي على الانتظار. أدس قدمي بنعليّ الحَمَام أزمعُ على ترك المقر ذهابا إلى الفيحاء أتأكد من وصوله. أنتظر في الممر المصعد. يسبقه اتصال أيوب. كارثة ما أستشعرها بصوته الذي يجيء مضطربا على غير عادة. كان الانفجار الذي سُمع منذ قليل، في مناطق عدة، ردا على إشعال النيران في مسجد عبدالوهاب الفارس، في منطقة كيفان، الأسبوع الماضي. أستوضحه عن قصده. يجيب بغير يقين: أخبار، أو ربما شائعات، عن نسف أحد المباني في الجابرية. أُكرر كلمة جاءت في جملته مستفهما: نسف؟! يتردد قبل أن يستطرد: البعض يؤكد أنها "حسينية" أُسندُ ظهري إلى الحائط. باب المصعد مشرع. يطبق بعد ثوان. لا تحملي قدماي على السير يردفُ بحسرة: يا أخي جماعتكم أولاد كلب! تصعقتي الكلمة؛ جماعتنا، وأنا الذي لا جماعة لي عدا التي أسسناها زمن الجهل؛ أولاد فؤادة! أصرخ به لعله يستفيق: أيوب! يلوذ بصمته. أرجوه: إلا أنت! هو في حال لم أعهده عليها قط. ليس أيوب الذي أعرف من يحدثني الآن. أرجوه، وحادثة

الصباح، بصورها وأصواتها، لا تبارح مخيلتي: لا تكرر ما جرى لنا فجر اليوم أرجوك! يطلق زفرة حرّى: أستغفر الله. يسألني كمن تنبّه من غفلة: أنت، حتى الآن، لم تخبرني بما جرى فجر اليوم! أجيبه: بعدين. لا يصر على سماع إجابة كأنه يخشاها. يسأل: هل يستدعي الأمر قلقتنا بينناي الآن؟ أنهي مكالمتنا: لا تقلق.

أقطع المر عائدا إلى الشقة لا ألوي على شيء سوى الذهاب إلى مكان الانفجار. نصحني أيوب بأن أستعين بمعداته في المخزن لأبرّر وجودي في مكان الحادثة. أعثر، بينها، على كاميرا صغيرة تفي بالغرض، وزوج أحذية استخدمته رغم مقاسه الذي لا يناسبني، وقميص بلا أكمام يحمل في ظهره شعار جريدة "الراي" أي سخرية هذه! كنت أستخدم مايكروفون فهد قبل قليل، أجدني الآن في ثياب أيوب! أعود إلى جهاز الإرسال أعتذر للمستمعين عن مواصلة بث البرامج على أن نعاود بثها لاحقا. أقوم بتشغيل أغاني لست أوّمن بجدواها.

في المر، لا أكاد أكبس زر المصعد ثانية حتى يكشف بابه عن ضاوي بوجه باسم، تسبقه رائحة دهن العود. يحمل مصباحا يدويا وحزمة شعوع وقدر طعام وفندوس تمر أتناسى إصراري على بقائه في البيت. يكاد يتجاوز باب المصعد لولا أنني أقبلُ عليه أعانقه. يطبق المصعد بابه على كتفينا: هوّن عليك يا وِجُل! يقول وهو يحاول ألا يُسقط الأغراض من يديه. أسأله عن القدر. يكتفي يُذكر: اليوم الخميس. هو صائم كدأبه أيام الإثنين والخميس. يسألني عن فهد

وصادق. أهزُّ رأسي: لا خبر يتفرَّس ملامحي ثم ينظر إلى ساعة معصمه: هل تخفي شيئاً؟ لا أُحير جواباً. أنا غير متأكد. يتسّم: "يجيب الله مطر يرَن هاتفه ينهه إلى رسالة. يقرؤها. يمتقع وجهه. يمدُّ يده أمام وجهي يربني شاشة الهاتف: في انضمامك إلى جماعة مشبوهة، غير جماعتك، خروج عن الملة. أستفهمه. يجيب: هذا بسبب تأييد شبكة الملاحدة. أسأله: يؤيدون من؟ يُطمئن: لا عليك. يُغلّف إحباطه بابتسامة وهو يكبس أزرار هاتفه. لا أتردد أنظر إلى شاشة الهاتف بين يديه أقرأ رده على المرسل: الملة ليست بيت أبيك تطردني منها وقتما تشاء! أمسكُ بهاتفه قبل أن يرسل الرد. لا أوارى شعوري: تمهّل! يضحك وهو يدفعني يواصل سيره إلى المقر من يرتدي قميص أيوب عليه أن يتحلى بصره وبرود أعصابه.

لو أنه سمع صوب أيوب في مكالمته قبل قليل!

\* \* \*



## الفصل الثامن

أحجم صادق، شهورا عدة، عن زيارة حوش بيت عمي صالح. كنت صغيرا، ولكن هذا لا يعني أنني لم أشعر بالحيرة تجاه ما يبدر عن الأخير من مضايقات ورسائل مبطنة يأمل في أن يقوم صادق بتوصيلها إلى عمي عباس. لم أكن أفهمها، ربما، ولكنني حتما فهمتُ أنها مؤذية لصادق. لم نعد نجتمع إلا في فصل المدرسة، في صف المقاعد الأخير كما اعتدنا الجلوس. ينشغل، كدأبه، يرسم على سطح الطاولة وجوها وعيونا وطائرات حربية، ودائرة في حجم قطعة نقود معدنية، يكتب أسفلها: "اضغط الزرّ يَحْتَفِي المدرس!" سرعان ما انتشر الزرّ الافتراضي في طاولات الفصل وجدران المدرسة. لا ينفكُ واحدا، أثناء الحصّة الدراسية، ينقر بسبّابه على سطح الطاولة، أملا أن يَحْتَفِي مدرسو لا يصرفه عنا إلا رنين الجرس.

صرتُ أشاهده بين حين وآخر، وقت غروب الشمس، عند باب بيتهم يحمل دفاتر ينتظر عمي عباس يقلّه إلى مكان ما. عرفت لاحقا أنه يذهب إلى الحسينية، يتلقى دروسا دينية لا توفرها حصص التربية الإسلامية في المدرسة كما يقول عمي صالح الذي سارع



بتسجيل فهد في إحدى الجمعيات الدينية، في حين رفض والدي أن أنتسب إلى أي ناد أو تجمع ديني: لديك سجادة صلاة في غرفتك.. أو إن أردت، مسجد الغانم على مبعدة شارعين من هنا. اقتربتُ من صادق. كان متحفظاً قليل الكلام. لم أكن لأتركه وشأنه وأنا مؤمن بأن حوش عمي صالح ينقصه شيء ما، لا يكتمل إلا باكمالنا فيه. كنا في أبريل 1988، قبل حلول رمضان بأيام. في وقت كان فيه التلفزيون ينقل لنا أخبار اختطاف الطائرة الكويتية؛ الجابرية. أشارت الصحف صراحة إلى تورط عناصر من حزب الله، الموالي لإيران، بعملية الاختطاف. بث تلفزيون الكويت الأغنيات الوطنية على مدار الساعة بشكل أجزر فوزية على البقاء أمام الشاشة طيلة الوقت تُسجّل تلك الأغنيات على شريط فيديو.

قررتُ، في ذلك اليوم، زيارة بيت عمي عباس، ولأن والدي لا تسمح لي، عادة، بالخروج في غير عطلات نهاية الأسبوع، خصوصاً في ظروفنا تلك، انتهزتُ فرصة انشغالها مع نسوة الحيّ، بعد صلاة العشاء، في زيارة بيت جارنا أبي سامي لتهنئة زوجته الأميركية. كانت قد اعتنقت الإسلام لتوها آنذاك. وبالفرحة أمني حصّة بالخبر: "هداها الله"، تقول عن الجارة التي طالما ردّدت أنها "بنت حلال لولا كفرها. لم تمر دقائق ثلاث على ترك والدي للبيت حتى شرع السلوقي في بيت أبي سامي بالنباح، مستقبلاً الغرباء على طريقته. عرفت أنه الوقت المناسب للخروج. ضغطتُ مكبس الجرس المفرد. انتظرت ثواني أمام العتبات الثلاث، أسندتُ ظهري إلى قارب عمي عباس، مقابل اللوح المثبت أعلى الجرس "منزل عباس عبدالنبي

عبّاس محمد" فوجئت بحوراء، شقيقة صادق التوأم، تفتح لي الباب. كانت أول مرة أراها ترتدي الحجاب، والعباءة تعلو رأسها ممتدة إلى قدميها. أسِفْتُ كثيرا لأنني لن أشاهد شعرها السني الكثيف مرة أخرى. كيف لهذا الحجاب أن يحيل طفلة إلى امرأة بمجرد ارتدائه! عزيت نفسي بوجنتيها الحمراوين وعينيها الكحيلتين، كل ما تبقى من صورتها التي أعرف. كدت أسألها عن حجابها، أهنئها، أو أقول أي شيء إزاء شكلها الجديد، ولكنني تذكرت محظورات والسدي. انتابني فضولٌ إن كان فهد قد علم بموضوع هذا الحجاب. هو يغضب كلما حدّثته عنها. يظنُّ أنني أُلَمِّحُ إلى شيء كما كانت عمّته فوزية تفعل، أرسلته أُمي حصّة ذات يوم إلى بيت صادق يحمل أطباق طعام، ومنذ ذلك اليوم وهو يصر بشكل ملفت بأن تترك له مهمة توصيل الطعام إلى بيت عمي عبّاس. وحين رأته فوزية يطيل الوقوف أمام النافذة المطلة على بيت الجار صارت تناكفه، تغني أغنية لمطربه الأثير: "ردّ الزيارة" يحمر وجهه غضبا.

"تفضل.. صادق موجود"، بادرت حوراء إزاء طول صمّتي. وجدت صادقاً، في غرفة الجلوس، ممسكا بقبضة التحكم السوداء ذات الزر الأحمر، يراوغ طائرات حربية على شاشة التلفزيون يلعب الـ آتاري. مغرّمٌ بالطائرات الحربية كان. أسفل السُلّم جلس عمي عبّاس مقرفصاً، أمام زبيل، نظارته الطبية على طرف أنفه، يعالج خيوط صيد السمك ويعيد لفها حول بكراتها الخشبية. سمعتُ، من إحدى الغرف، أغنية لناظم الغزالي. هي غرفة أُمي زينب لا شك. كانت المرة الأولى التي أدخل فيها بيت صادق، متجاوزا حوشهم

الذي نادرا ما نجتمع فيه، لا يختلف عن بيتنا أو بيت آل بن يعقوب بسجاده وأثاثه والثريات المتدلّية من السقف الجبسي المنقوش، الشيء الوحيد الذي لفت انتباهي كان بعض اللوحات على الجدار خلف خزانة التلفزيون، لوحات بتفاصيل كثيرة، خيول وأسود وسيوف، ورجال وسيمين بتقاطيع وجه جميلة، يبدو أكثر وسامة من الرجل الذي كنت أشاهده مصلوبا في صورة تعلقها تينا على جدار غرفتها الصغيرة. تذكرت ما قاله فهد ذات صباح: "أهل البيت الذين يعبدهم عمي عباس وخالتي فضيلة وأمي زينب.. في ذلك المساء أدرك عقلي الصغير أشياء جديدة، أولها لوحات فنية لآل البيت، وصور لعيون دامعة رسمها صادق، وآخرها صورة فوتوغرافية في أحد رفوف خزانة التلفزيون، بين صورتين قديمتين لصادق وحوراء زمن طفولتهما المبكرة، صورة لرجل بعمامة سوداء ولحية بيضاء كثة، كتب أسفلها بخط أسود مزخرف روح الله الموسوي الخميني لم يكن الاسم جديدا عليّ، ولا الصورة، إذ إنني كنت أعرفهما قبلاً، ولكن كل على حدة. الجديد بالنسبة لي، ذلك المساء، هو تركيب الاسم على صاحب الصورة. هو قائد الحرب في الجهة الأخرى، والذي لا أكاد أعرف عنه شيئاً. غص رأسي بأسئلة من النوع الذي تنورّم له الشفاه على حدّ تهديد والدتي. ابتلعتها ملقياً تحيّي: "السلام عليكم ردّ عمي عباس التحية. أردف متسائلاً: جيت بروحك!" أو ماتت برأسي أوافقه. كان منهما كإعلاج خيوط الصيد. سألتني: "وين ابن إبليس.. والا إبليس يجرم عليه دخلة بيتي؟" كنت معتاداً على سماع تسمية فهد "بزون" وفق لهجة أمي زينب لقاء الـ "قطو" وفق تسمية

أمي حصّة، أما ابن إبليس فقد كانت جديدة. كنت قد لمست، قبل شهر، أن عمي عبّاس لا يختلف عن عمي صالح، وأن كلا البيتين صورة معكوسة عن الأخرى. كان ذلك عندما ذهبت وصادق بصحبة عمي عبّاس إلى القُمبار، وقت الجزر في بحر الدوحة ليلا. عمي صالح لم يسمح لفهد أن يُقَمِّر معنا. قرار منع دخول ابنه إلى بيت الجار يطال سيارة الأخير وشاليهه وصحبته أيضا. كنا، حفاة، نخوض في مياه الجزر في الظلام بعيدا. يحمل كل من صادق ووالده مصباحين يدويين يمشطان الأرض السيخة، يتكئان على رعين يلتقطان بما الأسماك العالقة في شبك طاروفٍ مهمل أو في منخفضات غطتها المياه الضحلة قبل رجوع المدّ، في حين كنتُ أحمل زبيلا أضع فيه ما يجمعانه من أسماك. استغربت إهمالهما لسرطانات البحر على كثرتها، في حين كنت لا أكف أصرخ أشير إلى أحدها كلما خطف بدبيبه الجانبى راسما خطا متقطعا على الرمال الرطبة: "عمي عبّاس! شوف شوف.. قُبُقب!" لم يكتب بقوله إهم لا يأكلون سرطانات البحر، لأنها تأكل الأوساخ، فأكلها حرام. أجابني، بغير اهتمام، حين أخبرته بأننا نأكلها: وهل أنتم تعرفون الحرام؟! أنتم تلك التي لفظها هي المقابل لهم لدى عمي صالح. لم يستحسن صمّي على ما يبدو. أردف ضاحكا: "قول لي صويلح ابي ما آكل الوسخ مثلكم!"

ليلة دخولي إلى بيت عمي عبّاس للمرة الأولى، لم أقل شيئا إزاء سؤاله عن ابن إبليس. ولم أنو، قبل ذلك، إخبار عمي صالح، كما يأمل أبو صادق، بما قاله عن جاره ليلة القُمبار. اتجهت نحو صادق

أمام شاشة التلفزيون. التفت إليّ. مدّ لي قبضة التحكم: "تعال العب" ما كدت أجلس إلى جانبه على الأرض حتى ظهرت خالتي فضيلة مرتدية عباءتها، بصحبة حوراء تحمل بين يديها مغلفا يبدو هدية. سكت غناء الغزالي. خرجت أمي زينب من غرفتها. كانوا في طريقهم إلى الخارج. سألهم عمي عباس: إلى أين؟ التفتت إليه خالتي فضيلة ممسكة بجزء من عباءتها أسفل ذقنها: إلى بيت أبي سامي، فلورنس اعتنقت الإسلام. أرخى يديه المنهمكتين بمعالجة خيوطه. أعاد تثبيت نظارته. سألهما مهتما: على أي مذهب؟ تدخلت أمي زينب تجييه مبتسمة: على مذهب زوجها أكيد. صفع عمي عباس الهواء أمام وجهه في خيبة: لو بقيت على دين أهلها لكان خيرا لها!

\*\*\*

## يحدث الآن 3:50 PM

"الله أكبر.. الله أكبر.. الموت للمعتدي"

ليس سهلاً، تحت تأثير عَرَجٍ تزداد وطأته، أن أذهب إلى موقع الحادثة، رغم قربه من مقرِّنا، مشياً على قدمي. أستقل سيارتي. أوقفها في مكان قريب. رجال الأمن يطوّقون منطقة الانفجار. هوة عميقة في الأرض، أمام واجهة المبنى، قطرها يجاوز أربعة أمتار. قميص أيوب جواز مروري إلى داخل الحلقة الأمنية. النيران تشتعل في أماكن متفرقة. والرماد يملأ كل شيء. قتلى بين ركام رمادي، أغلبهم من خارج مبنى الحسينية الفارغ بعد الظهر. جرحى رماديون تخالمهم تماثيل حيّة. بعضهم يئن وبعضهم الآخر يجبو مبتعداً عن بقايا حجارة المبنى يلوّح بيده ينيّه إلى وجوده. كلب قدر أسود يجري مبتعداً مطبقاً فكّيه على ذراع مبتورة. رائحة حرق، هسيس نيران، عويل نساء، سبٌّ ولعن وتكبير، رجال إسعاف يركضون. رجال إطفاء يصيح واحدهم بالآخر رجال أمن يفحصون أجساداً متناثرة، يصرخون طلباً للإسعاف: حي.. نقالة.. هنا هنا.. يتنفس.. يتحرك.. حي. يطلقون النار على تَبَاعٍ جيفٍ هائجٍ يحطُّ إلى جانب رجل هامد بلا ذراع، يسيل الدم سخياً من كتفه عند الجزء المتبور. عرفنا تَبَاعَ الجِيفِ لا يقرب الجثة قبل أن تتحلّل. أعرفه اليوم أقلّ صبراً أكثر فتكاً. أبحر على الأرض الزلقة بما خلفته خراطيم

رجال الإطفاء من مياه استحالت خليطا طينيا من دماء و تراب ورماد و حجارة. ما ألفتُ مشاهدته على شاشات التلفزيون من مشاهد وأصوات تدور في دول المنطقة، بتُ أشاهده حياَ حولي، ولكن لا جهاز ريموت كونترول هنا، ولا ذلك الزرّ القدم على طاولة صادق! المبني المعني يخص طائفة. الضحايا حوله من الطائفتين! أعزني برود أعصابك يا أيوب! كيف لك أن تمسك بالكاميرا تلتقط صوراً لو كنت مكاني. أدريكُ تفعل كما لا أفعل. لا أتمكن من التقاط صورة واحدة. أكره ما أرى. أفضل في السيطرة على رعشة أصابعي. لا أريد الاحتفاظ بصورة أمقبُ تفاصيلها. أتخيّل مصيراً مشابهاً لفهد وصادق. تخنقني عبراتي. أتصل بأيوب: ألو أيوب! أي جديد؟ يسارع يجيب: الجديد لديك. ألتفتُ أعين جدّة الأشياء من حولي. أجييه صوتاً أفضلُ في كبح عبراته: لا جديد سوى أعداد القتلى. يجيبني: خذُ عندك.. زدِ طينك بلّة! لا أفوه بكلمة أتأهبُ لبلّته: فتوى، أو ما شابه، أشدُّ قسوة من سابقاتها، تدعو إلى تجنّب الاستماع إلى إذاعة أولاد فؤادة أو متابعة موقعها الإلكتروني أو حساباتها في مواقع التواصل الاجتماعي.. أصحابها على ضلال. غصة في الحلق تفضي إلى مرارة أسفل لساني. عيناى صوب الحفرة أمام مبنى الحسينية. أسأله: مِمَّن؟ يفلت زفرة تشبه ضحكة: كلاهما. هل تُصدّق؟! صدرت الأولى عن إذاعة أسود الحق، ثم لحقتها تأييدات رجال دين، في الجماعة الأخرى، انتشرت سريعاً في مواقع التواصل الاجتماعي ورسائل الهاتف.

يقول كلاهما! وكلاهما لم يتفق يوما على رؤية هلال رمضان  
وبدء الصيام في يوم واحد. كلاهما لم يهنئ الآخر أول يوم عيد، لأن  
لكليهما يوم عيدٍ أول لا يوافق يوم الآخر. كلاهما لم يتفق على موعد  
صلاة. على نسبة زكاة. على دفن موتاهم في مقبرة واحدة. كلاهما  
لم يتفق على شيء سوى تجنُّبنا اليوم. كلاهما يتفق، مرّة أولى، ضد  
من بُحَّت حناجرهم ينادون بكلمة سواء!

يزيدني أيوب بلّة تلو الأخرى تحيل طيني وحلاً أغرق فيه:  
بعض المتشدّدين، في كلا الفريقين، يرى دمنا حلالاً! أنتبه إلى كلب  
الذراع المتبورة يعود من دولها. يتشمّم الأرض. لا يجد أيوب، إزاء  
صمّي، سوى أن يستطرد: لا أريد أن أزيدك قلقاً، ولكن، أحد  
رجال الدين أفتى بوجوب تدخل الدولة لإيقافك بعد حلقة حديث  
اليوم" وإلا فالنار مصير أولاد فؤادة! تساؤلي يبدو ساخرا من دون  
قصد وأنا أسأله: الدولة؟! يجب: هذا ما قاله رجل الدين. لا أمالك  
أعصابي: أراك تدعوهم رجال دين! أيوب! لم يمض على بث  
الحلقة سوى ساعة! أي سرعة هذه في إصدار فتوى؟ يجب موضحا:  
حسنا، هي ليست من جهة رسمية. ليست فتوى بالمعنى الحرفي بقدر  
ما هي رد فعل فوري إزاء تصريح شبكة الملاحدة. تتقلّص أمعائي  
لسماع الاسم. تنطلق صافرة سيارة إسعاف تتعد عن موقع  
الانفجار. أسأله: وما دخلنا نحن بالشبكة؟! يلوذ بصمته ينتظر  
خفوت الصافرة. يوضح: شبكة الملاحدة.. تشيد، عبر موقعها في  
الإنترنت، بحلقة "حديث اليوم" وقصيدة "المجد للظلام" يقولون إنها



مؤشر لصحوة من غفلة الدين. أقاطعه: ولكننا. يقاطعني: ولكنهم  
استخدموا القصيدة بما يخدمهم. أنت تعرف، منذ إعلانهم عن الشبكة  
وهم، كما يفعل الآخرون، يجيرون كل شيء لصالحهم.

يقول إن المترمّين يقولون إن جماعة أولاد فؤادة وشبكة  
الملاحدة، إحداهما وليدة الأخرى. يختتم المكالمة يُذكرني بالقصيدة  
أسفا: ألم أقل لك إنه ليس أوانها؟!

\* \* \*

## الفصل التاسع

عدنا ثلاثتنا، إلينا، كما كنا نجتمع في حوش بيت آل بن يعقوب. أي سعادة أحاطتني بعودة صادق ثانية. كنا في العاشر من رمضان، أو تاسعه وفقا لتقويم بيت عمي عبّاس. بالكاد سمحت لي والدي بالخروج بعد أن وعدتها بأنني لن أبارح حوش بيت الجيران، ولن أخرج معهم إن هم دعوني إلى ذلك. أجواء البلاد مشحونة في الشهور الأخيرة لحرب دامت ثمانية أعوام. حرب الخليج الأولى، الحرب العراقية الإيرانية، أو قادسية صدّام في بيت عمي صالح، الدفاع المقدّس في بيت عمي عبّاس. في اليوم السابق، ليومنا ذاك، انفجرت قبلة بالقرب من مكتب الخطوط الجوية السعودية، بعد أقل من أربع وعشرين ساعة على إعلان المملكة العربية السعودية قطع علاقاتها الدبلوماسية مع الجمهورية الإسلامية الإيرانية. في كل مرة نأمل فيها، والدي وأنا، أن تعود والدي إلى طبيعتها يأخذنا خبير انفجار جديد إلى دوامة من القلق. تعود إلى حالة الفزع كما لو أننا ما زلنا في يوليو 1985 تتسمّر أمام شاشة التلفزيون. تتصل بالودي وإخوتها وكل أقاربنا تطمئن إلى وجودهم في أماكن آمنة. ثلاثة أعوام

على تفجيرات المقاهي الشعبية لم تحمل والدي علي تجاوز حالتها النفسية. تبكي، مع كل خير انفجار، مقتل جارنا المسنّ أبي صالح. تستذكره، على دأبه، كل صباح وقت انشغاله بريّ نخلاته الثلاث خارج منزله. والدي مثلها ينتابه قلق، ولكنه قلقٌ مغاير، يتابع مؤشر سوق الأوراق المالية بعد كل خير تفجير، خوفاً من تأثر السوق المنهار أساساً منذ أزمة سوق المناخ عام 1982، وهو الذي يعقد آمالاً كبيرة على أسهم اشتراها خلال الأزمة الاقتصادية بأسعار زهيدة. خالتي عائشة وخالتي فضيلة تعيشان في خوف مؤقت. وحدها أمي حصّة، رغم خسارتها الكبيرة وترملها: "مثواه الجنة"، ورغم مرض ابنتها إثر فجيعتها بموت الأب: "الله الشافي لا تبدي قلعا هذه العجوز، تُحصن إيمانها: "الحافظ الله"

أسفل السّدرة كنا، في جوّ معتدل منتصف ربيع 1988، لا نزال، منذ أسبوع، في غمرة فرح الإفراج عن رهائن الطائرة المخطوفة، لولا عودة القلق مع انفجار القنبلة في اليوم السابق ليومنا ذلك. كنا، بعد أذان العصر، نبحت عن ثمار نبقٍ غير ناضجة، نجتمعها في سلّةٍ كلفتنا أمي حصّة بمكئها بالثمار، تحضيراً لعمل أجارها ذائع الصيت في شارعنا؛ أجار أم صالح الذي لا يتقنه سواها، والذي لا يصلح مُطبّق السمك، كما يؤكد قط المطابخ فهدي، من دونه. كانت تخلّل كل شيء لتصنع منه الأجار، البمبر والمانجا والليمون وثمر الجبل والخيار والطماطم والبادنجان والقرنبيط. أرادت تلك السنة أن تجرب شيئاً جديداً؛ النبق. سألها فهدي بوجه يفتعل علامات القرف: "يمّه حصّة! كيف تصنعين الأجار من الكنّار؟!". وكأها أدخرت

إجابتها لسؤاله قبل أن يفعل. أجابته على الفور: "كُلُّ ما يعجبك والبس ما يعجب الناس أجابها: "ولكن.. قاطعته تدعوه لجمع النبق في صمت وإلا صنعتُ منه أچاراً! أشارت إلى صدرها بسببها المرتعشة: "هذا أچار أم صالح، الله يخلف على أمهاتكم!" تقول أمي حصّة إن السر وراء جودة الأچار واختلافه يكمنان في الخَلُّ الذي تصنعه، في البيت، بنفسها بدلا من شرائه جاهزا من السوق. "تعرف السب الناظرة شلون تسوي الخَلُّ؟!"، تناكفني. لطالما سحرتني أجواؤها الغرائبية حين أجدها، على قطعة حصر جدلتها من سعف بنات كيفان، كأنها بساط سحري جاء بها من زمن بعيد لا يشبه زمننا، تفرص أمام أواني الخَلُّ الفخارية، أثناء إعداده، في زاوية الحوش وراء المطبخ، تَهزُّ رأسها مغمضة عينيها، تَبَسِّمُ وتقرأ عليها آياتٍ من القرآن الكريم همسا. أسألها: يُمه حصّة!.. لماذا تقرأين القرآن على الخَلُّ؟! توقف هزُّ رأسها مبقية على جفنيها مطبقين. تجيب بخشوع: حتى لا يستحيل الخَلُّ حمرا.

أغصان السّدرة مثقلة بثمار نبقٍ ناضجة وأخرى خضراء وصفراء لم تنضج بعد. ثمار كثيرة تتناثر على الأرض، وأخرى على سطح السقيفة بالتأكيد. أمرتني أمي حصّة أن أتسلق الشجرة أطف بعضا من ثمار تصلح لأچارها. "كنار محوضر مو مستوي" أجبتُها بأن فهذا يجيد التسلق أكثر مني. رفضت. رَقَصت حاجبيها: فهد قَطّ.. أنت قرد! كرهتُ يوما سألتها فيه عن موقع حديقة الحيوان. نزعتُ نعليّ أسفل الشجرة أنظر إلى أغصانها من خلال الهوة الكبيرة في جريد السقيفة مترددا. قرأتُ ما جال في خيالي. طمأنتُ: "الله

يقيد الجن والشياطين في رمضان.. اصعد يا حوآف!" تشبثت بساق الشجرة أتسلقها في حين كانت تجلس على مقعدها قصير القوائم فوق بلاط الحوش. صاحت فجأة بحفيدها مرتبكة: "فهد!" أشارت نحو نعليّ على الأرض. نظرتُ، من خلال هوة السقيفة، إلى نعليّ في الأسفل. إحداهما مقلوبة. ضحك فهد وهو يعيدها إلى وضعها الطبيعي، في حين أخذتُ أردد خائفا: "أستغفر الله" نظرت أُمي حصّة إليّ تقول: "عَفِيَه على وليدي"، قبل أن تزجر حفيدها، تشتمه على طريقته: "تضحك يا يهودي؟! أشوف شلون تضحك إذا طاحت علينا السما!" هزّني منظرُ رسمته في مخيلتي. تشبّثتُ بأغصان السدرة. أتساءل: "كيف تسقط علينا السماء إذا كان الله.. أستغفر الله!" واصل فهد ضحكه. نظرت إليه جدّته آسفة: "ياما حذرتك هزّت رأسها تستطرد: "القطوُّ العود ما يتربّي!" احتجت إلى سنوات لأؤمن بقولها. آمنت بأن الكبير لا يمكن أن يكون إلا ما كانه صغيرا. بالكاد جمعنا قدرًا قليلاً من ثمار بعضها لم ينضج بعد وبعضها الآخر على وشك النضوج. كنت أقذف بالثمار في السلّة على الأرض. رائحة الطعام، من مطبخ تينا المطل على الحوش، تستدر الريق وتقلّص الأمعاء، تُذكرنا، نحن الثلاثة، بخواء بطوننا في أول رمضان نصومه. تنهى إلى مسامعنا صوت عجلات عربة السوق المركزي على الإسفلت مرتفعا وراء سور الحوش. انفجرت أُمي حصّة ضاحكة: "وصل قطار أم عبّاس!" أُمي زينب جارتنا، أو ببسي زينب، بالعراقية، كما يخاطبها حفيدها التوأم، مثل كل جدّات الحي شكلا، تميّز عنهن بقراءتها المصحف وكتب الطبخ

ودليل الهاتف، من دون المرور ببرنامج محو الأمية الذي ترعاه الدولة  
 وقتذاك، والذي فشلت فيه أمي حصّة، رغم ادعائها: "الأبلة، في نحو  
 الأمية، قالت لي مُنتاز تلقت أمي زينب تعليمها في العراق حتى  
 المرحلة الابتدائية قبل زواجها بجدّ صادق، عبدالنبي، وتركها  
 بلدها. كانت مصدر اعتزاز حفيدَيها لأنها تقرأ وتكتب، ولأنها تنتمي  
 إلى عائلة عراقية عريقة. مُتعة أمي زينب، التي تشتهر بها في حينها، هي  
 الذهاب إلى فرع السوق المركزي وشراء حوائج المطبخ مشياً على  
 قدميها. وفي كل مرّة يلومها مدير السوق، على الإعاقات التي  
 يُلحقها الإسفلت بعجلات العربة: "يا حجية! العرّبانة للاستخدام  
 داخل الفرع موبّرة!" تعفّه: "هسه لازم أذكرك مرّة ثانية! وليدي  
 عبّاس مساهم في صندوق السوق؟! إخصم كلفة التصليح من  
 صندوق مساهمته رقم 364" لم يقتنع الرجل يوماً بردّها. ولم يقو  
 على إقناعها. تُذكره دائما بمبالغ المساهمين من سكّان المنطقة وقت  
 تأسيس السوق المركزي لجمعية السُرّة التعاونية، منتصف الثمانينيات.  
 أشارت أمي حصّة إلى صادق، بصوت يجاوز احتكاك عجلات العربة  
 ارتفاعا، بأن يفتح باب الحوش: "إفتح الباب لعجوز الشّط!" كنب  
 فوق السّدرة أشاهد أمي زينب، وراء السور، بابتسامة واسعة  
 ضاعفت خطوط وجهها، تدفع عربتها المليئة بالخضار والفواكه.  
 توقّف قبل أن تتجاوز بيت آل بن يعقوب نحو بيتها. صاحت:  
 "سمعتك يا عجوز النار!" انفجرت أمي حصّة تهقهه: "الله يجيرنا من  
 النار تبعتها قهقهات أمي زينب في الخارج. "حيّاك حيّاك" أصرّت  
 جدّة فهد على دخول جدّة صادق رغم ضيق الوقت، لتحضير سُفرة

الإفطار، قبل أذان المغرب، رغم اختلاف التوقيت بين البيتين: "تغرب شمسكم عقب شمسنا بعشر دقائق.. ليش العجلة؟!"، تناكفها أمي حِصَّة. تطل أمي زينب وراء باب السور الحديدي على الحوش، بوجهها ذي الخطوط الغائرة وعباءتها وحجابها المُحكَّم على جبينها وذقنها بصورة لا تشبه حجاب أمي حِصَّة. تتجاوز الباب دخولا تحيي فهداً في طريقها: "شلونك بزُون؟" ينبري فهد يجيها يخربش الهواء: "مياااا!" تجرُّ أمي حِصَّة خطواتها نحو الباب تستقبل أمي زينب، تُقبِّل جبينها كما لم تفعل قط. نستغرب هذا القدر من الاحترام للجارة. تلتفت جدَّة فهد نحونا مُبررة قُبلتها: "واجب نُحترم الكبير!" تنتفض أم عَبَّاس، تُقسِمُ بلهجتها العراقية رافضة: "أحلف بالله، وبحليب أمي حَسبية، إنِّي أكبر مني!" تضرب أمي حِصَّة صدرها بكفِّها تملقُ في جارِها: "خرَفِّي يا أم عَبَّاس؟!!" تقضي العجوزتان وقتاً عند باب الحوش في إثبات أيهما أصغر سنّاً في حين نتابع، ثلاثنا، المشهد ممتعة تفوق متعة متابعتنا لنزيلات مستشفى الطب النفسي في مسلسلنا التلفزيوني. انتقل شجارهما المفتعل إلى الحديث عن المطبخ، ثم إلى جلسات شرب الشاي بعد صلاة العشاء في حديقة جمال عبدالناصر في الروضة، مروراً بخبر الانفجار الذي هزَّ العاصمة يوم أمس بالقرب من مكتب الخطوط الجوية السعودية، وصولاً إلى الحرب. كانت أمي زينب تتحدث عن العراق بالتعاطف ذاته عند حديثها عن إيران. وجدتني أضعف من أن أُلجم سؤالي. قاطعتهما بعد أن ألقىت آخر ثمرات نبق جمعتها داخل السلَّة: "بيبي زينب! من تشجِّعين.. إيران أم العراق؟" التفتتا إليّ. أجابتنني أمي

حِصَّة: "هذي حرب، الله يجيرنا، ما هي مباراة كرة قدم يا خيل!"  
لم أعر بالا لإجابتها. كنت أنظر إلى عينيّ أمي زينب. هزّت رأسها  
تمطّ شفتيها: "آه من بطني.. وآه من ظهري"

\* \* \*



## يحدث الآن 4:20 PM

أطبقُ عليّ باب سيّارتي. كاميرا أيوب، خالية من صورٍ يضح بها رأسي، في يدي. محاولاتي في التواصل مع صادق وفهد لم تأتِ بجديد. حديث أيوب في مكالمته قبل قليل يدفعني للدخول إلى بريدنا الإلكتروني. لا رسائل عدا واحدة من أيوب أرفق بها موجز نشرة السادسة. أنتقل إلى حساب أولاد فؤادة في تويتر، رغم أنني أوكلت لأعضاء مجموعتنا مهمة الدخول، وإعفائي من هذه المسؤولية تحديدا. كنت قد أدركتُ حدًا لم أعد أطيق به هجوماً يرِدنا من مستخدمي تويتر. جماعات دينية متطرفة وأخرى لا تعترف بدين تكيل اتهاماتنا لنا، تشتم وهتّد وتنال من أهلنا وبيوتنا كي يتدخلوا، يضغطوا علينا، يضعوا حدًا لهُراءنا كما يزعمون. آخرون يطالبوننا بالكشف عن أنفسنا: "إن كنتم رجالا!" أمسك بهاتفني المحمول أدخل اسم صفحتنا في تويتر @AwladFuada، تظهر لي الصورة التعريفية للصفحة، فؤادة بثوبها الأحمر القاني وربطة شعرها سماوية الزُرقة، تفتح فمها وعينيها على وسعها، تحمل مصيدة فتران برتقالية اللون، تشير بسبّابتها مخدّرة. أُمِرر نظري على الكلمات أسفل الصورة، أنصتُ في داخلي إلى صوت فوزية جافًا تفتعلُ بُحّةً أرعبتني صغيرا: "أنا التاريخ كله! وأحذركم من الآن؛ الفتران آتية.. احموا الناس من الطاعون!". التغريدة الأخيرة في الصفحة، منذ دقائق، تقول: "الله

واحد يبدو أنها لضواوي. لا أظن أن أيوبا وراءها وهو الذي حصر نشاطه في صفحتنا على بث الأخبار وحسب. أربعة تعليقات إيجابية على التغريدة، وثمانية تهاجنا، وما يزيد على الخمسين تعليقا لمغردين، إن صحَّ الوصف، يهاجمون بعضهم بعضا؛ "هذا حقُّ أريدَ به باطل.. رافضة.. الله يلعنكم.. نواصب.. تفؤ.. ألا شأهت وجوهكم.. عُمر عُمر عُمر هيهات منا الذلة"

لا أحتمل. ولأن لا صلاحية لدي لحذف تعليقات ليسب لي. ألمس علامة سلّة المهملات أسفل تغريدة "الله واحد أحذفها. يرّن هاتفي المحمول كاشفا عن رقم حفظته صغيرا ولا أزال، حاجبا صفحة تويتر هو هاتف بيت عمي صالح الذي تطابق أرقامه الأولى رقم هاتف بيتنا القديم وبيت عمي عبّاس. أول أرقام هواتف حفظتها في حياتي، يوم كانت الهواتف ذات الأرقام السبعة سهلة الحفظ، قبل أن تتزايد وتصبح كم؟ ألصقُ هاتفي المحمول بأذني. ينطلق لساني لهفة:

"ألو فهد!"

يردني الصوت من الطرف الآخر

"آنا أم حسن.."

أسحبُ نفسا عميقا قبل أن أجيب:

"حوراء!"

يجيء الاسم على لساني بمذاق قديم. مضى زمن طويل لم أَلْفِظ فيه اسمها. ربما الرقم الذي ظهر على شاشة هاتفي أعادني إلى زمنه. زمن إذا ما جاء ذكرها مع صادق هي "حوراء" ارتدت الحجاب أصبحت "أختك" تزوجت صارت "أم حسن حتى فهد، ذكرها في حديثه مقتضباً لا يتجاوز "الأهل ذهبتُ مع الأهل. اتصال من الأهل. قلتُ للأهل. لأجدي مُجيراً أنهي مكالماتي الهاتفية معه خاتماً: "سَلِّم على الأهل"

أعاود النظر إلى شاشة الهاتف أتأكد من الرقم لعله رقم بيت عباس في الرميثية. أجدُ الرقم كما لمحتهُ أول مرة؛ بيت آل بن يعقوب. رغم الضيق والحيات، أستبشر خيراً باتصال أم حسن من بيت زوجها بعد قطيعة. أسألها عن حال ولديها. تجيب بأنهما يلعبان في الحوش. تسألني عن زوجها وشقيقها. عدا "خير إنشالله" لا أجد لها رداً، وأنا الذي أدريها، لسان حالها يشكو غياب الإثنين شكوى جدتها قبل سنوات طويلة: "آه من بطني.. وآه من ظهري" تقول بصوت منهك:

"خالتي عايشة منهاره.. خايفة على فهد"

كلانا يعرف إلام يُفضي قلق هذه المرأة، الساحرة، راصدة الزلازل قبل وقوعها، كما تُسميها تهكماً وعن تجربة. أسمح لنفسني بأن أنهي مكالمتي منتهكا خصوصية فهد وحوراء: حسنا فعلتِ يا أم حسن بعودتك إلى. لا تمهلني: عمي صالح في مستشفى مبارك منذ الساعة الواحدة، أخذته سيارة الإسعاف تصحبه خالتي عائشة. أمني

نفسي بأن ما حدث لأبي فهد هو ما دفع قلب خالتي عائشة يقرصها ظهر اليوم. أتمنى ألا يجاوز الأمر ذلك. تلوذ حوراء بالصمت قبل أن تستطرد. تقول إنها لا تفهم شيئاً. عادت خالتي أم فهد بعد ساعتين من المستشفى. حملت قِدر طعام من المطبخ. خرجت ولم تفه بكلمة. تجاوزت قولها لا أريد أن أُلقي بالألّا لتصرفات أم فهد الغامضة. أريد أن يعود فهد الآن ليرى زوجته وقد عادت إلى بيته. تبرر وجودها في بيت زوجها في السُرّة كأنها تقرأ أفكاري: كان ضرورياً أن أبقى إلى جانب فوزية. شيء لا يمكنني وصفه ينتابني كلما سمعتُ الاسم. أسألها عن حال عمّة فهد. تجيبي تنهي المكالمة: "خير إن شاء الله" لا آخذ منها فوق القلق إلا القلق. لا تبادل سوى الخير إن شاء الله! انتهت المكالمة ولا خير بعدها على ما يبدو. أنظر إلى شاشة هاتفِي المحمول وقد عادت صفحة أولاد فؤادة في تويتر للظهور بعد مكالمة أم حسن. البعض يشير إلى صفحتنا يواصل شتائمهم والدعاء على أولاد فؤادة بالويل والثبور وعظائم الأمور. أكاد أسجّل خروجي من الصفحة. أنتبه إلى تداول البعض تغريدة مرفقة بصورة لعبارتنا المحذوفة "الله واحد"، تقول التغريدة: "أولاد فؤادة يتراجعون عن تغريدة، الله واحد، إرضاء لشبكة الملاحدة.. رُفِعَت الأَقلام وجفت الصُحف!"

عشراتٌ يعيدون تدوير التغريدة. عشرات يردّدون اتهاماتهم يطلقون علينا أوصافاً بين روافض ونواصب وملحدّين. موالين للحكومة ومعارضين. في حين اكتفت شبكة الملاحدة بتغريدة تزيد النار حطباً: "الدين غفلة!" أصابعي المرتعشة تدوّن اسم مجموعتنا في

المكان المخصص للبحث على صفحة تويتر تتبعا لردود أفعال. يلفتني نشاط وسم #الفئران\_آتية، ووسمٌ آخر يبدو جديداً؛ #أوقفوا\_أولاد\_فؤادة.

في الوسم الأخير أجد تغريدة لأحدهم، يرفق صورة البطاقة الشخصية لضاوي تحملُ صورته وبياناته الشخصية. كتب صاحب التغريدة: "الكشف عن فأر من فئران فؤادة!"

\* \* \*

## الفصل العاشر

ما كادت تمضي أمي زينب، تدفع عربتها، في طريقها إلى بيتها حتى عادت إلى حوش بيت آل بن يعقوب بوجه محبط: نسيتُ المرور على فرع التموين لشراء معجون الطماطم. صاحت أمي حِصَّة: "تيناا.. يا تيناا" قاطعتها أمي زينب: لا داعي يا أم صالح.. فليذهب أحد الصبية إلى حيدر قبل أن يغلق دُكَّانه. كنا نتسابق للذهاب إلى البقالة أو السوق المركزي إذا ما احتاجت إحدى العجوزتين شيئاً. فرصة للخروج لا تُعوَّض بئس. يالفرحنا إن احتاجت أمي حِصَّة عجينة السمبوسة، نتسابق إلى مطعم شاكر الهندي لشرائها خلسة كي لا ينتبه جابر المصري. نعود، نسألها: "ما تشتهين كبدة أو كلاوي أو كباب؟" تدرينا لا نأبه بشهيتها بقدر ما نأبه بشهيتنا للخروج إلى نهاية الشارع نحو بيت العويدل حيث دُكان الجزَّار السوري عدنان. يستغرق الطريق بضع دقائق نجيلها ساعات قبل أوبتنا. نخرج أمي حِصَّة، بين حين وآخر، للقاء صاحباتها في حديقة جمال عبدالناصر في الروضة، أو بالخروج إلى الجبيرة، بصحبة خالتي عائشة، كلما احتاج مطبخ تينا إلى خضار أو فاكهة. تمرُّ بنا مرتدية

عباءتها. نقف أمامها نسدُّ باب الحوش: "يُمَّه حِصَّةٌ خذينا.. خذينا"  
تسألنا السؤال الورطة: "منهو تحبون أكثر.. أنا والا الله؟" نبهت.  
تصر على سماع إجابة ترضيها: "الله طبعاً!" تدير ظهرها: "مُتأزلاً! الله  
ياخذكم وأفتك منكم تتخلَّص من إلحاحنا. تحتفي وراء الباب  
مخلفة تأثير ضحكها على وجوهنا المحبطة. في حين يولد سؤالاً إلى  
نفسي، كيف أحبه إلى ذلك الحد، ولا أريده أن يأخذني إليه؟! ولأن  
أسئلتني تراوح بين عيب وحرام، ابتلعتُ سؤالاً.

تلخَّقتنا حول أمي زينب، يومنا ذاك، تمسَّك بعباءتها. تتعالى  
أصواتنا نرجوها أن ترسلنا إلى حيدر البقال لشراء معجون الطماطم:  
"بيبي زينب.. أنا.. أنا أنا" دسَّت كفها ذات العروق النافرة في  
حقيبتها الجلدية السوداء، تعطي صادقاً ثمن معجون الطماطم، ثم  
تعطي لكل منا ربع دينار لشراء ما يرغب به. صاحت بنا أمي حِصَّة:  
بدلاً من شراء العلكة والحلوى تَبَّ...، قاطعها فهد ساخراً، يحيي  
ظهره مرخياً شفته السفلى، يُقلِّد صوت عجوز، يُتمُّ جملتها المعتادة:  
"تبعوا لفلسطين نظرتُ إليه وسعَ عينيها حتى خلتهما على وشك  
السقوط. حرَّرت قدمها من نعلها. انحنت في سبيلها لالتقاطها وهي  
تصيح به: "تضحك عليّ يا يهودي؟! انطلق فهد هاربا، تُحلِّق  
وراءه نعل أمي حِصَّة قبل أن ترتطم بالباب الحديدي تسقط أرضاً.  
ركضتُ نحو الباب، مثل كلب صيد، أعدُّ نعلها المقلوبة.

أمام الباب وقَّف سامر وحازم يحملان طبق مسخَّن وطبق  
عوامة. أرسلتهما أمهما مثل كلِّ رمضان. هَلَّل وجه أمي حِصَّة  
تنادي تينا تحمل الطعام. توصي الولدين ينقلان سلاماً إلى أم طه:

الصابون النابلسي قارب على النفاذ! ينصرف الولدان. تشرعُ أمي  
حِصَّةً تُحدِّث بيبي زينب عن بياض زند أم طه بفعل صابونها  
السحري. تناكفها بيبي زينب: "والله لو تغسلين زندك  
— كلوركس!"

فهد وصادق، ورثا شيئاً من أبويهما أصبحت لحظة في تفاصيل  
كلامهما. كنا قبل أيام، من يومنا ذاك، في طريقنا إلى فرع النظاراتي  
حسن، في السوق المركزي الرئيس المطل على شارع طارق بن زياد  
الممتد إلى الجسر الذي يفضي إلى الجابية. شارع محظوظة ومبروكة،  
كما كنا نسميه نسبة إلى مسلسلنا المحبب. كنا نجري في الشارع ذاته  
ولكن ليس باتجاه مستشفى الطب النفسي، هرباً من الفئران، كما  
كانتا تفعلان. كانت فوزية قد أرسلتنا لشراء سائل التعقيم الخاص  
بعدساتها اللاصقة، في وقت كانت تعاني فيه من اعتلال النظر بسبب  
مرضها. أمام باب محل النظاراتي حسن همس لي فهد: "ليش النظاراتي  
حسن؟ ليش مو النظاراتي عُمر؟!" إيغال عمي صالح في كرهه لجاره  
صوّر لفهد أنه، بالضرورة، يجب أن يكره ما يحبه الجار. حين سألتُ  
فهداً ما الضير في أن يكون النظاراتي حسن، أجاب بأنه اسم لا ينتمي  
إلى طائفتنا. تذكرت خالي بوجهه الهادئ ولحيته السوداء الطويلة.  
أجبت به بأن خالي اسمه حسن! وكما تعلمنا في منهج التربية الإسلامية  
في المدرسة فإن: "أحفاد الرسول صلى الله عليه وسلم، أبناء علي بن  
أبي طالب رضي الله عنه.. الحسن والحسين رفع حاجبيه دهشة:  
"إحلف؟!" صادق، الكتوم في عاداته، أجابه، بعد احمرار أذنيه، نيابة  
عني جلفاً بالله: "والله العظيم ألق قسمة بسؤال: لماذا تحب عُمرًا.



اكتفى فهد بإجابته: "رضي الله عنه اندفعتُ أجيبه سؤالاً: ولماذا لا نجه؟ تحسستُ شفتيَّ وصوتُ أمي يترددُ في أذني: لولا الدماء في فمك لصفعتك على شفتيك! لذتُ بصمّي. أحاب صادق، على غير عادة، درسا تلقاه صغيراً: "لأنه ملعون" فكّر فهد قليلاً قبل أن يقول مُذكرًا: "قلتَ لي.. أبوك يقول إن أهل البيت يلعنونا" قبل دخولنا إلى النظاراتي حسن، ختم صادق مُذكرًا: "وأبوك يقول إن جماعتنا اختطفت طيارة الجابرية وإنما كُفّار إنت قلت!"

بتُّ أكثر تحفظًا. أكثر ترقبًا. أكثر قلقًا إزاء أي كلمة عابرة. تستحيل فعلا يودي بي إلى الرصيف بسن مفقودة وشفاهٍ دامية. خلف بيوتنا دُكانُ البقالة، على مبعدة ثلاثة شوارع توازي شارع علي بن أبي طالب حيث نسكن. ترى، هل تساءل فهد، صغيراً، عن سبب تسمية الشارع: لماذا الخليفة علي بن أبي طالب؟.. ماذا عن الخليفة عُمر بن الخطاب!؟

رفعنا دَشاديشنا الربيعية. طوينا أطرافها لَفًا حول خصورنا، حتى يسهل علينا الركض نحو دُكانِ الإيراني حيدر لشراء معجون الطماطم. ما حدث، عند النظاراتي حسن، قبل أيام، كان مقدمة لما شهدته في دُكانِ البقالة. فهد لا يحبُّ صاحب الدُكان، لأن ابنه متواطئ مع فوزية يبيعها الحلوى، ولأنه يُميز صادقًا في تعامله. وحده صادق كان يحظى بقطعة حلوى أو علكة مجانية في كل مرة نزور فيها الدُكان. يُبرّر فهد اهتمام حيدر: لأنه مثلهم!

عبرنا أسفل البالونات والكُرّات المطاطية الملوّنة المعلّقة أعلى الباب. ابتسم حيدر ابتسامة واسعة كشفت عن سنّهِ الذهبية، رافعا

حاجبيه الموصولين، يخالهما الرائي حاجبا واحدا ممتداً يعتلي عينيه. حياً صادقاً كدأبه بلهجة هجينة: "شلونك صادق؟" لستُ أدري ما الذي دعا فهذاً للتعقيب: صادقٌ ليس بصادق! التفتنا إليه نستوضح. أدريه يجئني أمراً ما. استطرده دونما اكتراث: مثل الحميني! قد يطال النسيان أي شيء في حياتي عدا وجه حيدر ذلك اليوم. اتسعت عيناه بصورة مرعبة. ارتعشت شفته السفلى. قام بتثبيت قبعته الصوفية التي يعتمرها صيفا وشتاء. استدار يخرج من وراء مسطبة السكاكر والمكسرات أمامه. أمسك بفهد من ياقة دِشْداشْتِه يدفعه إلى خارج الدُكَّان. بقي هو في الداخل، تفصل بينهما عتبة الباب. هزَّ سبَّابته محذراً: إياك أن تعاود القول! كنت أرتجف. فهد ينظر إلى عينيه مباشرة. أردف حيدر: قُل ما شئت عن أُمِّي.. عن أبي.. ولكن إياك أن..

كنا نتناول وجبة الإفطار بعد عودتنا من صلاة المغرب في مسجد مريم الغانم في قطعة 2. سمحت لي والدي أن أبقى لدى الجيران بحجة ذهابي إلى المسجد مع عمي صالح لصلاتي المغرب والعشاء. تنتقل يد عمي صالح بين أطباق أُمِّي حصَّة، وأطباق أم طه، متجاوزاً أطباق بيبي زينب، كعادته، لا يقرب طعامها. تذكرت سرطانات البحر وقول عمي عَبَّاس ليلة خروجنا للقُبار. "عمي صالح! هل أكل القُبُّب حرام؟" أجابني: "من يقول؟" أجبتُه متردداً: "عمي عَبَّاس" "عَمَّه بعينه"، قال قبل أن يسألني: "وهل يعرفون هُم الحرام؟!" أتذكر فهذا باهتاً صامتاً منذ ما قبل أذان المغرب، وقت عودتنا من دُكَّان البقالة. يمسك الملعقة بيمينه وكأس

اللبن في شماله. تُعْتَفِه أُمِّي حِصَّةً: "لا تشرب بشمالك.. يشرب معاك الشيطان" نظرتُ إليها أذكرها بقولها إن الشياطين مقيّدة في رمضان؟! أجابت من دون أن تلتفت إليّ: "ما أظن، هذا إنا أنت موجودا!" ضحكْتُ. ضحكْتُ. ضحك عمي صالح وخالتي عائشة وفوزية. قاطع فهدُّ ضحكنا: لماذا لا يذبح صدّام كل الإيرانيين؟!

\*\*\*

## يحدث الآن 4:34 PM

الضيق يطبق علي بعد مكالمة حوراء، وفاجعة انتشار صورة البطاقة الشخصية لضاوي. كفي، بشكل تلقائي، تندفع إلى أضرار مكيف الهواء. يضعع هواء المكيف في هواء الواجهة الخالية من الزجاج. أنا متوتر. أعاود الاتصال بضاوي. لا يرد. أنتقل بأصابعي أعالج أضرار المذياع. إذاعة أولاد فؤادة. ينطلق صوت ضاوي محدثاً مستمعيه بلسانه الثقيل:

كان النبي، صلى الله عليه وسلم، يتعوذ بالله كثيراً من الفتن، كما ورد في حديث زيد بن ثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: تعوذوا بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن

أجدني أهمس إلى نفسي: وكان، عليه الصلاة والسلام، إذا كربه أمر قال: يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث. أنظر إلى السماء في فتحة السقف. أما آن الأوان لتقع على رؤوسنا؟ أعود إلى هاتفي المحمول. أكتبُ إلى ضاوي: فات الأوان يا شيخ. عُد إلى بيتك فوراً! الحقُ رسالتي برسائل أخرى، أنقل له ما حدثني به أيوب؛ فتوى أو ما شابه، مصدرها كلاهما، وجوب تجنبنا، إباحة دمنا، على ضلال، تورطنا مع شبكة الملاحدة.

ينتقل البث إلى أناشيد دينية، يلجأ إليها ضاوي بين الفواصل،  
تجنباً للموسيقى التي لا يستمع إليها البتة. يهاتفني ضاحكاً مُطمئناً  
كعادته. يقول إنه تلقى اتصالاً من أيوب أخبره خلاله بكل شيء.  
يلومني، كما لومه من قبلي، على تصديق مثل هذه الأخبار: وهل  
تصدّق أن مثل هذا الكلام يصدر عن رجال دين؟! أجيبه صمتاً.  
يستطرد مُهوّناً: كل ما قيل لا يعدو كونه ترهات مجانين أو مراهقين  
متحمسين! إجابته التي أراد بها تهويننا أفضت إلى قلق مضاعف.  
أجيبه: وهل هناك أخطر من أولئك المراهقين؟ يُطمئني بأن هناك  
الكثير من الجماعات الدينية المعتدلة تؤيد أولاد فؤادة. أستعير لسان  
أيوب: "الغلبة للصوت المرتفع!" يلوذ بصمته. أتردّد كيف أخبره.  
أحذره بشأن انتشار صورة بطاقة هويته. أرجوه أن يوقف برنامجه  
ويعود إلى الفيحاء بأسرع ما يمكن. يسألني باهتمام: "بطاقتي أنا؟  
وين؟" لا أكاد ألفظُ اسم تويتر يقاطعي: انتهى الفاصل ساعاود  
البث!

يعاود بثه يحيي مستمعيه. يصاحب صوته صوت الأناشيد  
خفيضاً. يواصل ما توقف عنده قبل الفاصل: "أحبتي في الله.. عن  
ابن عباس رضي الله عنهما، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:  
أتاني الليلة ربي تبارك وتعالى في أحسن صورة، فذكر الحديث،  
وفيه قوله تعالى: "يا محمد إذا صليت فقل: اللهم إني أسألك  
فعل الخيرات، وترك المنكرات، وحب المساكين، وأن تغفر لي  
وترحمي وتتوب علي، وإن أردت بعبادك فتنة فاقبضني إليك غير  
مفتون".

الجملة الأخيرة تجيء على لسانه بنبرة مغايرة. يكررها ضاوي  
ثلاثا. وكأنني أراه مغمضا عينيه خاشعا: "فاقبضني إليك غير مفتون..  
فاقبضني إليك غير مفتون.. فاقبضني إليك.. غير مفتون" أشفقُ عليه  
كلما عانده حرف الراء مُشَوِّها نُطقه.  
أنتقل إلى بقية الإذاعات أنشدُ أخبارا جديدة..

\* \* \*



## الفصل الحادي عشر

كنا نتحلَّق حول جريدة "الوطن صباحا" في بيت عمي صالح. نلتهم الصفحات. نتحرَّى أخبارا عن بطولة رياضية مرتقبة؛ بطولة الصداقة والسلام الأولى. بالغنا بمتابعة الصحف بلهفة لا تناسب أعمارنا، بتحفيِّزٍ من فوزية، نبحت في أوراق الجريدة عن كل ما يتَّصل بالحدث من ترتيبات؛ تصريحات رئيس اللجنة الأولمبية الشيخ فهد الأحمد الصباح، لقاءات مسؤولين، صور لتجهيزات الملعب، تحضيرات طلبة المدارس لحفل الافتتاح، أخبار الفرق والمنتخبات المشاركة.

كان يوم جمعة، الثاني والعشرين من سبتمبر 1989، لم أدَّخر فرصة لمناكفة فوزية حين انطلقت أغنية في التلفزيون. "كويت والعرب.. الأهل والنسب" تُردِّدها مجاميع الطلبة في أوبريت وطني شهير أُقيم قبل عشرة شهور من يومنا ذلك. تركتهم يتفحصون الجريدة على الأرض. وقفتُ تلقائيا أرقص بغباء على إيقاع الأغنية أردِّد: "كأنهم حولها.. العينُ والهْدْبُ" أنحني. أقربُ وجهي إلى فوزية، أرقص حاجبي فوق عيني الحولاوين. "انشالله تصير عمِّي!" قالت من دون أن تضحك. جلستُ على الأرض ثانية، في زاوية



غرفة الجلوس قريبا من تمثال أمي حصّة، بين صادق وفهد وفوزية. لا أخبار ولا جديد في الجريدة يستدعي الاهتمام سوى ما غير مزاج صادق على نحو مفاجئ. أمسك بالجريدة يقرأ صفحاتها الأولى باهتمامٍ بادٍ. احمرار أذنيه دفعني لقراءة ما جاء في صدر الصفحة. عنوان فرعي: "أدانتهم بحوادث تفجير مكّة المكرّمة" أسفله عنوان رئيس: "السعودية تعدم 16 كويتيا وتبرئ 9" تبس صادق يوجّه كلمته إلى لا أحد: "مظلومين انصرف بعدها إلى بيته تاركا في داخلي سؤالا: من يكونون؟ نسيت الأمر تاليا، ثم تذكّرت بعد مرور أربعين يوما، حين أدركت أنهم ينتمون إلى طائفة بيت عمي عباس، كما قال عمي صالح. انزعج صادق حين سألته. وانزعجت أنا لقاء إجابته التي لم أفهم منها شيئا آنذاك. كنت أشعر أنهما، صادق وفهد، يفهمان أكثر مني بسبب أبويهما. كانا يسخران إزاء جهلي وكثرة أسئلي، يطلبان مني أن أعود للعب بدمى المصارعين وجمع صور هولك هوغان بدلا من أسئلي الجاهلة. أتذكر امتعاض صادق يسألني عن رأي عمي صالح في جماعتنا حين اقتحمت الحرم المكي بالسلاح قبل عشر سنوات. وعندما ذهبتُ إلى والدي أسألها عن جماعة جهيمان التي أخبرني صادق بشأها، أجابت تلوّح بسبّابتها: "والله العظيم أحرمك من صحبة الإثنين!" شتمتُ صادقاً وفهداً. لم أعاود السؤال ثانية. بقيتُ أسير الغيرة تجاه صديقي اللذين يعرفان كل شيء!

انشغل عمي صالح، بعد مرور أربعين يوما على تنفيذ حكم الإعدام، بإخراج سيارتيه وسيارة زوجته من المرآب ليأويها محاذة

الرصيف أمام بيته. استغلق عليّ إدراك السبب قبل أن يفهمني فهدد دافع أبيه إلى ذلك، خبيراً نقله أحد الجيران لعمي صالح صباحاً؛ عمي عباس بصدد إقامة مجلس عزاء، أربعينية، لمن ضربت أعناقهم من الكويتيين في المملكة العربية السعودية. الأبرياء تارة، المجرمون تارة أخرى. كانت أول مرة أسمع فيها الكلمة؛ أربعينية.

هاتف عمي صالح والدي وبقية أصحاب البيوت في شارعنا، يطلب منهم إخراج سياراتهم من بيوتهم، وأسفل المظلات، وإيواءها خارجاً بمحاذاة الرصيف كي لا يراحمنا ضيوف بيت عمي عباس من المؤمنين في المساحات الفارغة أمام بيوتنا. عمي صالح يحفظ موقفاً قديماً لجاره اللدود، حينما أحاط المساحة المقابلة لبيته بالسلاسل كي لا تزاخمه سيارات المعزين عند بيت آل بن يعقوب وقت وفاة صاحب البيت العجوز في تفجيرات المقاهي الشعبية. ولكن، لو لم يفعلها عمي عباس قبلاً، هل سيكون موقف عمي صالح مختلفاً؟

قليلٌ من الجيران تجاوب مع دعوة عمي صالح، كثير لم يفعل. عاود جارنا الاتصال بأبي فهدد يُصحح خيراً نُقل إليه: عباس سوف يحضر مجلساً تأبينياً في جامع الإمام الحسين، لا صحّة لما نقلته إليك صباحاً.

عادت سيارات الرصيف إلى أماكنها أسفل المظلات.

\*\*\*

## يحدث الآن 4:42 PM

أعلق، داخل سيارتي في الزحام، لا يتسنى لي الخروج من المنطقة المطوّقة من قِبَل رجال الأمن. إذاعة الكويت تبث خبر تعليق الرحلات الجوية من وإلى مطار الكويت الدولي دونما إشارة إلى أسباب. إذاعة الـ BBC تؤكد، في موجزها؛ مجلس الأمن التابع لهيئة الأمم المتحدة يوافق على مضاعفة قوات حفظ السلام داخل الأراضي الكويتية. أحد ضيوف برنامج المحطة يعقب على الخبر بعد الموجز: "يكفي الكويت رجلاّن يحفظان الأمن فيها بدلا من قوات حفظ السلام!" ينفجر ضاحكا. شيء في ينفجر باكيا. منذ شهور نسمع أنباء إرسال قوات حفظ السلام. ولا شيء عدا قواتٍ تحيط المنشآت النفطية. يُنبهني رنين الهاتف إلى رسالة نصية طويلة من الناشر: "شو صار! أتابع أخباركم بالتلفزيون.. طمّني عليك يا.. أهمل الرسالة قبل إتمام قراءتها. تطل في ذاكرتي صورٌ للبنان قديمة، وصوت أمي حصّة: "حبول!"، تردّها كلما أشار مذيع النشرة إلى حزب من الأحزاب اللبنانية النشطة وقت حربهم الأهلية الأولى. يهاتفني أيوب يقطع خيالاتي: الأمور تزداد سوءا. تزايد الاشتباكات على حدود المملكة العربية السعودية جهتي اليمن والعراق. أخباراً غير مؤكدة، ينقلها لي، حول قرارات مؤقتة من جانب السلطات في المملكة بإغلاق المنافذ الحدودية بينها وبين الكويت. بمعنى؛ كويتيو الداخل..

في الداخل. أتذكّر والديّ. أجييه: من كانت لديه نية الخروج..  
خرج منذ اشتعالها. يؤكد: مئات السيارات تصطف في طوابير طويلة  
لم يتسن لها العبور. أُعقِبُ: الحدود الشمالية مفتوحة لمن أراد! مجنون  
من يهرب من نارٍ كويتية بالكاد اشتعلت تَوًّا إلى جِمْمِ عراقية  
نستنشق دخانها منذ سنوات. يسألني: إلى أي قسم من العراق  
يلجأون؟ تخرج الكلمة من بين شفّي: "خبول!" يطلق ضحكة  
مفتعلة: "اللهم لا ملجأ ولا منجى تحيلني عبارته إلى ضاوي. يتم  
أيوب مُطمئنا: عموماً، لا أخبار رسمية بعد. يسألني قبل أن يُنهي  
الاتصال: أَلن تخبرني بما جرى فجر اليوم؟ أُنهي المكالمة: "بعدين  
أتصلُ بضاوي مرارا. لا رد. أدير مؤشر المذياع إلى محطتنا. لا أفهم  
شيئاً! ينطلق صوته في قصيدة، نعم قصيدة وهو الذي لا يفعل! هو  
الذي يرى فيها قصائد يُساء تأويلها. ما الذي يدعوه لأن؟! وكيف  
يتخلّى عن؟ يجيء صوته غاضبا لا يشبهه، نائرا على كل شيء؛  
طبيعته وحالنا وضعف حرف الرءاء في لسانه:

تَفَجَّرُ

أيها الغضبُ المهجَّرُ

أيها الألقُ المغيبُ

في المدى المخنوق

في الأفقِ المُعَفَّرِ

"تعويذة في زمن الاحتضار قصيدة أخرى لخليفة الوقيان! هل  
يدري أيوب؟ هل يدري ضاوي بم يردّد؟ أهو أوأنا أم أوأنا

احتضار؟! ينخفض صوته هادئاً. بما يشبه استسلاماً، في حين الأناشيد  
الإسلامية تتردد بصوت خفيض وراء صوته:

تَفَجَّرَ

إن دودَ الأرضِ يزحفُ

والدُّبَا المسعورُ يَحْصُدُ حَقْلَكَ الأَخْضَرَ

ما بال عينيّ تذرّفان الدمع عليك يا؟ كنت مطمئناً يا ضاوي،  
كيف صرت؟ هذوؤك يلقي القصيدة لا يُيددُ حالة الارتباك في. أبحث  
عن منعطف جانبي في الشارع المزدهم يقودني إلى مقرّنا. يجلدني  
صوتك يردّد ما لا يشبهك:

تَفَجَّرَ

إن ليلاً قاتلاً

يَطوي المدى

يَحْتزُّ أعناقَ النجومِ.. البدر

يسقي شفرةَ الخنجر

يَجيءُ... يُطلُّ

محمولاً على اسم الله

—جَلَّ اللهُ—

يَرقي سُدَّةَ المُنْتَبِرِ!

— اللهُ أكبر!

\* \* \*

## الفصل الثاني عشر

في الثلاثين من أكتوبر 1989، مساء، كنا مع موعد انتظرنا طويلا. اندس فهدً، بجسده النحيل، خلف خزانة التلفزيون الخشبية، يعب بسلك اللاقط الهوائي يُحسن الصورة المهزوزة على الشاشة. ألقم فوزية جهاز الفيديو شريط VHS ضغط زر التسجيل قبل أن تقفل عائدة إلى الأريكة. كان يوما حافلا، يوم افتتاح بطولة الصداقة والسلام الأولى، والتي صارت أخيرة. تسمّرنا أمام شاشة التلفزيون في غرفة جلوس بيت آل بن يعقوب. أفراد البيت وتمثال أمي حصّة وصادق وأنا، وحتى تينا التي اتخذ لها ركنا بالقرب منا ترقبنا كما نرقب ما يجري على الشاشة، ننتظر بدء الأوبريت الغنائي لافتتاح البطولة. أجواء مغايرة. صوب التلفزيون المرتفع وصمت هدير الكنديشة، مع انقضاء فصل الصيف. هتافات الجماهير الحمسة في الشاشة. رائحة الشاي بالزعفران. الحليب بالزنجبيل. صوت قشور المكسرات تنفلق بين الأصابع والأفواه من حولي. كميات كبيرة من الآيس كريم اشتريناها، خصيصا لهذه المناسبة، من أبي سامح الفلسطيني قبل أن يختفي في بيته الشتوي. لكل منا ما يشغله في تلك

الأثناء. لم أكن مهتما بالرياضة عدا المصارعة الحرّة، ولا برياضيين جاؤوا من أربع وأربعين دولة عربية وإسلامية للمشاركة في البطولة. كل ما كان يشغلني ويستفز فضولي هو أمر دولتين تلقيا مرة أولى بعد قطيعة.. العراق وإيران. كنت في لهفة لإدراك الخامس من نوفمبر، بعد أيام من يومنا ذاك، حيث لقاء الفريقين. التقيا في موعدهما. هتافات الجماهير عظيمة كانت عندما صافح قائدا الفريقين كلاهما الآخر. وعندما أهدى الشيخ فهد الأحمد، قبل بدء المباراة، كلاهما نسخة من القرآن الكريم كنت أسألني: لو جاء الشيخ فهد إلى شارعنا، يهدي كلاً من عمي صالح وعمي عبّاس نسخة. انصرفت الفكرة من تلقاء ذاتها مع انطلاق صافرة الحكم تعلن بدء مباراة أشعلها المعلق الرياضي خالد الحبران، رغم تعادل سلبي انتهت إليه المباراة.

كنا، يوم الافتتاح قبل المباراة بأيام، نتبادل الحديث همسا، قبل أن تُسكتنا أمي حصّة: "هشششش... فور ما انطلق صوت المذيع: "أما الآن، فليفضل سعادة الشيخ فهد الأحمد الجابر الصباح، رئيس اللجنة الأولمبية الكويتية، عضو اللجنة الأولمبية الدولية..

تننشي أمي حصّة لرؤية "الرجل"، على حدّ وصفها له بما يشبه غزلا، فهو الشيخ، الرجل، الذي قاتل في صفوف منظمة التحرير الفلسطينية لسنوات ضمن العمل الفدائي ضد "اليهود" داخل الأراضي المحتلة. هي لا تعرف التفاصيل أجزم، كما لم نكن نعرف شيئا عن أمور كهذه. كل ما تعرفه أن الرجل حارب اليهود، وهذا أمر يجاوز الكفاية لامرأة مثلها. اعتلى، أبو أحمد، كما اعتدنا سماع كنيته من عمي صالح، المنصة ليلقي كلمته قبل بدء الحفل الذي قام بصياغة

كلمات أغنياته. ثارت حماسة الجماهير، ونحن في غرفة الجلوس، إزاء كلمات وجهها إلى أخيه أمير البلاد، قبل افتتاحه البطولة بدقائق: "يا جابر الخير.. هنا، الملتقى هنا، أخوة مسلمون التّم شملنا.. فهذا ابن عمّي، وهذا أخي، ودين السماحة إسلامنا" كنا في صمت نتابع. افتتح الأمير البطولة. انطلقت الجماهير من طلبة المدارس، ترتدي ثيابا تقليدية للدول المشاركة، على أرض الملعب، على أنغام الأغنيات الوطنية، تؤدي استعراضات مع كل لوحة غنائية. أتذكر، وكأنني أسمعها الآن، هتافات الجماهير.. تصفق، تهتف وتغني، وكان كل منا، في بيت آل بن يعقوب، في أمسينتنا تلك، على ليلاه.. يغني!

خالتي عائشة لا تنفك تكلفُ تينا بعمل شيء. أي شيء، على ألا تجلس معنا في غرفة الجلوس بلا خدمة. أمي حصّة لا تبعد عينيها عن شاشة التلفزيون تصدر أمرها: اجلسي يا تينا! تنسحب خالتي عائشة إلى غرفتها حانقة. فهد وصادق يتابعان في صمت. يعقبان على كل عبارة يفوه بها رئيس اللجنة الأولمبية في خطابه، وكأنهما في مسابقة يستعرضان معلوماهما. ينصتان إليه. يقول:

"هناك شعوب بتلك الديار.. تعاني المجاعة تخشى الدمار

يتسابقان يجيبانه: "الصومال وفلسطين!" تمرُّ في مخيلتي صور علب تبرعات معدنية لا يخلو منها مكان، الأسواق والمساجد والمدارس، وحتى في غرفة فهد، صندوق يحمل صورة لقبّة الصخرة، وأخرى تحمل وجه صبي إفريقي تسيل من عينه دمعّة، تلوها عبارة: من يمسخ دمعّة هذا المسكين؟



"دعونا ننادي باسم السلام.. ونصلح بين جارٍ و جار  
يحيبانه، يسابق أحدهما الآخر، كلُّ وفق أولويةٍ نشأ عليها:  
"العراق وإيران"، أو "إيران والعراق"، وأنا، إزاء من يريد أن يصلح  
بين جارٍ و جار، وددت لو أجبته قبلهما: "عمي عبّاس وعمي صالح!"  
أو "عمي صالح وعمي عبّاس

وجدتني مثل البقية تارة، أتابع ما يجري على شاشة التلفزيون.  
تارة أخرى.. أجدني مثل تينا، أتابع الوجوه من حولي. كل واحد  
يجذبه في حفل الافتتاح شيء. فوزية تتابع بابتسامة ينقلها حزن لم  
أفهمه، ربما كانت تشتهي شيئاً من الممنوعات المثلجة التي بين أيدينا،  
أو ربما تتمنى لو أنها تشارك المجاميع الراقصة في الحفل، تعيد أمجادها  
الصغيرة. حدسْتُها تلحن أيامها التي دفعتها لأن تكون في السابعة  
عشرة من عمرها، امرأة تقيدها سلطة شقيق أكبر يرى في كل شيء  
تفعله نقيصة. فهد كالمنوم مغناطيسيّاً، يجلس على الأرض مثنياً ساقيه  
تحتّه، يتابع بشغف فاغرا فمه، عيناه باتجاه الشاشة بالكاد ترمشان لئلا  
يفوته مشهد. أدريه لا يعنيه في افتتاح البطولة شيء، بعد عدم  
مشاركة مؤيد الحداد ضمن تشكيل فريق المنتخب في البطولة، بقدر  
ما يعنيه تصدي عبدالكريم عبدالقادر للغناء في حفل الافتتاح. يستمع  
إليه بطرب لا يناسب سنّه. ربما لم ينتبه للكلمات الأغنيات بقدر  
انتباهه لصوت مطربه الأثير ووقوفه وسط مجاميع الطلبة ينشد أغنياته  
ويحرّك يديه بطريقة يميّز بها. أمي حصّة راوحت بين هز رأسها  
وابتسامات ودموع أنهتها تجهش بكاء من دون صوت، ربما لم  
يلحظها سواي، أثناء عرض لوحة فلسطين يؤديها عبدالكريم متماهيا

مع أصوات المجاميع من حوله: "وإذا بصوت ينادي، متى تعود بلادي" تتمخط في منديلها الورقي وتمسح وجهها قبل أن تنفجر تشتم "اليهود أولاد الحرام"، في حين تردّد المجاميع الراقصة توقد حماستنا: "قد وضعنا الخط الأحمر، تح مفهوم العبارة.. نحن أطفال ولكن، بالوغى نصبح كباراً"

سيرتنا تلك الأغنيات، فهد وصادق وأنا، حتى أصبحنا مهووسين بجمع الحجارة حول البيوت قيد البناء في السُرّة، ونحن الذين ما جمعناها قط إلا للعبة عنبر. نطوي دَشاديشنا. نرفعها مثل أكياسٍ نملؤها حجارة، نتخذ أسماء جديدة، صبحي ومازن ومصطفى، نختبئ وراء التلال الرملية وأكياس الإسمنت، نمطر عمال البناء فوق السقالة الخشبية بجاراتنا. يلفتُ انتباهنا عامل يحمل مثقاباً كهربائياً كبيراً. نتحوّل إليه. نفرغ حملتنا باتجاهه مطراً، نردّد قبل أن نطلق سيقاننا للريح: "إن تكن تملك مدفع، فأنا عندي حجارة.. نحن أطفال ولكن، بالوغى نصبح كباراً" أتذكر فهذا يلتقط أنفاسه جالساً على ركبتيه في الحوش بعد مقاومتنا احتلالاً وهمياً، يقول: "ليتنا فلسطينيين يناكفه صادق متفهما دافع أمنيته: "حتى يغني لنا عبدالكريم: يا زمان اشهد لهم.. أطفالنا من مثلهم؟" لا يخفيه فهد يجيب: "يا ليب!" كان يتقرّب من الأولاد في بيت الرّكّات، يهتم بمصادقة سامر وحازم زميلينا في الفصل الدراسي. يردّد ما يشبه أغنية شعبية محرّفة حفظناها من أبي سامح: عبّي لي الجرّة، عبّي لي الجرّة، يمّا يا حنونة، عبّي لي الجرّة، والكويت بعيدة، بعطش بالصحرا.. وفيما نبدي إعجاباً بشخصيتي محظوظة

ومبروكة، كان يذكرنا بمؤلف المسلسل، الفلسطيني طارق عثمان. يحكي لسامر وحازم عن دروس تلقاها من أمي حصّة، وعن صور يرتقال ظلت عالقة في مخيلته منذ حدثته عن زيارتها لفلسطين صغيرة. تُقسم بأنها كانت تخرج يدها من نافذة السيارة، تقطف يرتقالا من شجرة تحاذي الشارع، بصورة لم تألفها قط. ترفع ذراعها عاليا تجمع يرتقالا وهميا في حجرها؛ هكذا هكذا!

كانت مناسبات رياضية وطنية مثالية للمّ الشمل، شمل أفراد البيت على أقل تقدير. في بيت واحد، في وقت واحد، أمام شاشة التلفزيون، كنا مشغولين بنا عربًا. نؤمن بكل ما يجيء بالأغنيات الوطنية. نفرح نغضب أو نبكي. يصدق عبدالكريم بعد وصلة فلسطين: "لبنان العروبة لا للحروب.. دم الأبرياء يغطي الدروب" تبرطم أمي حصّة. لا تصدّق كيف لأبناء وطن واحد أن يشعلوه حربا أهلية. "خبول"، تكرر قولها. لو أنّها، بعد سنوات، شهدت خبالا حل بنا!

في فبراير 1990، تكرر المشهد بتفاصيله في غرفة الجلوس. يوم افتتاح بطولة كأس الخليج العاشرة في الكويت. في وقت، رغم المنافسة، نصبح فيه خليجيين أكثر من أي وقت آخر لا يكفُّ التلفزيون ييث أغنية شهيرة: "خليجنا واحد وشعبنا واحد تصحو الأغنية في مناستين؛ بطولة كأس الخليج وعقد قمة مجلس التعاون الخليجي، ثم تختفي بقية الأيام إلا من تأثيرها في نفوسنا. كانت فوزية، بفضل البطولة الرياضية، قد خرجت من حالة ضيق ألمت بها قبل حوالي شهر من يومنا ذاك، حين توفي إحسان عبدالقدّوس

واعتكفت في غرفتها أياما. أخرجتها البطولة من عزلتها. ألقمتُ جهاز الفيديو شريطا لتسجيل حفل الافتتاح. تجمّع أفراد البيت، بالإضافة إليّ وتينا، لكن من دون صادق الذي كان قد أدرك سن البلوغ مبكرا. نما شاربه سريعا. تغيّر صوته وانتشرت البثور على وجنتيه. طرق باب بيت عمي صالح ذات نهار يحمل أطباق أطمعمة تشتهر بها أمي زينب، الدولة الدسيمة، والدملوج، المحرّم على فوزية، ذلك الذي نتلذذ به كلما نثرتُ فوقه مزيدا من السكر الناعم ومسحوق القرفة. حملت تينا الأطباق. كاد صادق يستأنف سيره إلى الداخل لولا أوقفه عمي صالح مالكا عذره يصرح: "صرب رجل.. ما يصير تدخل عند الحريم كنتُ، قبلا، أنتظر زمنا يخطُ فيه شاربي. أعمد إلى إزالة الزغب الناعم بشفرة الخلاقة بعكس اتجاه نموه. أدعكُ منبت الشارب الحليق بزيت الخروع، لعل الشعر ينمو سريعا خشنا ويصبح مثل شارب هولك هوغان. أرفع ذراعي كل يوم أمام المرآة في الحمّام، أمعن النظر في إبطيّ. أتحمّس عانيتي الملساء أتحرى جيوش الشعر تحتل جسدي. أتوق لعالم سبقني إليه صادق. عالم الكبار السحري. كانت أحلامه الليلية مصدر الإثارة الوحيد. يرويه لنا. نصت إلى تفاصيل التفاصيل، مع ما يضيفه مبالغاً، في حديثٍ عن أحلام تجمعه بنجمات السينما وممثلات التلفزيون ومذيعاته، وما يترتب على تلك الأحلام من آثار يكتشفها كل صباح. صار فهد يسرق كاتالوغات الملابس النسائية من غرفة فوزية، يعيرني إياها، بعدما يفرغ منها. أتصفح قسم الملابس الداخلية أتحمّس الصور، أتخيل ما تخفيه خربشات اللون الأسود من أجزاء محرّمة في

جسد العارضات، أمهد لأحلام ليلية مستعجلا بلوغي. ولكنني،  
كرهت البلوغ منذ مُنع صادق من دخول بيت عمي صالح. تمنيت أن  
أبقى طفلا طيلة حياتي لئلا أُمنع أنا الآخر.

كنا نتابع الحفل، في صمت، أُمي حصّة تمدُّ ساقها مُسندة  
قدميها بجوربيها الصوف إلى المدفأة. خالتي عائشة تقلّب حبات  
الكستناء فوق الدوّة مخلفة رائحة احتراق وفرقة القشور فوق الجمر.  
ترك دُوّتها تتجه نحو تمثال أُمي حصّة تتأكد من ظهورنا جميعا في  
التصوير فهد بفرح مضاعف، وجود مؤيد الحدّاد ضمن تشكيلة  
المنتخب، ومشاركة عبدالكريم في أوبريت الافتتاح. كان غائبا تماما  
مع صوته. فوزية تنظر إلى ساعة الحائط تتحرى بدء استعراض لوحة  
الكويت.

عمي صالح شأن آخر لم أراه قط متهلل الوجه منتشيا كما  
كان تلك الساعة. كيف لا يكون؟ وقد بدأت اللوحة الاستعراضية  
تمجّد صاحب الصورة في ممر بيته. رفع جزء من الجمهور ألواحا  
ملونة شكلت في مجملها شعار الجمهورية العراقية. ارتفع منطادٌ ضخّم  
يحمل صورة للرئيس العراقي تشبه الصورة المؤطرة في الممر القريب.  
انطلق الغناء ثنائيا، بين عبدالكريم عبدالقادر وعبدالله الرويشد، على  
إيقاع الكاسور العراقي:

هلا بسيف العرب.. ينحط على يمناي

هلا بللي حكي التاريخ عن أصله

هلا بللي زرع نخلة

وسقاها من شطّ العرب ماي

لم تعن لي كلمات الأغنية شيئاً عدا، شَطَّ العرب، الكلمة ذات الارتباط الشرطي بأمي زينب التي جاءت من هناك، والتي تذكرنا بما أمي حِصَّة كلما حيَّت صاحبته مناكفة: "هلا بعجوز الشَّط!"، لترد عليها بيبي زينب: "هلا بعجوز النار!" تنتفض أمي حِصَّة دائماً: "الله يجيرنا من النار!" رفع عمي صالح قبضته عالياً، على الطريقة الشهيرة للشيخ فهد الأحمد الذي شارك بكتابة كلمات أغاني الحفل، منتشياً بكلمات الأغنية: "الله الله يا بو عدي" الجامع الراقصة تردّد مرحبة بالمنتخب العراقي: "هلا بهالجاي.. هلا بهالجاي" أجابه فهد تساؤلاً محبطاً: "أبو عدي؟! ولكن عبدالكريم هو من يغني!" لم يحفل بملاحظة ابنه، منصرفاً عنه منصتاً إلى بقية الأغنية:

بغداد.. أنتِ على الدرب الطويل العين والحارس  
يا هدّة الخيل الأصيل.. صدّام إهو الفارس

لم يزل يطوّح قبضته في الهواء يردد قافية الأغنية: "الحارس.. الفارس.."

فوزية، التي بدت ساهمة طيلة الوقف، تنتظر انتهاء استعراض الدول، واحدة تلو الأخرى، تركت الأريكة باتجاه جهاز الفيديو أسفل التلفزيون، تتأكد من استمرار التسجيل قبل بدء استعراض لوحة الكويت في الحتام.

انتهى حفل افتتاح البطولة الرياضية غناءً للكويت: "أنا كويتي أنا.. أنا قول وفعل.. وعزومي قويّة" تُذكرنا بالطائرة المخطوفة:

"أنا عن موقفني؛ تحكي الجارية!" كانت فوزية في قمة سعادتها، وكنا كذلك. أتذكر وسع ابتسامتها، حتى بعد انقضاء الحفل. ارتفع صوت المكنسة الكهربائية تجرُّها تينا. أعدنا، ثلاثنا، فوزية وفهد وأنا، ترتيب غرفة الجلوس. نلتقط قشور المكسرات من السجّاد نعاون تينا ونغني: "أنا كويتي أنا.. أحرصت تينا إزعاج مكنستها، في حين انصرف عمي صالح بصحبة خالتي عائشة إلى غرفتهما مدندنا:

"هلا بهالجاي.. هلا بهالجاي"

\* \* \*

فِي فَمِي جَرَعَتِ الْمَاءَ تَنَمُو

تَزِيدُ

وَعَلَى جَانِبِي لَطَى النَّارِ يَصْرُخُ

هَلْ مِنْ مَزِيدِ

نَحْنُ وَالصَّخْرُ كُنَّا الْوَقُودُ

نَحْنُ وَالصَّخْرُ نَبْقَى الْوَقُودُ

خليفة الوقيان

الفأر الثاني

---

لَطَى





## الفصل الأول

في الأسبوع الأخير من يوليو 1990، سافر والداك لقضاء بقية الصيف في لندن. لم يكن السفر يعني لك شيئاً؛ وحيداً بلا أصدقاء مثل كل سنة، تقضي معظم الوقت في مَلَلٍ بصحبة والديك، وأنس على مشارف رجولة تتحرّأها، تحمل أكياس مشترياتهما مطأطفاً في أسواق أكسفورد. ألححت على أمك حصّة، توسلت إليها، قَبَلت جبينها أن تفعل شيئاً، ولكنها بَتَرَتْ توسلاتك بـ: "لا تدخلني في حرج مع الست الناظرة" وحين انقطع عن زيارة بيت آل بن يعقوب ثلاثة أيام، إضراباً وتعبيراً عن حزنك لتخليها عنك، أرسلتُ لك فهداً يخبرك: "أمي حصّة تقول: الكلب اللي عَصَّك.. طَقَّيناه!"

كانت قد قررت بتر سبب قطيعتك. ابتسمت تدفعه يوضّح. قال إن جدّته سوف تتصل بوالدك. طرت فَرَحاً حين أفلحتُ جارتكم العجوز بإقناعه ببقائك في الكويت. غضبت والديك. رفضت. رفعت سبّابتها إلى السماء توشك تتم قسّمها لولا أن عانقتها تكّمّم فمها بكفك: "لا يمه.. الله يخليك!" كنت محظوظاً، أو ربما لا، حين سكنت عن قسّمها تنظر إلى والدك. حاولتُ أن تثنيه عن قراره.

أجابها بلا حيلة: "العجوز تقول: الولد أمانة عندي" أزمعتُ ترد. أطفأ غضبها: "اعتبرينا في شهر عسل!" تركتك، على مضض، لصالح العسل.

انتقلت إلى بيت آل بن يعقوب بعدما سافر الاثنان من دونك. وبعد قائمة تعهدات طويلة بينك وبين والدتك. كان الحيّ، ليلاً، هادئاً مثل كلِّ صيف، صامتاً إلا من صرير سُوير الليل وأصوات سيارات قلماً تعبر. معظم البيوت بلا أنوار، والسيارات تُلْفها الأغطية القماشية المغيرة أسفل المظلات، أصحابها في سفر. فرحك بوجودك في بيت الجيران استحال ندماً عظيماً، بعد يوم واحد من سفر والديك، عندما قبل عمك صالح استضافة كلب أبي سامي في حوش بيته خلال سفر أصحابه إلى أميركا. رفضت أمك حصّة، في البدء. ضربت صدرها بكفّها: "كلب في بيتي؟!"، معللة؛ وجود الكلب في البيت يطرد الملائكة. حاول إقناعها: شارعنا مظلم بعد خلو البيوت من أهلها. السلوقي ينفع للحراسة، أيام معدودة ويعود إلى مكانه. لم تقتنع. ذكّرها صالح: "أبو سامي جارنا" لم تكن في حاجة لتذكيرها بأن النبي أوصى بسابع جار. قبلت على مضض. ما تحيّلت يوماً يجمعكما مكان واحد وأنت الذي ينتفض كلما شرع السلوقي بالنباح. تقاسمتما الحوش وقت اللّهُو، للكلب، في الزاوية، مساحة تحددها سلسلته المربوطة حول عنقه ليلاً، ولك مساحة تبدأ حدودها من مبنى الملحق المطل على الحوش حيب المطبخ والديوانية، وتنتهي عند قفص الدجاجات القريب من السُدرة. كرهت خوفك. خشيت أن يلحظه الآخرون. أخبار التلفزيون لا تكفُّ بين حين

وأخر تُشير إلى اضطراب كويتي عراقي يتابع عمك صالح تفاصيله باهتمام. كنت، لسبب تحجّل من ذكره، تجلس داخل البيت مع أبي فهد تتظاهر بمتابعة التلفزيون لا تبرح مكانك. أخبار عن زيارة وليّ العهد، الشيخ سعد العبدالله الصباح، إلى المملكة العربية السعودية فيما أطلقت عليه وسائل الإعلام "حوار جدّة" الذي جمع وفديّ الكويت والعراق، في وساطة سعودية، من أجل حلّ المشاكل العالقة بين البلدين. كنت تسأل أبا فهد، لماذا؟ يجب ولا تفهم. يُسقط إجاباته ولا تفهم، يُسقطها أكثر: "الكويت تسرق نفط العراق.. هم يقولون" تستفهمه: "من هم؟" يجيبك: "العراقيون" وعندما تسأله عن رأيه يلوذ بصمته يفتعل انشغاله مع الأخبار في التلفزيون. قبل شهور خمسة من يومكم ذاك، كان العراق قد تقدّم بطلب رسمي بتأجير جزيرتي وربة وبوبيان الكويتيتين. تلك أمور سوف تعرفها عندما تكبر. ما كنت تعي شيئاً مما كان يدور حولك سوى قلق الناس إزاء ما تبثه الأخبار، وأجوبة مبتورة على أسئلتك الكبيرة. الأمر الوحيد الذي تذكره جيداً أن عمك صالح، ذات يوم، قال لوالدك، على رصيفٍ مقابلٍ لمسجد مريم الغانم في السُّرّة: لو كنتُ مكان السُّلطة هنا لوافقتُ على تأجير الجزيرتين للعراق وفوقهما جزيرة مسكان عطية! والدك يرى في جاركم رجلاً مجنوناً مفتوناً بشخصية الرئيس العراقي يؤمن بكل ما يفوه به من ادعاءات، رجلاً متحاملاً على السلطة منذ حلّ البرلمان، باع عقله للمعارضة في تظاهرات دواوين الإثنين. جاركم يرى في والدك رجلاً انتهازياً لا يهّمه إلا المال، تاجر أزمات كما يسميه، استغل أزمة أهيار سوق

المناخ الاقتصادية بشراء الأسهم بأسعار زهيدة، رجلاً ارتضى قرار حل البرلمان حلاً لا يتوافق مع الدستور، وشارك بالتصويت في انتخابات المجلس الوطني، البديل غير الشرعي للبرلمان الكويتي، مبرراً مشاركته بأنها من أجل استقرار البلد ونهوضه من أزمتها الاقتصادية. تذكر والدك، مقابل المسجد، يحاجج عمك صالح، ولا يخفي قلقه إزاء توتر العلاقات بين البلدين وما قد يفرضي إليه مستقبلاً. أشار صراحة إلى موضوع تأجيل النظام العراقي لمسألة ترسيم الحدود رغم ترسيم حدود بلاده، آنذاك، مع المملكة العربية السعودية والمملكة الأردنية الهاشمية. سرحت بعيداً تتخيل رسم الخرائط على الأوراق الشفافة في دروس الجغرافيا. "عندك تفسير؟"، سأل والدك جاركم في حين كنت تنقل نظرك بينهما منصتا وصور الخرائط المدرسية في رأسك، تبدو الكويت بينها صغيرة بالكاد ترى. ارتفع صوت عمك صالح: "العراق ما يتجاوز حدوده! يا أخي كافي إشاعات!" لم يفه والدك بكلمة. استطرد جاركم يذكرّ بزيارة الأمير إلى العراق قبل شهر، من يومكم ذاك، وكيف استقبله رئيس الجمهورية قبل أن يمنحه وسام الرافدين. "أعتقد كلامي واضح!" ختم صالح. تتذكر والدك لا يحير جواباً، يهز رأسه يمضي نحو سيارته ساهماً. تتذكر أسئلة توجهها إليه طيلة طريق عودتكما من المسجد إلى البيت، لا يلتفتُ إليك. سألته لماذا لا يوافقون على ترسيم الحدود؟ تضاعفت المسافة بين عينيه وحاجبيه لا يخفي ابتسامة دهشة: "ترسيم؟ إيش عرّفك بالترسيم يا بو عشر سنين؟! " أزعجك جهله. صحّحت: "إنعش!" لم يرد. انشغل يصغي إلى الإذاعة. كرّرت أسئلتك. نهرت:

"أوووه! إنت ما تشبع أسئلة!" لا تفهم لماذا يُخرس الجميع أسئلتك. لم تفهم والدك ولا جاركم. لم يكن أبو فهد مؤمناً بأن "الرئيس حامي البوابة الشرقية وحسب، بل منذ قام الأمير بحلّ البرلمان وتعطيل الدستور وفرض رقابة مسبقة على الصحف عام 1986 وهو على قناعة بأن الحياة البرلمانية لن تعود إلى الكويت إلا بوساطة عراقية أو بضغط من "الرئيس عدوى الافتتان بالـ"رئيس انتقلت إلى أمك حصّة، لم يكن يعينها من أمر صاحب الصورة في جدار ممر بيتها شيئاً لولا تصرّحه، قبل أربعة شهور من يومكم ذلك، بأنه سوف يجعل النار تأكل نصف إسرائيل. تتذكر سؤالك لها وهي التي تقول إن النار لا تورث إلا رمادا. تحييك منتشية بأن النار "زينة" إذا ما ورّنت رمادا يهوديا. يتدخّل صالح يشرح فروقا بين اليهودي والإسرائيلي. تقاطعه: "كلهم يهود!"

بعد سفر جاركم أبي سامي وعائلته بيومين، أو ربما ثلاثة، انتشرت في الحي إشاعة حول سبب سفرهم، رغم اعتيادكم فراغ بيتهم كل صيف، قيل إن زوجته تلقت اتصالا من سفارة بلدها يحثها على ترك الكويت في أسرع وقت. قيل، أيضا، إن بعض سفارات الدول الأجنبية فعلت بالمثل مع رعاياها في الكويت. عمك صالح لا ينفك يردّد: "إشاعة.. إشاعة" يطمئن نساء بيته مستعيذا تصريحات وزير الخارجية الشيخ صباح الأحمد: "المشكلة الكويتية العراقية.. سحابة صيف" وأنت، إلى جانبه تجلس أمام التلفزيون، لا تنفك تسأل أسئلة لا تناسب "الجهال" كما يقول. يجيبك على مضض، وتساءل. يصمت. تسأل. يرتفع صوته مرة أولى في وجهك: "إنت

وين وهذي السوالف وين؟" يسألك لماذا لا تخرج مع فهد إلى الحوش؟ يغوص رأسك بين كتفيك لا تُحير جوابا. يترك غرفة الجلوس باتجاه الممر المفضي إلى حوش البيت. يعود بعد دقائق، متفهما، وبنبرة هادئة يقول: ربطت السلوقي

\* \* \*

## الفصل الثاني

لأنك كنت أمانة لديها، لم تتركك العجوز لتنام في غرفة فهد، بعيدا عن عينيها. أفسحت لك ركنا صغيرا للنوم في غرفتها. مرتبة إسفنجية على الأرض، أسفل سريرها، فوق سجادة حمراء قانية كثوب فؤادة. تلاصق سريرها طاولة صغيرة، تحمل أدوية القلب والضغط والسكرى وساعة جرس منبهة وكأسا زجاجية يغوص فيها طقم أسنانها. لا شيء يغري صبيًا في مثل سنك للمكوث في غرفة كتلك، وكل ما فيها لا يشبهك؛ قطع سجاد عتيقة، سرير نحاسي ولحاف صوفي بألوان نمر، مشط خشبي ومسحوق جناء وصابون سندر وصابون نابلسي، برطمان غسل، وتين مجفف وثلاثة أكياس تمر؛ برّحي وسّعمران وإخلاص. بسكويت مالخ منتهي الصلاحية وزجاجات تضم أشياء تميز من بينها حبات الهيل والزعفران، كسرات بخور ودهن عود معتق، وأشياء لا تعرفها من أحجار سوداء وأدوات كشط جلد الأقدام المتيسس، روائح نفاذة؛ دهان فكس، ودهان آخر تحمل علبته صورة نمر أحضرته تينا من سريلانكا، وروائح أخرى ثقيلة، محببة، تسكن المكان مثل غيمة. تنام العجوز



باكرا وهذا ما يزعجك. سمحتُ لفهد في اليوم الثاني أن يشاركك فراشك بعد إلحاحكما، مادام السهر ممنوعا. كانت تفصل بينكما بواسطة وسادة طويلة. تستغرب حرصها: "لا تزيجونها!" تسألها مناكفا: "ترسيم حدود؟" تستلقي على سريرها النحاسي: "سيدُّ بوزك وإحمد!" كنتما تكتمان ضحكاتكما بسبب شخيرها كلما ارتفع فور استلقائها على السرير. كنت تلاحظ حركتها في الظلام، تستيقظ بين حين وحين ترفع رأسها عن الوسادة تنظر نحوكما قبل أن تغط في النوم مرة أخرى. لم تفهم الداعي إلى مبالغتها في مراقبتكما على هذا النحو حتى الليلة التالية. استيقظت، في منتصف الليل، على صوتها زاجرا حفيدها: "إحمد يا فهد!" يرتفع شخيره فجأة. تستطرد العجوز تحذره بأنها تستطيع رؤيته حتى في الظلام. تزجره: "حرام!" لا يرد. تحتم تحذيرها تذكره بأن كفه سوف تحبل إذا ما كرر فعلته! منذ تلك الليلة وأنت تنام بلا الوسادة الطويلة الفاصلة، وبلا فهد. نبهك الأمر إليك. تُناوشك أحلامٌ لا تتم. تخشى أن تدس كفك في مكان سيرِّي، تكتشف جدَّة طارئة على جسدك تستعجل بلِّلا، حدِّثكم عنه صادق، يشبه زلال البيض. خشيت أن يفتضح أمرك، يُقبض عليك تمارس اكتشافك، تُطرد من البيت رجلاً بكفِّ حُبلي.

ما عاد شخير العجوز يضحكك. تتقلب فوق مرتبتك الأرضية تحاول اقتناص فرصة نومٍ إذا ما خَفَّ الشخير، بعض دقائق، كلما غيّرت من وضعية نومها. تستعيد كلمات العجوز: "أقدر أشوف في الظلمة". تخالها مشعوذة. تطوف في خيالك صورة الكأس الزجاجية

تصطك بداخلها الأسنان بما يشبه ضحكة كارتونية. يهرب النوم من عينيك ثانية. تعتصر وسادتك. تتأفف. "احمد خمدك الله"، تقول العجوز. تشكو لها مللك وهروب النوم من عينيك. تعدك: "باكر أقول لك قصة" كنت قد حفظت كل قصص جنيات السدرة: "أعرفها" أخفضت صوتها تضيء على حديثها شيئاً من غموض: "باكر أسولف لك عن الفيران الأربعة" خوفك من الفئران لا يردع فضولك: "ليش باكر! ليش مو ألحين؟" تقول إنها حكاية طويلة. تنهض جالسا على ريلتي ساقيك، تنظر نحوها في الظلام تسأل عن الفئران الأربعة: ما أسماؤها؟ تنقلب على جانبها. تجيبك: فأر اسمه جمر تستدرجها تُكمل: والآخر؟ تتأفف وهي تُسميه: رماد. ينفد صبرك: بقي فأران. يرتفع شخيره ناعما. تخمن أنت الاسمين. لعلهما ميكي ماوس وجيري. تطرد الفكرة. تحاول أن تنام. تحصي خرافا في مخيلتك. لا فائدة. تحصي فئراناً. يطير النوم من عينيك. يضطرب النور المتسلل في الشق الأفقي أسفل باب غرفتها، يلفت انتباهك، ينهك إلى مرور أحدهم. "أمي حصّة!" تنبهها. تجيب بصوت بالكاد يخرج من حنجرتها: "هممم — يرتجف صوتك:

"في أحد يمشي ورا الباب!"

تنقلب على جانبها بين سريره إثر حركتها:

"انت حلمان"

تمعن النظر الظل يراقص النور أسفل الباب لا يزال. تؤكد:

"والله في أحد ورا الباب!"

تطمئنك:

"سلوقي زوج الأمريكية ما يخلّي الحرامية تقرب من باب الحوش. نام يا حوآف"

"في ظلّ تحت الباب؟ شوفي شوفي!"

تطلق زفرة نفاذ صبر:

"هذه فوزية جايّه تذكّرني بموعد الدوا"

ولأن فوزية لم تنطق وراء الباب. تصرّ أنت: "لأ مو فوزية" تترك مرتبتك متجهها إلى مكبس الضوء. تنتفض العجوز رافعة لحافها إلى منتصف وجهها: "يا ويلك! ارجع لفراشك!" تديرها تتحاشى النور كيلا ترى وجهها من دون طقم أسنانها، وهي التي ما انفكت تردّد بحروف تشبه الحروف: "ما تشوفني بلا ضروس إلا على موتي!" تجلس فوق مرتبتك مثنيا ساقيك تحتك، تراقب اضطراب النور أسفل الباب. تؤكد أن من وراءه ليس لصاً ولا فوزية!

تتأفف العجوز:

"يمكن الفيران!"

تتكور وراء لحافك. تغرق في بحر من عرق. تلعن اليوم الذي طلبت فيه وساطتها لدى والدك لتبقيك في الكويت. تلتقط أطراف

النوم. تخرج ساقا من لحافك، تحرك أصابع قدمك المتعرقّة، تباعد بينها، يلامسها هواء الكنديشة. تتذكر الفئران. تخفي ساقك داخل اللحاف مرة أخرى. ينفجر صوت فؤادة متضخما في رأسك: "آتية.. آتية..". يخفى صوتها ما إن ينطق فهد، وراء الباب، بصوت أعلى من الهمس قليلا: "صلاة الفجر

تتحلقون حول سفرة الطعام الأرضية بعد أوبتكم من المسجد، عمك صالح وفهد وأنت. تدخل أمك حصّة تحمل إبريق الحليب، تتبعها خالتك عائشة بصينية الطعام. خادمتكم السيريلانكية لا تصحو فجرا: "لأنها ما تصلي مثلنا..!", تردّ العجوز على كتنها. سألتها قبل سنوات، تينا وفلورنس مسيحيان.. "ليش تحيين هذي وتكرهين هذيك؟!". إجابتها جاءتك جاهزة: تينا خادمة، وفلورنس زوجة مسلم، لا يخاف الله! ماذا لو اعتنق أبناؤه دين أمهم! ختمت: "مصيبة تصيب الظالم! أسئلتك دمهتا ثقيل!"

نور يسبق الشروق لوّن نوافذ غرفة الجلوس بزُرقة رمادية. عبق مكانكم بروائح خبز وبقلاء ونحّي وحليب مُهيّل. رن جرس الهاتف. "يا الله خير" قالت العجوز، قبل جلوسها، متوجسة من رنينه فجرا. قفز فهد يحمل السماعة. التفتت إليه أمّه بوجه باهت: "أنا قلبي قارصني.. ما ورا هالتليفون إلا مصيبة" تنهرا أمك حصّة: "قال الله ولا فالك بالساحرة" يعيد عمك صالح، إلى الآتية، حبة باقلاء كان قد التقطها لتوه. ينظر كلكم إلى فهد باهتمام. يرد التحية. يهز رأسه. يمدّ يده بسماعة الهاتف إلى أمّه: "يُمّه.. خالي يسأل عنك" تلتقط أمّه السماعة. يضطرب حاجباها. ترتعش شفتاها قبل أن تعيد

السَّمَاعَة تقول: "مصيبة!" أردفت: "الكويت راحت!" لم تفهم كيف تروح الكويت، وإلى أين؟ قالت عائشة: "الجيش العراقي.. عيناها على عمّك صالح تحديدا. تكمل خيرا تلقته للتوّ. دخل الكويت!" دخول.. هي أقصى كلمة تصف الحدث يومكم ذاك، لعلكم تستوعبون، قبل أن تمر أيام تتغيّر فيها المفردة، تكبر وتشكّل بقدر ما تسمح به قدرتك على الاستيعاب تدريجيا لهضم الحقيقة. دخولهم صار أزمة، الأزمة صارت غزوا واحتلالا أمّك حصّة تهذي بشيء، غير مصدّقة فعلة الرئيس العراقي: "الحي يقبل" تسارع إلى دوائها. تساءل: "وين اللي يبّي يحرق إسرائيل؟! لا تذكر شيئا مما تقوله خالتك عائشة، ولا النظرات المذعورة المستفهمة لكل من حولك، لا تذكر شيئا عدا عمّك صالح يصيح في زوجته: "إشاعات.. إشاعات" وددت لو تجري إلى فوزية المعتكفة في غرفتها مفعوجة بقرار اتخذه شقيقها بعد تخرجها في الثانوية قبل أسابيع: "لا دراسة في الجامعة!" تصيح بها: "الجيش العراقي.. دخل الكويت!" تنظر إلى عمّك صالح تدفعك كلمة دخل، تستعيده مترنما قبل شهور سيّئة: "هلا بهالجاي.. هلا بهالجاي!" تنظر إلى زوجته تسأل نفسك كيف تنبأت بأن الهاتف يحمل مصيبة!

لم تلبث الأخبار، التي أرادها أبو فهد إشاعات، أن تصير بعد شروق الشمس حقيقة. إذاعة بغداد تصدر البيانات، واحدا تلو الآخر، أخبار، زغاريد، تصريحات حول تحرير الكويت. تحريرها ممن؟ تتساءلون. صوت المذيع يوسف مصطفى، منفعلا على غير عادته، في إذاعة الكويت قبل انقطاع بثها، يناشد العالم: "هنا الكويت.. أيها

المواطنون الكويتيون الأحرار، أيها العرب في كل مكان، لقد كسّر الغدر عن نابه، وكشف الطغيان عن مخالبه.. تمر الساعات طويلة. رنين الهاتف لا يتوقف. والدتك تتصل من الخارج منهاراً. تلفظ كلمات بالكاد تعيد ترتيبها: أخبار الـ BBC.. العراق الكويت حرب.. سيأتي خالك حسن يأخذك معه إلى الفيحاء.. وعليك أن تبقى معه في بيته "فهمت؟! عمك صالح أمام شاشة التلفزيون كالصنم لا يتحرك فيه شيء عدا جفنيه يرمشان. المشهد أمامكم على الشاشة أسفل أبراج الكويت الثلاثة، رجال بدشاديش كويتية ووجوه غير، يهتفون ويرددون هوساً عراقية، تماماً مثلما كنتم تفعلون أمام كاميرا الـ HITACHI، يرحبون بجنودٍ أشاوس هبوا لنصرة الثوار المطالبين بتحريرهم من قارون الكويت والطغمة الغاشمة، وعلى الشاشة كلمات بالخط الأصفر "الثوار الكويتيون يرحبون بجنود العراق الأماجد" أنت لا تفهم شيئاً. أنت تشعر وحسب. تشعر بشيء لا تدريه. أسئلتك التي غص بها رأسك ماتت على شفتيك. لست قادراً على الاعتكاف في غرفة مثل فوزية، أو الصلاة والدعاء مع أمك حصّة، أو الرد على الهاتف كما يفعل فهد، أو أن تبقى صلباً بلا تعبير مثل خالتك عائشة. أو أن تغمض عينيك هذبي مثل تينا تستعيد صور دماء سفكت في اشتباكات نمر التاميل مع الحكومة السنهالية في سريلانكا. مثل عمك صالح تماماً كنت. ساهم هو يتابع شاشة التلفزيون. ساهم أنت تتابع الوجوه من حولك. أصوات مروحيات في سمائكم. ثمّنون أنفسكم لو أهما كويتية ولكنها ليست. شيء من طمأنينة أحاطتكم بعد تلقيكم أخباراً شبه مؤكدة:

غادر الأمير وولي العهد قصر دَسْمَان. وصلا إلى السعودية. ذاكرتك الصغيرة استدعت أحلام فوزية الكبيرة؛ التخرج في الجامعة، مصافحة أمير البلاد. ماذا لو طال أمد بقائهم وامتد؟ ماذا لو أن الأمير..؟ تهز رأسك طاردا الفكرة. ما كدتم تتنفسون الصعداء إزاء وصول رأس السلطة إلى السعودية حتى هاتفكم ليلا من يؤكد: "استشهاد الشيخ فهد الأحمد أمام بوابة قصر دَسْمَان" تضاربت الأقوال حول كيفية مقتله. المؤكد أنه ما عليم بخروج أخيه الأمير. اتجه إلى قصر الإمارة دَسْمَان. اشتبك مع أفراد من الحرس الجمهوري العراقي مقابل البوابة قبل أن يخز صريعا بثلاث طلقات. انفجرت أمك حصّة تكيه. تضربُ فخذيها حسرةً: "راح الرجل!" بكته عائشة. بكته فوزية. كنت تستدعيه في آخر مرة شاهدته فيها عبر التلفزيون يوم بطولة الصداقة والسلام. تتردّد داخل رأسك أغنية افتتاح البطولة: "هنا هنا هنا.. الملتقى هنا.. إخوة مسلمون.. التّمّ شملنا!" غص رأسك بالأسئلة. الوهن الذي أحاطكما أنت وفهد دفعكما إلى النظر نحو عمّك صالح تستمدان منه شيئا من قوّة، ولكنه مرّر إيمامه أسفل عينين فضحهما احمرارهما يتظاهر بعكس حاله. هزّ رأسه إزاء الخبر خانه صوته. بما يشبه الرجاء: ممكن.. ممكن إشاعة.

\* \* \*

### الفصل الثالث

وطنك الذي تعرفه باسمه: الكويت، استحال خلال أيام إلى المحافظة التاسعة عشرة من محافظات العراق العظيم. صفتك مواطناً كويتياً ما عادت. كما يزعم التلفزيون والمذيع، أنت منذ انقضاء الأسبوع الأول للاحتلال مواطن عراقي من سكان محافظة النداء السليبية. محافظة اقتطعها الاستعمار ظلماً، عادت، بفضل الله وعزم جنود المجد والسؤدد، إلى حضن الوطن الأكبر. "الله أكبر"؛ تلفظها أمك حِصّة أمام ادعاءات مذياعها. حالكم كان ثورة، كما صوّرها إعلام النظام العراقي في الأيام الأولى، مستفيداً من تظاهرات دواوين الإثنيين المناهضة لقرار حلّ برلمانكم. استنجد أصحاب الثورة بالجمهورية العراقية الشقيقة. الثورة صارت، خلال أقل من أسبوع، جمهورية الكويت الفتية يرأس حكومتها مواطن كويتي أظهرته شاشات التلفزيون يرتدي بشتاً يصفح "الرئيس أمك حِصّة، أمام الشاشة، تسند كفيها إلى رأسها: "يا الله غربله!" مع انقضاء الأسبوع الأول أعلن ثوار مزعمون انضمام جمهوريتهم الفتية إلى الجمهورية الأم!



عمّك صالح، مساء اليوم الأول، الخميس، الثاني من أغسطس 1990، خرج من عزلة ساعات قضاها في غرفته، يمتّني نفسه: أيام وتعود الأمور إلى نصابها. ليس غريبا أنك لم تفهم شيئا مما حدث. صالح نفسه لا يفهم شيئا. يوم ثانٍ للاحتلال، قطع النظام الجديد الاتصالات الدولية مبقيا عليها محلية. يومٌ ثالث ترفض تينا عرض أمك حصّة لاصطحابها إلى سفارة سريلانكا مفضلة البقاء إلى جانب "ماما كبير كما تسميها. "بنت حلال.. أحسن من غيرها"، تقول العجوز عن تينا، تتحلطم بينها وبين نفسها: "من ترك داره قلّ مقداره" تهكّم على من سارع بالخروج من الكويت: "دجاج! يأخذك كلامها إلى وقت مضى. كلامها قبل سنتين أسفل السدرة؛ دجاجات تتخلى عن بيضها المكسور لفتران لا تجرؤ على الاقتراب من القفص لولا صفار البيضة المكسورة والزلال المسكوب. يوم رابع، هاتفك خالك حسن يخبرك بأنه يرتب أموره لإيصال أسرته إلى المملكة العربية السعودية برّا. بصفتك ابن شقيقته وبصفته خالك هو مسؤول عنك. قال أمرا: "جهّز جنطة خفيفة.. باكر الفجر اعتصرك حزن مبالغ وأنت الذي كرهت بقاءك في بيت آل بن يعقوب، كيف لك أن تترك السُرّة؟ ماذا لو استعصت العودة؟ اكتفى فهد بسؤال حائر غلفه حزن: "تركتنا؟" غمزت له تدعوه لأن يتبعك إلى بيتك. لا سلطة لأمك حصّة في أمر كهذا. لا وساطات في ظرف استثنائي. حسمت أمرك. ذهبت وفهد إلى بيتكم. يبدو كئيبا مثل أي وقت. انحنيت أمام غرفة والديك. سألك فهد: "ليش؟" أجبته: "المفتاح!" أزحت طرفا من قطعة سجّاد أسفل الباب.

التقطت سلسلة مفاتيح. نظرَ إليك فهد لا يسأل ما شأن غرفتهما بتجهيز حقيبة سفرِكَ! كان يدندن بصوت خفيض يداري حزنه. شأنه كلما أراد أن يبدو في حال غير حاله: "المفتاح عند الحدّاد" كنت تجرّب مفتاحا تلو آخر. فتحتَ باب الغرفة. التفتتُ إلى صاحبك: "المفتاح عندي" قفزَ على كلمات الأغنية منهيًا: "المطر عند الله" فتشت في الأدراج. عثرت على جواز السفر بين شهادات أسهم وكمبيالات والدك. نظرتَ إلى فهد تسأله أين تخفيه؟ ابتسامته الواسعة سبقت اقتراحه. فور عودتكما، ألقى فهد بجسده النحيل، أسفل السّدرَة، مثل قِطٍّ يتبرّز، يحفر بعمق شرين. كنت مرتبكا أمام السلوقي المستنقز في زاويته يرتفع نباحه. دس فهد كيسا بلاستيكيًا يحمل جواز سفرِكَ. ردم الحفرة بقدميه. ضرب كفيه ببعضهما بعد إنجاز مهمّته. هزّ مؤخرته للكلب الغاضب: "مياااو!" ضحكتما كثيرا، رغم قلقكما، لا تفقهان مدى خطورة ما يجري. دلفتما المر إلى غرفة الجلوس. لكزتَ فهدًا تشير بدقنك إلى الجدار الخالي إلا من نباتات متسلقة تحيط مربّعا فارغا بين مزهريّتي ريش الطاووس: "راح الرّيس!"، قلت له. أضاف: "ورق الجرايد خالك، الذي جاء بصحبة ابنه ضاري، فتّش كل مكان في بيتكم. قرّر السفر من دونك. أحاطك بين ذراعيه يعتصرِكَ. لحيته الكنّة تلامس خدّك:" "أوصل الأهل وأرجع الكويت" كنت تبادل النظر مع فهد تكتّم ابتساما. غادر خالك موصيا جارتكم العجوز بالعناية بك إلى حين عودته. ركضتما، أنت وفهد، إلى أسفل السّدرَة تستخرجان جواز السفر. اختلفتما على مكان دفنه. لم تعثرا على شيء. رفعت رأسك

تنظر إلى الأغصان، تضربُ كفيك ببعضهما: "سكنهم مساكنهم  
آمنت بأن جنّيات السُدرة صادرت جواز سفرك. يوم خامس علمت  
بعودة الخال إلى بيته، بصحبة أسرة كويتية، بعد مصادرة سيارته  
الـثـان عند منفذ النويصيب الحدودي. دَعَاكَ. رفضت. تركك  
وشأنك في رعاية العجوز على أن يزورك بين يوم وآخر. أحوال فهد  
يعزمون على الخروج من الكويت، يتصلون بشقيقتهم: "عايشة!  
تعال معانا السعودية" رفض صالح؛ لا خروج! انتشت أمك حصّة  
لجوابه. استفهمته زوجته. أجاب بأن الحدود غير آمنة. صفت  
العجوز الهواء أمام وجهها تمطُّ شفتيها محبطة. يومٌ سادس، الأحداث  
من حولكما لا تزال في طور الأزمة. التصقت بأمك حصّة. كانت  
تحمل مذياعها الترانزستور. بيانات القيادات العراقية لا تزال. أخبارٌ  
تشير إلى نية انسحاب بعد استتباب الأمن وتسليم زمام السلطة إلى،  
من أسموهم، ثوارا كويتيين. هزّت العجوز رأسها بلا يقين: يفوتك  
من الكذاب صدقٌ كثير! يومٌ سابع.. يتصرف صالح وفق ما يرده من  
مكالمات الهاتف؛ جنود الاحتلال يفتحون البيوت لا يتورعون عن  
دخول غرف النوم بحثا عن ممنوعات أو مطلوبين. على إثر الخير يوجه  
كلامه إلى عائشة وفوزية. يقرر رجل البيت أن تبقى النساء بالحجاب  
والدرّاعة حتى في وقت النوم. لا يخفي قلقه: "أحاف على الحرم  
يُمّة" تتذكرهما، زوجته وشقيقته، حتى وقت دخول كل منهما  
غرفتها ليلا، ترتديان الدرّاعة المنزلية واسعة طويلة الأكمام. عائشة  
بالحجاب طيلة الوقت. فوزية تكتفي تعقص شعرها وراء رأسها. لا  
عطرٌ ولا زينة ولا أي شيء. تتذكر أمك حصّة مهمومة: من أراد

أن.. تبتّر جمليتها. تستطرد متجاوزة كلمة محظورة: لن يرُدّه ثوب طويل أو حجاب! يومٌ تامن، دفعك جرس الباب للخروج صحبة فهد. كنتما أمام شاب كويتي مرتبك. بدا في أول الثلاثين بشارب كَثُّ ولحية قصيرة سوداء داكنة، اعتمر غترة مهترئة. وجهه مألوف، لعله من سُكَّان المنطقة. مدَّ يده إلى فهد يناوله كيسا بلاستيكيًا يحمل شعار السوق المركزي لجمعية السُرَّة التعاونية. "شنو هذا؟"، سأله فهد. أجابه الشاب باسمًا: خبز خبز وجبن كيلا تضطروا للخروج. استدار الشاب قبل أن يسأله فهد: "منهو انت؟" أجابه ماضيا في السير نحو سيارته: "جاسم فتح صندوق السيارة يحمل كيسا آخر يمضي نحو بيتكم. التفت إليكما مستطردا: جاسم المطوع" كسب زر الجرس. نهته إلى خلو بيتكم من أصحابه: "سافروا" مسح بنظراته البيت يتفحصه قبل أن يمضي نحو بيت عمك عباس. عدتما إلى الداخل. وبحكما صالح. لا تأخذا شيئا من غريب! أكد له فهد: "مو غريب!" قال إن وجهه مألوف، شاهده في السوق المركزي ربما، أو في المسجد أو في ساحات كرة القدم الترابية. فوزية تستل منشورا ورقيا بين أرغفة الخبز. تُناوله أخيها بعد قراءته. تسأله متحمسة: "نروح؟! يقرأ عمك صالح المنشور الداعي إلى التظاهر في إحدى المناطق. يصرخ بفوزية موجَّها سبَّابته إلى السُّلم: "غرفتك!" تجري إلى غرفتها باكية في حين يطوي الورقة في كفه يهرع إلى المبخر يشعل فيها النار: "جَهَّال"، قال عنهم، لا يعرفون فداحة ما يقدمون عليه! التفت إلى أمِّه بعدما أحال الورقة رمادا: "مو من صالحنا نتحرَّش فيهم أمك حصَّة، رغم انشغالها مقرِّفة خلف آلة

خياطتها على الأرض، في حجرها علبة حلوى ماكنتوش ملأها  
 بكراتٍ وإبرٍ ومشابكٍ ودبابيس، تخطط فتقا في ثوب صلاحها، تفتعل  
 ابتسامة تعني بها شيئاً ما. احمرَّ وجه ابنها. ذكرها، كمن يبزر، بمقتل  
 مصورٍ شابٍ في تظاهرة الرميثة قبل يوم. أوقفت العجوز دوران آلة  
 الخياطة. قالت من دون أن تنظر إليه: "الحافظ الله" بدا عمك صالح  
 بغضب يشوبه شيء من حجل. مضى إلى السلم ينوي مصالحة  
 فوزية. هو على يقين بأنها لن تفتح له باب غرفتها. التفت إليك:  
 "تعال ويأي" عند غرفتها في الطابق العلوي همس لك أمراً: "طبق  
 الباب" أوشكت أن تطرق بابها لولا أمسك صالح بيدك. قرَّب أذنه  
 إلى الباب ينصت. كانت فوزية ترتل القرآن بحس شفيف يلامس  
 القلب. تنهَّد صالح بوجه باسم. يقول إن شقيقته تتلو القرآن على  
 طريقة الشيخ بن عبيدان إمام مسجدهم القديم في كيفان. طرق  
 الباب. سكتت عن الترتيل. لم ترد. دفعك تناديهما: "فوزية!" لم ترد.  
 ألصقت شفتيك في الزاوية بين الباب وإطاره: "عمّي فوزية..  
 افتحي فتحت بابها. نظرت إليك بملامح امتعاض إثر خديعتك.  
 دخل عمك صالح بوجه مسالم. كدت تتبعه لولا ألصق كفه على  
 صدرك: "خلاص.. روح إنت!" أطبق الباب. ما أوشكت على قطع  
 منتصف درجات السلم نزولاً حتى انطلقت صرخاته في الأعلى.  
 تركت أمك حصّة آلة خياطتها همّ بالصعود. عند أول درجات  
 السلم كانت، تستند إلى الدرابزين. ظهر ابنها آخر السلم في الأعلى  
 يحمل أوراقاً مطوية: "هذي البنت مجنونة!" لم تنطق العجوز.  
 أستطرد: "تعلّق أعلام الكويت وصور الأمير وولي العهد على

خزائنها!" عبث في أدراج خزانة التلفزيون في غرفة الجلوس قبل أن يعثر على أعواد ثقاب أخذها معه إلى الحوش.

يومٌ تاسع، ليس عدا إذاعيّ لندن ومونت كارلو مصدر أخبار موثوقة مع سيطرة قوّات الاحتلال على التلفزيون. لا يتقرب أفراد البيت شيئاً كترقبهم مواقف الدول العربية، أثناء القمّة الطارئة في القاهرة، يجلسون أنفاسهم بانتظار إدانةٍ ووقوفٍ إلى الجانب الكويتي. بين امتنان وخذلان كانت حالكم. دولٌ مع. دولٌ ضد. دولٌ بين بين.

زاركم، صبيحة اليوم التالي، الشقيقان أبو طه وأبو نائل. نادى فهدٌ أباه: "ييه! الزّلمات يسألون عنك" نظر الرجل إلى ابنه مستفهماً؟ أوضح فهد بأنهم الفلسطينيين أصحاب البيت في آخر الشارع. ارتبك صالح يسأل ماذا يريدون. مطّ فهد شفّتيه رافعا كتفيه: "ما أدري" تبعتماه إلى باب الحوش حيث التقى الزائرين. بدا وجلا.

"خير؟"، سألهما.

أجاب أبو نائل بما يشبه عبثاً:

"هون؟! بصيرش غالباب نحكي يا زلمة؟!"

لم يجبه صالح. تدخل أبو طه:

"مش مشكلة، معك حق، بس احنا اجينا عشان نقول..

مرّينا عَـ بيوت الحي..

قاطعهُ أبو فهد:

"مو شغلي بيوت الجيران.. خير؟"

توقفت سيارة قريبا من رصيفكم. تعرّف فهد إلى سائقها. أحرر

أباه:

"ييه.. هذا حاسم المطوّع"

ارتبك صالح من قدوم صاحب الخبز والجبن وال.. منشورات.

تجاهل تنبيه ولده. التفت إلى أبي طه:

"شنو بعد؟ خلصنا.. بسرعة!"

هزّ أبو طه رأسه متفهما:

"إحنا ما خصناش بلي بتسمعوه بالأخبار.. إن عارف

من إمتا إحنا ساكنين هون.. واللي يجري عليكم يجري

علينا..

قاطعهُ مرة ثانية:

"ما أعرف شي.. خير؟"

تدخل أبو نائل:

- "طيب.. خلّص فهمنا..

أشار إلى أخيه وهو يهم بالانصراف:

"يلاً نروح.."

أمسك أبو طه ذراع أخيه: "استنى!" نظر إلى أبي فهد:

"ما حداش من الجيران مانع نكون موجودين هون.."

وولادنا، زَيّ ولادكم، ما بيعرفوا مكان غير.. أصلاً

بيموتو لو..

قاطعته مرةً أخيرة:

"مو شغلي!"

استدار عائداً. أطبق الباب الحديدي الأسود. فتحه ثانية تلبية

لرنين الجرس. كان جاسم المطوّع يحمل كيس خبز سارع عمك

صالح قبل أن ينس الشاب بكلمة:

"مَحْنَا بحاجة لأغراضك!"

مدّ جاسم كيسه البلاستيكي إلى أبي فهد يخبره بأن لكم، بين

أرغفة الخبز، مبلغاً من المال ورَدّ من الحكومة في الخارج.

\*\*\*





## الفصل الرابع

تكاثر الذباب في أحيائكم إثر تكدُّس أكياس القمامة على الأرصفة أمام مساكنكم. تسلل إلى البيوت. ذباب كبير لزج بزُرقة لامعة يُسمع طنينه عن بعد. ذبابٌ فجَّ لا يفهم لغة أمك حِصَّة "كِشْ" كِشْ تزايدت قطط الشوارع رغم غياب رائحة سمك في مطبخ تينا. استأنستم صغار القطط بدلا من طردها. الروائح الكريهة باتت جزءا من المكان. تنتظرون المتطوعين من شباب المنطقة لإزالتها وإحراقها بعيدا عن أحيائكم بعد هرب عمال التنظيف الأجانب من البلاد. لم تعد المياه الوفرة التي كانت. تنقطع في فترات متفرقة. اقتصدتم في الشرب والغسيل. كنتم تنظفون أجسادكم بمناشف مبلولة بالماء الساخن بين يوم وآخر. تناكفون بعضكم، أنت وصادق وفهد، كلٌ يسخر من رائحة الآخر. اسودَّت رقابكم وركبكم، تنث أجسادكم رائحة حامضة. "حِسنا وخاست الديرة!"، تعلَّق أمك حِصَّة، ضاغطة أنفها بين إصبعيها، كلما مر واحدكم بالقرب منها. وإذا ما تدفقت المياه في الحُمَّام سخيةً، نادتكم تنزعون ملابسكم مكتفين بسرويلكم الداخلية، تدعك أجسادكم، بالصابونة الحمراء

أو الصابون النابلسي، متأففة وهي تنظر إلى المياه السوداء تسيل من أجسادكم على بلاط الحمام الأبيض: "نزل منكم نطف يا عيال!" كانت قد ملأت قدور الطبخ الكبيرة وأحواض الاستحمام ماء للشرب تحسباً لانقطاعه فترات طويلة. لم تبدِ العجوز قلقاً من انقطاع الماء، بين وقت وآخر، إلا في ما يخص إخلاصة وسعمرانة وبرحيّة، بنات كيفان الثلاث: "خوفي النخل يعطش ما كنت تفهم كيف توزّع مزاجها على هذا النحو إيمان وصلابة نحو وطن محتل، وقلق دائم من عطش النخيل.

ما عادت الفئران تجوم حول قفص الدجاجات أسفل السدرة وحسب؛ تسللت إلى البيوت. كنت تشمُّ رائحة ترابية حامضة، لا تعرف مصدرها، إذا ما استلقيت على أرائك غرفة الجلوس. ورغم أنك لم تشاهد فأراً داخل البيت قط، فإن أمك حصّة تؤكّد، كلما أزاحت مساند الأرائك كاشفة عن فضلات بنية داكنة تقارب حبات الرزّ حجماً، تقول إنها الفئران، ليس ضرورياً أن تراها لكي تعرف أنها بيننا. تذكر وعدّها، تذكرها: "متى تقولين لي قصة الفيران الأربعة؟" تفتعل انشغالا بتنظيف المكان. تجيب: "في الليل يأتي الليل، مثل كلّ ليل. تنزع طقم أسنانها. تتحدث في ظلام غرفتها. تُمهّد للقصة: "زور ابن الزرور، اللي عمره ما كذب ولا حلف زور.. ثم يسبق شخيره الحكاية.

طبيعة ما ألفتموها قبلاً قرّبتكم إليكم. رنين جرس الباب يتواصل. عديد من الشباب المتطوعين في السوق المركزي لجمعية السُرّة يطوفون البيوت يسألون عن حاجات الأهالي، يقدمون خبزاً،

حليب أطفال، حفاظات، وكل ما من شأنه أن يقلل دواعي خروج الأهالي. يسأل فهد: "كل يوم خبز خبز! ما في سمك؟" تلومه جدته: "لا يا بطران!" تتحسّر على الحال كيف صارت والأسلاك الشائكة والخنادق تحاذي بحر الخليج على امتداد الساحل الكويتي. تمدّ كفها تشير ناحية بيت الجار. تتحدّث عن قارب عبّاس الذي لم يبرح مكانه منذ مصيبتكم.

ذات نهار، كنت وفهد أسفل السُدرة تنثران حبوبا تستدرجان الحمام والزراريز "تَع تَع" الطيور لا تقترب. لا تدري لماذا تطمئن الحمامات لأمك حصّة ولا تطمئن لكما. يبرر فهد: "صوت أمي حصّة غير رن جرس الباب. تراكضتا إليه. سيارة جمع النفايات الضخمة يقودها رجلٌ ملثمٌ بغترته، نظاراته سوداء. يقف بالقرب من بابكم شاب أسمر آخر، يبدو في منتصف أو أواخر العشرين، يلفّ غترته حول رأسه بإهمال. "عندكم زبالة؟" جرى فهد إلى السداخل يسأل تينا أن تخرج ما لديها من قمامة، في حين بقيت مع الشاب في الخارج. كان ينظر إلى بيتك. يمضي نحوه، يقف بين السيارات المكسوّة بالقماش، يتفحص البيت كمن ينوي شراءه. عيناه سوداوان واسعتان بشكل ملفت تحالُ نظراتها تخترق ما تقع عليه. له شارب دقيق أسود وحاجبان مرسومان بعناية. عاد فهد تتبعه تينا يجملان أكياس القمامة. "منهو إللي يطق الجرس؟"، ارتفع صوت صالح خارجا من الديوانية في ملحق البيت. "سيارة الزبالة.. عمي تقدّم صالح نحو الشاب. تعرّف إليه: "عبداللطيف؟!" صافحه يُحييه: "قواكم الله". ألقت تينا وفهد أكياس القمامة في مؤخرة السيارة، في

حين سأل أبو فهد: "ما عدنا نشوفك في مسجد الغمام!" يبدو الشاب في عجلة من أمره: "أصلي في مسجد الربيعان" كان ينظر إلى بيتك وهو يجيب. نَبَّه أبو فهد: لا زبالة لسيديهم.. محظوظون تركوا البلاد قبل.. التفت حوله، أخفض صوته: قبل دخول الجماعة! هزَّ الشاب رأسه بنظرات تخرق البيت الفارغ من أهله. قفز إلى مؤخرة سيارة النفايات بتشبُّث بمقبض حديدي قبل أن يدير الرجل المثلَّم محركها ماضياً إلى البيوت المجاورة يستأنف عمله. سأل فهد: "تعرفه ييه؟" أوماً صالح: "عبداللطيف.. ولد عبدالله المنير

أسبوع ثالث.. إذاعتكم الكويتية، بأصوات عراقية، تهيب بمواطني المحافظة التاسعة عشرة إلى مزاولة أعمالهم والعودة إلى وظائفهم في الوزارات والمؤسسات: "ومن يتخلف يُعرِّض نفسه لمساءلة القانون"

كنتم في غرفة الجلوس، مضى شهرٌ على الثاني من أغسطس، عمك صالح عاد لتوّه، بوجهٍ محبط، من السوق المركزي لجمعية السُرَّة التعاونية. يصف الذعر في وجوه تنحري خيراً أكيدا بين مئات الإشاعات. قيل؛ جماعات من الجالية الفلسطينية تنضم إلى صفوف الجيش الشعبي العراقي. تُنبَّه أمك حصّة إلى ما بدأ به القول: قيل. لم يبال صالح بردّ أمه، راح، إزاء تجهُّم العجوز، يصف ما رآه في جمعية السُرَّة، عربات السوق تغص بالمواد الغذائية، كأن أصحابها عزموا على الاعتكاف في بيوتهم سنوات؛ معلّبات، أكياس رز، خبز، سكر، قناني مياه معدنية. ملصقات على بوابة السوق الكهربائية تحت سكّان المحافظة على ضرورة استبدال لوحات السيّارات. وجوب

القيادة باللوحات الجديدة العراق-كويت، وإلا حُرِمَ أصحاب السيارات من التزوّد بالوقود. التلفزيون يحدّد مهلة أخيرة لاستبدال اللوحات، 26 سبتمبر. قيل إن من يتخلّف تُصادر سيارته إن كان محظوظا، إن لم يكن.. يُصادر هُوَ. تمرُّ ساعات. عمك صالح لا يني، بين حين وآخر، يقف على رصيف بيته يتحقّق من سيارات الجيران، يتفحص لوحاتها، إن بادر أحدهم واستبدل لوحته لربما أزال عنه بعض الحرج: "لستُ أول من يفعل"، ولكن اللوحات كويتية لا تزال. القلق الذي طوّق أبا فهد انتقل إليك. لأنك لا تفهم الكثير، ولأن أسئلتك مزعجة، تستجد بأعين الكبار مؤشراً لما ينبغي أن تكون عليه حالك. وأعينهم لا تحمل سوى ترقب لآتٍ مجهول. الغريب أنك لم تفتقد والديك. ما افتقدته هو الطمأنينة في بيت آل بن يعقوب والحرية التي اعتدتها فيه. لعل ما استثار حنينك إلى والدتك، يوم صاحت بك العجوز: "تعالِ اسمع"، هو صوتها في برنامج "نداءات كويتية" تبثه إذاعة المملكة العربية السعودية حيث أقامت هي ووالدك، برنامج يصل كويتيي الخارج بكويتيي الداخل. جاء صوت والدتك مكسورا: "آنا وأبوك بخير.. حتّك على ترك الكويت مع من يعزم على الخروج إلى المملكة. لم تلتقط أنفاسها تستغل الثواني المخصصة لكل متصل: "ولدي أمانة في رقبتك يا أم صالح.. ولدي أمانة" انخرطت في نوبة بكاء قبل أن ينطلق نداء كويتي آخر يبحث عن لا يستطيع جوابا. كنتم في شتات. بين لاجئ وآخر مقطوع عن العالم. ليس كإذاعة المملكة العربية السعودية إذاعة تشعركم بضعفكم عبر برامجها الداعمة. في برنامج

"رسائل كويتية"، يناشد المذيع المواطنين السعوديين بالتبرّع إلى ضيوف المملكة من الكويتيين. يشير إلى أعداد العائلات "اللاجئة"، وإن لم يستخدم اللفظ. عائلات تسكن فصول المدارس السعودية. تتجسّد نداءات المذيع في مخيلتك على شكل عُلب تبرعات نقدية لا تحمل صورة قبة الصخرة ولا صورة صبي إفريقي. تتخيلها عُلباً تحمل صورة طفل بألوان علم الكويت. يشاركك فهد خيالك: "علب تبرعات للكويتيين.. من يمسح دموع هذا المسكين؟" أشفقت على من خرج. أحببت بيت آل بن يعقوب. أحببت السُرّة أكثر.

بصفتك أمانة، أمرتك العجوز: لا خروج من البيت! وإذا ما حاجتها بأن فهداً يقضي معظم وقته في حوش عمّك عبّاس. قاطعتك: "صالح كفيل بولده" هاتّفك خالك حسن ينوي زيارة البصرة ليجري اتصالات دولية مع أقاربكم في الخارج. خشيت ألا تعود. تحججت بضياح جواز سفرك لم تعرف أن لا حاجة لوثيقة سفر تنقلك بين محافظات وطن واحد. تتدخل أمك حصّة: "الولد أمانة عندي يا بو ضاري" تسمّرت أمام النوافذ، مصدراً وحيداً لأخبار تفهمها مقارنة مع أخبار إذاعة لا يفهمها سوى الكبار. تترقّب جنود الاحتلال كلما مرّت سيارات الجيب تُمني نفسك بألا تتوقف أمام الباب بنية الاقتحام. لمحت فهداً وصادقاً، بصحبة سامر وحازم، في الحديقة الصغيرة في حوش الجار، تحت ظلال السدرية في جزئها المطل على بيت عمّك عبّاس. ينحنون على الأرض يلتقطون أشياء بين الأعشاب الجافة. لست بحاجة لأن تُخمن.. حجارة! وقد صنعوا منها تلاً صغيراً. سبب كافٍ لمكوث فهد فترات طويلة في

بيت صادق بعيدا عن عينيّ أبيه. قلقك عليهما، ربما، أو غيرتك إزاء اجتماعهما من دونك دفعك للوشاية بهما عند عمّك صالح: "فهد يجمع صخر في بيت عمي عبّاس!" لم يكثر الرجل بدءا: لعله يجمعها للعبة عنبر! استدرك يسأل غاضبا: "في بيت عبّاسو؟!" هزرت رأسك تؤكد. أخبرته بأنهما جمعا حجارة كثيرة. لا علاقة للأمر بلعبة شعبية تحتاج إلى سبعة أحجار فقط. غاص رأسك بين كتفيك خجلا إزاء صرخة أبي فهد وسط حوش بيته: "فهد!" لم يرد. نظر إليك: "روح هاته!" أربكنك صيغة إلقاء القبض تلك. لم تجد فهدا في حوش الجار. كان في أسفل السلم في غرفة الجلوس يعبث وصادق بخيوط مطاطية وشرائط لاصقة يصنعون النبيطة. "أبوك بيبك"، أخبرته وأنت تتفحص جدّة طارئة على المكان. الجدران، في بيت جاركم، لم تعد بصورتها التي رأيت مرة أولى. مسحت غرفة الجلوس بعينيك. لا صور لآل البيت، لا جياذ بيضاء لا أسود لا سيوف، جدران عارية تماما. نظرت إلى الأرفف في خزانة التلفزيون، ليس عدا صورتين لصادق وحوراء.. لم تعد صور الإمام تتوسطهما. ما كاد فهد يفتح باب البيت الحديدي حتى عاجله أبوه بصفعة دوى صوتها في أذنيك: "صخر يا ابن الكلب؟! وفي بيت عبّاسو!" لا تفهم لم يشتم الرجل نفسه. الذي تفهمه أنك كنت السبب وراء الصفعة. ثار شتما الحجارة وأصحابها. يشرح لابنه أن المحتل لا يعرف شيئا في أرض قيد الاحتلال، أهل الحجارة، "إللي تقلدهم"، ساعدوا المحتل أرشده إلى بيوت المطلوبين! مثلك فهد تماما، لا يصدّق كلام أبيه. صاح عمّك صالح بابنه: تتخذ من الواشي قدوة؟! تتذكر أبا



طه. أبا نائل. أياكون بيت الزلّمات خطرا يهدّد شارعكم؟ كرهتَ نفسك لما جلبته لصديقك وأنت من وشى به وبجارته. كرهتَ نفسك أكثر إزاء وصف أمك حصّة تلومك على وشايتك: "يا شَبَابُ النار!" تدرّيتها مانحة ألقاباً يصعب الفكّك منها؛ الست الناظرة، قط المطابخ، الساحرة، زوج الأميركية. كنت تحتمل تلميحاتها وتشبيهها لك بالقرود، سخريةً، ولكنك لست مستعداً لقبول اللقب الجديد، عتّباً؛ شَبَابُ النار، وأنت الذي كرهت النار منذ قالت إنّها لا تورث إلا رمادا! وقف فهد أمام جدّته يُخبرها بما قاله أبوه عن الفلسطينيين. مدّت كفّها أمام وجهه بأصابع متباعدة. "أصابعك ماهي سوا!" سمعها صالح. صاح يؤكد: "سوا!" ذكّرتّه بالكويتي الذي أسماه الاحتلال رئيساً لحكومة الكويت المؤقتة. سألتّه: "إنت وهو.. سوا؟!"

انزويت بعيداً. تلوم نفسك كثيراً قبل أن يصلح الرجل ابنه ليلاً. من عادته أن يرضيه بشراء هدية من "ألعاب الوليد"، أو "مركز نحن والأطفال في ظرفكم إياه، ما من هدية متاحة عدا: قُل لصادق أن يأتي إلى هنا وقتما شاء.. لو أراد. رجاه فهد: أو أذهب أنا إليه.. ردّ أبوه حاسماً: "لا!"

\*\*\*

## الفصل الخامس

دأبك، في ظرف اعتيادي، أن تجري نحو الهاتف فضولا كلما شرع بالرنين. كنت مولعا بالأجراس؛ جرس الهاتف، جرس الباب، وجرس المدرسة كلما انطلق يعلن نهاية دراسية ميملة. في ظرف استثنائي، لم تكره شيئا كما كرهت رنين الأجراس. جرس الباب، إذا ما كان أهل البيت في الداخل، يعني حملة تفتيشية في الغالب، أو، في أحسن الأحوال، جاسم أو عبداللطيف، يوزع أحدهما الخبز غلافا لمنشورات مناهضة أو مبالغ نقدية ترد من الحكومة في الخارج، ويسأل الآخر عن القمامة. جرس الهاتف يعني توجيهها لما سوف يفعله صالح على إثر خبر يُنقل إليه. منذ يوم الاحتلال الأول وهو يتصرف بشكل آلي بعد كل مكالمة. يقفل سماعة الهاتف، يحرق صوراً له بالزي العسكري زمن التحاقه بخدمة التجنيد الإلزامي. يقفل سماعة الهاتف، يتجه إلى المطبخ في الحوش يعمل مع تينا على ملء غالونات بلاستيكية بمياه الشرب. يقفل سماعة الهاتف، يدفن بندقية صيدٍ بالقرب من السدرة في الحديقة. يقفل سماعة الهاتف، يُؤوي السيارات الثلاث داخل الحوش لئلا ينتبه جنود الاحتلال إلى أرقام لوحاتها تحمل اسم الكويت لا تزال.

بقيتم على حال الفزع هذه مع كل اتصال ينقل خبراً أو إشاعة  
محملة التصديق؛ نية المحتل قطع المياه عن الأهالي، عقوبة تصل إلى  
الإعدام لمن يحتفظ في بيته بسلاح حتى لو كان بندقية صيد، اعتقال  
أي رجل له صورة بزيٍّ عسكري. فوزية في غرفتها معظم الوقت لا  
تفتح لأحد. تستنيك إذا ما طرقت بأها تحمل خبراً يهملها. ولأنك  
تدري أن كيفان تعني لها الكثير، تحمل لها أخبار عمليات مقاومة  
استثنائية في تلك المنطقة، وكيف صار الناس يسمونها كيفان  
السمود. يتهلل وجه فوزية: "كيفان غير تجيها: "والسرّة بعد ثمّد  
سبّابتها تضغطُ سرّتك، تهكّم على اسم المنطقة. لا تدري ما الذي  
أصابك لحظة ملامسة إصبعها لجسدك. جيش من النمل يدبُّ صاعداً  
من ظهرك إلى رأسك. نظرت إلى وجهها بشفّةٍ مرتخية. عقدتُ  
حاجبيها: "شفيك؟" تركت غرفتها راكضاً لا تملك إجابة.

انكسرت حرارة الصيف في سبتمبر مع ظهور نجم سهيل جلياً  
في سماءكم. قليلاً ما يزوركم نوم. رتابة أيامكم، في وقتٍ تنقطع فيه  
الكهرباء وتتعطل أجهزة الكنديشة، تدفعكم للخروج إلى الحوش  
تفترشون الأرض. شارعكم هادئ إلا من صرير سُوير الليل. كل  
سُبل تسليتكم لا تتعدى سور الحوش. كان القمر بدراً أتاح لكم  
رؤية معقولة في الظلام. حملت العجوز عصاً طويلة ثبّتت في رأسها  
سكيناً مثل رمح، وفي يدها الأخرى تحمل مصباحاً يدوياً. سألتماها  
وهي تمضي نحو قفص دجاجاتها، ملقبةً ملفّعها على رأسها كيفما  
اتفق مثل عُترة: "وين؟" أجابت من دون أن تلتفت: "القُمبار قهقهه  
عمك صالح. سكت سُوير الليل فور مشيها بين الحشائش حول

القفص. ارتبكتُ خشية أن تكون قد دهسته من دون قصد. توقفت  
لثوانٍ تتحراه يستأنف صريره. ابتسمتُ فور ما فعل. انحنى فوق  
الحشائش تُحدثه. تحضُّه يواصل غناؤه حتى تستجيب أنشاه الغائبة.  
أدارت ظهرها تعالج المصائد تخلِّصها من فئران نافقة بواسطة رمحها:  
"ما تشمّون الريحة؟!" تهزّون رؤوسكم. "معلوم! ما دام ريحتمكم  
خايسة!"، قالت العجوز تاركة حملتها مفتوحة. انشغلت وفهد  
بمداعبة قطط صغيرة استأنستموها. أمك حصّة رحبت بوجودها، ما  
عادت تخاطبها طاردة: "تتّ تتّ"، لعلها تُخلِّص قفص دجاجاتها من  
الفئران. لولا تزايد الفئران ما رضينا بالقطط، قالت مبررة، قبل أن  
تتدارك: زمن أعبر! فئران وقطط و كلاب في بيتي!

فرغتُ من التقاط الفئران النافقة. تركنما القطط وشأنها.  
تبعتماها إلى باب الحوش. أرسلتكما لرمي كيس الفئران خارجا في  
الساحة الترايبية إلى جانب بيت أبي سامي. وقفتُ تتفحص  
النخلات الثلاث. علّت وجهها ابتسامة مطمئنة. "يُمّه حصّة! تحبين  
بنات كيفان وايد؟" بدت شاردة حين أجابتك: "واحب صويحها"  
تدهشك قدرتها على أنسنة الأشياء وهي تحكي عن إخلاصة  
وسعمرانة وبرحيّة. كيف أحضرها أبو صالح، رحمه الله، فسائل من  
أماكن بعيدة؛ القصيم والبصرة والأهواز، انتقاها من بين عشرات  
النخيل لتسكن قربه بدلا من غرسها مع أخريات في مزرعة الوفرة.  
كان يسافر كثيرا، وإذا ما طابت له بلّحة، عند مضيفه، سأل عن  
مصدرها، يدفع كل ما لديه لقاء أن يحظى بفسيلة من النخلة الأم،  
يحملها معه عائدا، يفرسها في حديقة بيته أو في مزرعته. حدثتكما

عن لقائها الأول في بيت كيفان، وكيف تعارفت الفسائل الصغيرة إلى بعضها البعض، تحمل كل واحدة تاريخها غائرا في نتوءات جذعها. كيف كبرت، وصارت تُنافس واحدتها الأخرى، محبة لأصحاب البيت تطرح أشهى الثمار. قفلت عائدة إلى الداخل وهي تترحم على زوجها وتدعو بطول العمر لـ بُنياتها الثلاث.

تحلَّقتم حول المذيع على بساط خشن مخطط بالأحمر والأزرق وسط الحوش. يشرب الكبار الشاي في جوٍّ معقول خفيف الرطوبة، يستمعون إلى الإذاعة وقت النشرة كأن أخبارها لا تشبهها في غرفة الجلوس. سكت صرير سُوير الليل ثانية. رَقِصت العجوز حاجبيها: "وصلت حبيته" استلقيتما على ظهريكما، تتوسدان فخذي العجوز، تحدِّقان في النجم الضيف، في سماء أحالَ البدرُ سوادها زرقاً داكنة. أطفأت أملك حصّة مذياعها. "يا حلاة القمر" تنظر إلى السماء يجرُّها حنين إلى زمنٍ كانت فيه السماء أقرب كما تقول، في بيت طيني قدم في المرقاب، تطل حجراته على حوشٍ مفتوح على السماء. "كنا نعرف السما أكثر.. وكانت تعرفنا" زفرت. "وقت القيط، قبل الكنديشة، ننام في السطح.. القاع فراشنا والسما لحافنا" نظرت إلى وجهها. كانت تحدِّق في البدر لا تزال. سألتها: "يمه حصّة! كم عمرك؟" أخفضت رأسها: "والله ما أدري يا وليدي، أنا قديمة!" نظرت في الفراغ كأنها تهجى كلماتٍ خفية: "الله يرحمها، أمي شريفة، تقول: جيتي يا حُصيصه للدنيا سنة الطّبعة، أو عقبها بسنة سنتين، عقب ما غرقت المراكب في مغاصات الخليج" بترت كلماتها: "إيه.. ذاك زمن وهذا زمن قالت إنها سوف تحكي لكم

حكاية، ما دام سهيلا في ضيافة سمائكم. التفت إليها: حكاية الفئران الأربعة؟ صفعتك على جبينك: "لأ"، لأن حكاية الفئران الأربعة طويلة "وايد" تلوهما: "ملينا من قصص جنيات السدرة!" تجاوزت قولك تنظر إلى سدرتها في الظلام: "سكنهم مساكنهم حدقت في السماء ثانية. شرعت تحكي عن سهيل وأساطيره، سهيل الذي يأتي مُبشرا بالشتاء والمطر. ليته يُشربنا برحيلهم عن أرضنا مع انسحاب الصيف، تُمني العجوز نفسها. أبقّت عينها على السماء. "هذي قصة حكها لي، حلوة اللبن، أُمي شريفة، ربي يتغمدنا برحمته، يوم كنت صغيرة" أغمضت عينها تستل نفسا عميقا: "زور ابن الزرور.. اللي عمره ما كذب ولا حلف زور.. راحت تقصّ وهي تُمسّد رأسيكما: سهيل وصاحبه، دخّلت بينهما الفئران..

"وين دخلت؟"، سألتها.

شدّت شعرك تكتنم ضحكة:

"ماي رادّة عليك"

استطردت تحدّثكم عن قصة جرّت في زمن سحيق في مكان ما بين الصحراء والساحل.. "زمان! لا نفط ولا كهربا ولا كونكريت..

قاطعتها:

- "يُمّه حصّة! وين صارت القصة؟"

أجابتك:

"إذا قاطعتني بعد مرة.. ماني مكملة!"

حدّثتكم عن سهيل وصاحبه اللذين لا يجمعهما رابط عدا عشق فتاة تدعى عاقبة، وأرض وراثها من أسلافهما منذ سنوات طويلة، يفلحانها، يعيشان على محاصيلها، ولا يعرفان مأوى سواها. يعتنيان بها فحاراً. يتناوبان على حراستها ليلاً. ولأنهما لم يبرحا أرضهما يوماً، أو يهملها، أو يسلمها إلى أغراب يفلحونها، لم تتمكن الفئران من سرقة محاصيل الأرض من رزّ وحنطة وذرة وشعير. جاءت الفئران. وإذا ما جاع فأر استمات ليحصل على ما يسد جوعه وإن جاء امتلاؤه على خراب ديار. أدركت الخبيثة أنها لن تسود الأرض ما لم تتمكن من الدخول بين سهيل وصاحبه. لم ترغب بالتخلّص منهما معاً، لأن الفئران بطبيعتها تأتي على الحصاد ولكنها لا تفلح الأرض. كان بقاء أحد الصديقين ضرورياً من أجل حياة الفئران. يفلح الأرض كي تستمر في عطائها موسماً تلو آخر. تسرقه إذا ما هدّه التعب ونام ليلاً بلا صاحب يسهر على حراسة جهده. ولأنها تعرف أن كلا صاحبين يهيم بعاقبة ويرى أنه الأجدر بحبها، لم تجد الفئران سواها سبيلاً إلى الدخول بين سهيل وصاحبه لتفرّق بينهما. هاجمت الفئران عاقبة داخل خيمتها البعيدة. صرخت الفتاة. استجارت. هبّ سهيل وصاحبه يسابق واحدهما الآخر لنجدتها. يجريان في الظلمة. يتبعان صوتها ونور سراج يتسلل من خيمتها. دبّت الغيرة بينهما. كلاهما يصبو إلى نجدة الفتاة ونيل ودّها. تشاجر سهيل وصاحبه بالقرب من الخيمة، كلاهما

يَدْعِي أَنْ عَاقِبَةَ نَادَتَهُ بِاسْمِهِ. حَمَل سَهِيلَ حَجْرًا. شَجَّ رَأْسَ صَاحِبِهِ. سَقَطَ عَلَى الْأَرْضِ يَسِيلُ الدَّمُ مِنْ مَفَارِقِ شَعْرِهِ. جَزَعَ سَهِيلٌ لِمَرَأَى الدَّمِ. سَقَطَ عَلَى رِكْبَتَيْهِ يَهْزُ كَتْفَيْ صَاحِبِهِ. ظَنَّهُ مَيْتًا وَلَمْ يَكُنْ. صَرَخَ شَاتِمًا نَفْسَهُ. جَرَى هَرَبًا مِنْ ذَنْبِهِ الْمَضْطَرَجِ بِدِمَائِهِ. لَمْ يَجِدْ وَسِيلَةً يَكْفُرُ بِهَا عَنْ خَطِيئَتِهِ عَدَا اعْتِزَالَهُ الْعَالَمَ وَجَلْوَتَهُ إِلَى جَنُوبِ السَّمَاءِ. بَعِيدًا. وَحِيدًا لَا يَجَاوِرُهُ نَجْمٌ. صَارَتِ السَّمَاءُ تَصْرُخُ أَلْمًا لِحَالِ الصَّاحِبِينَ. تَرَسَّلَ دَمْعُهَا مَدْرَارًا عَلَى الْأَرْضِ. عِنْدَمَا نَفَرَتِ الْفُتْرَانُ إِلَى أَرْضِهِمَا اسْتَعَادَ الْفَتَى الْجَرِيحَ وَعِيَهُ. لَمْ يَجِدْ سَهِيلًا حَوْلَهُ، أَعْطَتْهُ عَاقِبَةُ سَرَاجِهَا لِيُحِثَّ عَنْ صَاحِبِهِ. لَمْ يَجِدْهُ فِي الْأَرْضِ الَّتِي أَحَالَهَا الْفُتْرَانُ خَرَابًا. مَضَى يَهِيمٌ فِي الْقِفَارِ حَامِلًا سَرَاجَهُ يَنَادِي سَهِيلًا الَّذِي اخْتَفَى فِي السَّمَاءِ، وَلَا يَظْهَرُ إِلَّا مَرَّةً كُلَّ عَامٍ فِي مِثْلِ يَوْمِ نَدَاءَاتِ عَاقِبَةَ عِنْدَمَا تَتَذَكَّرُ السَّمَاءُ الْفَجِيعَةَ وَتَبْكِيهِمَا. يَمْكُثُ سَهِيلٌ أَيَّامًا يَطَّلُ عَلَى الْأَرْضِ يَرِاقِبُ مَا حَلَّ بِهَا. يَبْحَثُ عَنْ صَاحِبِهِ الَّذِي حَمَلَ سَرَاجَ عَاقِبَةَ وَغَابَ فِي الْقِفَارِ يَبْحَثُ عَنْهُ. هَكَذَا صَارَ سَهِيلٌ نَجْمًا. أَمَا صَاحِبُهُ فَقَدْ اخْتَفَى، طَالَه النِّسْيَانُ، وَلَمْ تَحْفَظِ الْأَسْطُورَةُ اسْمَهُ، إِلَّا أَنَّ النَّاسَ صَارَتِ تَنَادِيهِ بِ— شَهَابٍ، يَدْعِي الْبَعْضُ رُؤْيَتَهُ؛ بَيْنَ لَيْلَةٍ وَأُخْرَى، حَامِلًا سَرَاجَهُ خَاطِفًا فِي السَّمَاءِ. مَاتَتِ الْفُتْرَانُ عَلَى أَرْضٍ خَرَّبَهَا رَحِيلُ صَاحِبِيهَا. بَقِيَتْ عَاقِبَةُ وَحِيدَةً بِلَا سَرَاجٍ.

"يا ليت إذا ميت أصير نجمة"، قال فهد لجدته.

انتفضت: "قال الله ولا فالك!" تخشى مرور ملك صدفة في الجوار، يسمع أمنيته. يحملها إلى الله:



أردف ينظر إلى وجهها:

"عشان أشوفكم من فوق إذا اشتقت لكم"، قالها حزينا.

صفعته جدته على جبينه: "يجعل يومي قبل يومك" سألتها:  
"وقصة الفيران الأربعة؟" حجت جبينك بكفيك خشية صفة  
مأثلة. ولأنها لم تكثر، أظهرت لها عدم اهتمامك بقصة سهيل التي  
لا يمكن لها أن تكون حقيقية. أجابتك: "ابن الزرور عمره ما كذب  
ولا حلف زور!" تذكرت مصير من يحلف زورا: "تطيح علينا  
السماء!" كان ينبغي أن تسقط السماء، يسقط معها سهيل، يلتقي  
صاحبه، كنت تفكر قبل أن تستغفر. شرع السلوقي بالنباح.  
التصقت أكثر بأملك حصّة. تحلّطت العجوز، قالت إنها ما حسبت  
حساب طول بقائه في بيتها. وافقها صالح: "ولا آنا"، ثم شرع يقنع  
نفسه بأهمية وجود الكلب من أجل حماية البيت. واصل الكلب  
نباحه. التفت صالح إلى فهد يأمره بأن يفك قيد السلوقي، يأخذه إلى  
الحوض الترابي لعله يقضي حاجته. نظر إليك مناكفا كاشفا سرك:  
"تخاف من الكلب يا ولد؟" أجابته العجوز دون أن تنظر إليه: "غيره  
يخاف كلاب لابسة ثياب!" امتقع وجهه. نظرت إليك تأمرك بفك  
قيد السلوقي. شلّك طلبها، بالكاد ابتلعت ريقك: "آنا؟" ربّبت على  
ظهرك: "يلله يا سبع!" سبقك فهد إلى زاوية الحوش يصيح بك:  
"تعال!" أوقفته جدته: "اقعد انت!" تصببت عرقا رغم اعتدال  
الطقس. صرت تكييل الشتائم، في سرك، لسهيل الذي دفعكم إلى  
مسامرته في الحوش. ما كدت تترك مكانك على الأرض، تجرّ

خطواتك إلى زاوية السلوقي، تقطع نصف المسافة تحدِّقُ في عينيه، حتى انطلقت صيحات تكبير وهتافات من أسطح البيوت المحيطة تُندد بالاحتلال. أجفل الكلب في البدء. أجفلت أنت. انطلقت أعيرة نارية كثيفة تتوهج حُمرة تملأ سماءكم كالمطر. حاكها السلوقي نباحا. انتفضتم فرارا إلى الداخل. آخر الواصلين إلى غرفة الجلوس كانت أمك حِصَّة تكنس الأرض بخطواتها تحمل مذياعها فزعة من سبيل الطلقات النارية: "إذا دَلق سَهيل لا تَأمن السبيل!" انفجرتم ضاحكين، في ذروة هلعكم. رَنُّ الهاتف يُخرس ضحكات غرفة الجلوس. تبادلتم النظرات كما في كل مرة يرن فيها جرس. حمل صالح السَّماعة بوجه من تلقى خيرا مفاجعا. تمت أمه: "سترك يا سَتار لم يتحدث كثيرا. كان ينظر إلى أعلى السَلَم. أدركتم خطورة المكالمة من رعشات كَفِّيه. همست عائشة: "خير؟ عسى ما شر؟" أشار لها بكفِّه أن تصمت. تمت إلى مهاجته: "لا حول ولا قوة.. أطبق السَّماعة يطلق زفرة طويلة يحدِّق في الأرض. لم يفه بكلمة. صاحت به عائشة: "خير؟ إشفيك؟" ارتفع صوت أمك حِصَّة منبها: "صوتك يا عائشة!" اختفى صالح في غرفته تتبعه زوجته. فضولكما، أنت وفهد، في أوجه. سألتما العجوز. أجابت: ننتظر عائشة لعلها تعود بخبر. عادت كَتَّتها بوجه باهت. أجبرت هامسة: اقتياد فتيات إلى مراكز أمنية. تلكأت عائشة أمام سؤال أمك حِصَّة: "ليش؟" ارتبكت في إجابتها تنظر إليكما، الجهَّال، بطرف عينيها: لماذا برأيك؟ ضربت العجوز صدرها بكفِّها من دون أن تنطق. هزَّت أم فهد رأسها:

"الله يستر على بناتنا.."

لم يمكث صالح في غرفته طويلا. خرج يحمل آلة حلاقة كتلك التي يخلق بها مشتاق الباكستاني رؤوسكم. ارتقى السلم، بخطوات سريعة، إلى الأعلى. بهت العجوز تنظر إليه وسع عينيها. صرخت به في حين كانت تم بالوقوف بطيئة الحركة تمد ذراعها إلى فهد كي يُسندها:

"وين رايج؟ اصبر يا صالح خاف الله!"

دفعت كتنها تصيح:

"روحي إمسكيه يا عايشة!"

تسمرّتما، أنت وفهد، في مكانكما، في حين تجر العجوز خطواتها تنكئ إلى الجدار نحو السلم تنادي ابنها. لا يصلحكم من الطابق العلوي إلا طرقات عنيفة على باب غرفة فوزية وصوت عائشة تصرخ:

"افتح الباب.. صالح! عليك الله لأ!"

\*\*\*

## الفصل السادس

مكوثك في غرفة العجوز ليلاً قَرَّبها إليك أكثر من أي وقت مضى. انزعاجك الذي كان، ما عاد. أحاديثها الليلية في الغرفة لا تشبه أحاديث النهار خارجها، وكأنها إذا نزعَت طقم أسنانها، في الظلام، تستحيل امرأة أخرى. آمنت بأن هذا الطقم يحول بينك وبين سماع الكثير من القصص، ما كان للعجوز أن تتحرر منها لولا انتزاعها إياها. بئس تسبقها إلى غرفة نومها فور فراغكم من تناول العشاء، في حين تذهب هي إلى الحمام تتوضأ قبل النوم. تستغرب وضوءها في غير وقت صلاة. تجيبك دائماً: حتى أموت طاهرة إذا ما قبض الله روعي وأنا نائمة. تمضي إلى غرفتها تحمل منشفة مُعَطَّرة، تجفُّ ساعديها. تشبك ذراعيك أمام صدرك تتكئ إلى الحائط، بالقرب من الباب، تنتظرها تفرغ من إعداد المساحة المخصصة لنومك. وإن اقتربت مساعداً هزرتك: لستُ عجوزاً! هيبى لك المرتبة أسفل سريرها رغم صعوبة انحنائها. تراقبها بحب. تنشَّق رائحتها الليلية المنعشة، صابون لايف بوي، أو صابونة حَمْرًا، على حدِّ وصفها. تُسند كفيها إلى ركبتيها: "يا الله عليك ولا على غيرك" تسحبُ شفَتَيْكَ إلى فمك إنفلاً

تُفلت ضحكة. عجيزتها الكبيرة تبدو أكبر عندما تنحني. تمضي صوباً خزانة ملابسها تفتح بابها الخشبي، تنتشر في جو الغرفة رائحة كريات النفتالين البيضاء. تنزع مِلْفَعَهَا وتودع أساورها الخزانة. تمسك بزجاجة كلونيا أم بنت، Pompeia Lotion، تفرغ قدرا كبيرا من السائل الذهبي في كفيها قبل أن تقفل إلى سريرها. تجلس. تطلب منك أو تأمرك: أطفئ النور. تفتعلُ حزنا في تعبيرات وجهك: ليس الآن يُمه حِصَّة. هزُّ رأسها: أطفئ النور.. لن ننام قبل أن نسوِّف.. لا تقلق. تتسع ابتسامتك. تُطفئ النور من دون أن تترك مكانك بالقرب من الباب. لا تطيل انتظارك. تشعل النور فجأة بعد ثوان. تجدها، بوجه متأهب واثق، تبتسم ابتسامة واسعة مفتعلة تؤكد بقاء أسنانها في فمها. تمسك بزجاجة محلول الأسنان تنظر إليك كاشفة لعبتك: أطفئ النور وتعال اجلس في فراشك يا يهودي! تتوددها مفتعلا حزنا: أريد أن أراك تنزعين أسنانك أرجوك. تقاطعك: على موتي!

تطفئ النور. تتحسَّس طريقك بيديك وسط الظلام. تفرص في فراشك أسفل سريرها. يُخرِسُك خشوعها. تنصت إلى همسها تخاطب الله مرددة أذكار ما قبل النوم. معها فقط تشعر الله قريبا كأنك، وفق مخيلتك، تحلق في السماء. تقرأ العجوز المعوذات. تنفث في كفيها. تُتميم بكلمات بالكاد تلتقط بعضها يُميِّزها حرف السين. هي لم تنزع طقم أسنانها إذن. سـ سبحان.. اللهم رب السموات السبع.. اللهم إني أسـ ألك.. الذي أطعمنا وسـ قنانا وكفانا.. فليـ س قبلك شيء.. باسـ مـك اللهم.. أسـ لمبُ نفسي إليك.

فور ما يجبو حرف ال سين في أذكارها تَلْفُظُ سين سؤالك،  
تُبادلك سينك بـ سين السوالف التي تُحب. كانت تجيبك على  
كل سؤال. تحكي لك عن كل شيء عدا قصة الفئران الأربعة التي  
وعدتك بها. تؤجلها إلى ليلة تليها. تتحدث عما تريد هي قوله. تفهم  
بعضاً من كلامها. تجهل الكثير منه. تتحدث هي بدافع الحاجة إلى  
الحديث. بسؤالك أم من دونه. أمك حصّة، في الليل وحسب، شأن  
آخر في سوالف الليل تتعرّف إلى ما لم تعرفه من قبل. لماذا تقسو  
أمك حصّة على ابنها صالح. لأنه يقسو على فوزية، صالح رجل  
البيت، في البيت وحسب، رجل على شقيقته، قليلة الحظ، المريضة  
يتيمة الأب. لماذا هي مريضة. ابتلاء من الله. لماذا يتليها الله. يحتبرها.  
لماذا يحتبرها. لأنه يُحبّها. ألا يُحبني الله وأنا سليم البدن معافي من  
الأمراض. احرس واستغفر الله. أستغفر الله. عَفِيَه على وليدي. ماذا  
لو نَجَحْتُ في الاختبار هل يُشفيها الله. الاختبار عند أمك الست  
الناظرة في المدرسة يا حَبِل. أستغفر الله، متى ابتلاها الله. ما رأيتُ  
"جاهل يسأل كما تفعل أنت. أنا لستُ "جاهل"، متى ابتلاها الله.  
عند موت أبيها في تفجيرات المقاهي الشعبية قبل خمسة أعوام. كيف.  
بكت كثيراً، حتى أنني لقاء بكائها لم أقوَ على البكاء، لم أبك أباً  
صالح، بكيت فوزية، بنت أبوها، كما كان يُسميها رحمه الله، بكيتها  
حينما نقلناها إلى المستشفى مهدودة الحيل. أُغمي عليها. صالح الذي  
أردته رجلاً في غياب أبيه، صار طفلاً. عائشة، من يومها، هي  
عائشة، لم ألحظ لها حزناً على غياب أبي صالح، ربما تحسبه حياً في  
الصور التي تحتفظ بها الحَبِلة!

تصمت العجوز..

يُمّه حِصّة، هل نمت. من أين يجيء النوم يا ولدي، اللهم  
شافها وعافها..

حدّثتك عن حبها لفوزية، بنت أبوها وعُوية أمها، وكيف  
كتب الله لها الحياة بعد موت تسعة ذكور في بطنها، بين ولادة صالح  
وشقيقته. شرعت تستعيد كلام طبيب ابنتها بعد فقدان أبي صالح،  
ارتفاع حادّ مفاجئ في مستوى السُّكر، حالة عرضية، بسبب أزمة  
نفسية. لا يخفي الطبيب قلقه إزاء احتمال تطور الأزمة العابرة إلى  
مرض دائم، مردّة استعدادها وراثيا، وإهمالها للعلاج وتهاونها في أكل  
المنوعات.

ثم، ماذا حصل يُمّه حِصّة. لم تكن حالة "أم يومين كما أخبرنا  
طبيبها، ما ورثتُ ابنتي إلا المرض، كانت تُذكرني بمواعيد دوائي،  
أصبحنا نُذكر بعضنا. هل يكره عمي صالح فوزية. صالح يكره  
ضعفه، مسكين لا حول له ولا قوة، هو يحب شقيقته ويخشى عليها،  
وفوزية رغم ما فعله بها يوم أمس لم تُقاوم، هي تفهم أنه يحبها وأن  
ما فعله ليس إلا تعبيرا عن خوفه عليها، أنت كنت في الحوش حينما  
نزل إلى غرفة الجلوس يحمل آلة الحلاقة يبكي مثل الـ "جاهل  
يا رويحة أمّه. هل رأيت فوزية يُمّه حِصّة، هل فتحت لك باب  
غرفتها. رأيتها يا عُوية أمها، مثل حمامة منتوفة الريش. هل أزال  
صالح شعرها على الصفر؟ ها؟ يُمّه حِصّة! نمت؟

## بكت العجوز مثل "جاهل"

وددت لو أنك ترى وجهها، ولكن الظلام. توقفت العجوز عن البكاء تستغفر ربها. راحت من دون أن تسألها تتحدث عن صالح:

"صالح، الله يصلحه، ابني وليس ابني، منذ صغره لا أفهمه. ليته مثل ولده، سمي جدّه فهد الله يغفر له، وارث ملامحه وطباعه..

تطلق زفرة تشبه ضحكة. توصيك خيرا بحفيدها. تعرج بحديثها إلى صادق. أنتم الثلاثة. بنات كيفان. ربّعك عزوئك. تصمت قبل أن تُخص فهدًا محبة فائضة في حديثها. هو وحيد أبويه منذ جراحة أُجريت لعائشة. لم يعد يستفزك أمر الرّجيم، ولا علاقة إزالته بعدم إنجاب مزيدٍ من الأبناء بعد فهد. كنت تنصتُ إلى العجوز كمن يتعرّف إلى امرأة لم يكن يعرفها قط.

تستطردّ:

أصبح فهد رجلا، يشبه جدّه، حتى في حبه لـ مُطَبِّق السمك.. قَطَّ المطابخ"

تسكت العجوز. تخالها تبسم لمرآى زوجها في مخيلتها. تردف:

"صالح حَيِّبٌ، لكنه يُصغي كثيرا، كلمة تأخذه بعيدا، وأخرى تعيده إلى حيث كان. ينصت إلى عائشة.. إلى أصحابه في الديوانية وتجمّعات المسجد.. إلى التلفزيون وأخبار الإذاعة والجرائد.. وأخرها ما يُسمونه تظاهرات دواوين الإثنين



لا تدري سببا وراء انفلات العجوز حديثا عن ولدها الذي لا يهملك أمره بقدر ما يهملك معرفة المزيد عن فوزية. تتذكر عمك صالح يتصرف وفق ما يرده من مكالمات هاتفية منذ يوم الاحتلال الأول. تستطرد أمك حصّة:

"أكمل دراسته الجامعية في القاهرة. صور جمال عبدالناصر التي علّقها أبو صالح على جدران البيت تضاعفت بعودة ابنه من مصر  
تصمت قبل أن تسألك:

"تعرف الزعيم عبدالناصر؟"

لا ترد على سؤالها. تستأنف:

"الله يخلف عليك! ما تعرف الرجاجيل!"

يرتفع صوتها:

"عبدالناصر اللي حارب اليهود!"

تستطرد متهمكة بأنكم تردّدون، كالبغاوات، كل صباح "تحيا الأمة العربية" وأنتم لا تفقهون شيئا!  
لا تأبه بصمتك تواصل:

"الله يرحمه، أبا صالح، كان رجلا، يحب جمال، يسجّل خطاباته ويسمعها ولا أم كلثوم في زمنها. أما صالح، ربي يصلح حاله، كل يوم شكل. معاهم معاهم، عليهم عليهم! مرة يقصر دشداشتته، مرّة

يلبس مثل الإنكليز يُحب تعليق الصُور، مرّة جمال عبدالناصر، ومرّة الكافر أبو لحية متنوفة..

رغم عدم رضاها عن حال ابنها، تتحدث عنه بحبّ. تتذكره وقت عاد، في أول إجازة دراسية، من القاهرة، ببذلة بيّنة وشعر لامع مفروق وشارب دقيق. يقف أمام المرآة في غرفته، يلبس مثل المصريين، يستمع إلى عبدالحليم حافظ، ممسكاً بمشط بروش يقربه إلى شفّته يحاكي أغنياته.

تقاطع نفسها كأنها تذكرت شيئاً مهماً. تحدّثك عن زمن قيام العجّم على شاه إيران. حمل صالح صورة الإمام الخميني، يحدثُ والديه عن رجل عاد من منفاه من أجل ثورة إسلامية.. "وأنا وأبوه، يا عون الله، ما نفهم شيئاً من قوله عدا ثورة إسلامية.. حياها الله! من يعاف الإسلام؟ الإسلام زين

تتحسّس قنينة الماء في الظلام. تبسمل. ترتشف قبل أن تكمل:

قامت ثورتهم. أزال صالح كل الصور عن جدرانها وقت حرب العراقيين والإيرانيين. علّق صورة صدام حسين. لا أدري ما الذي أصاب أولادنا، من يومها صار واحد منهم يحسب الله في صفّه ضد الآخر.. ما كنا نعرف شيئاً من هذا والله.. فتنة.. فتنة، اللهم يا كافي، أبجس من ذيل فأر!

تناجي الله تسأله هداية، لصالح وعبّاس، رافة بها وبجارها زينب. تطلق زفرة حرّى: "يطلع من بطنك دودٍ ياكلك!".

وَلَدًا!  
تَسْمَعُنِي؟  
يَا وَلَدًا!  
إِنْتَ نَمْتُ؟!

\* \* \*

## الفصل السابع

قارب الاحتلال شهره الثاني، والحال تزداد سوءاً، والمحتل يحكم قبضته على كل شيء. أفرعتكم طلقات نارية قريبة من بيوتكم فجراً. عاد صالح من صلاة الفجر في مسجد مريم الغانم يحمل خيراً؛ قيل إن شاباً أطلق أعيرة نارية على سيارات عسكرية كانت في طريقها إلى منطقة الجابرية. لو سمعه عسكر الاحتلال ينطق اسم المنطقة المحظور! وقد اتخذت مناطقكم أسماء جديدة فرضتها قوات الاحتلال؛ جابريتهم صارت منطقة الأحرار، ديناركم الكويتي صار، بعد أيام، عراقياً. مناطقكم السكنية؛ السالمية، سلوى، الخالدية والشويخ.. صارت لها مسميات جديدة؛ حي النصر، حي الخنساء، الجمهورية والرشيد. لو استمرت حالكم.. لن تعرفوكم. انزعج عمك صالح إزاء سؤالك: لماذا تغيير الأسماء؟ ارتفع صوته: أنت لا تكفّ عن الأسئلة؟! وحدها أملك حصّة تجيب: كي لا تعود الكويت كويتية! تخيفك إجابتها. تأمل ألا يطل السُرّة اسمٌ جديد.

هاتفكم، يومكم ذاك، خالك حسن يؤكد أن جنوداً يقومون بحملات تفتيشية عشوائية في البيوت بحثاً عن متورطين بالهجوم على

الرتل العسكري بالقرب من جسر الجابرية. حذر خالك أبا فهد ألا يقترب أحدكم أو يدخل بيت شقيقته. أوصاه بعدم السماح لك، تحت أي ظرف، بدخول بيتك. وإن سُئلت عن البيت أو أصحابه ادَّعوا بأنكم لا تعرفون عدا أن أهله في سفر. قام صالح يذرع غرفة الجلوس جيئة وذهابا: "أبو ضاري في راسه شي!" صاح بكما يتناهبه قلق من زيارة محتملة: "إنت وفهد.. لحقوني تبعتماه إلى غرفة فوزية. أمر كما بتفتيش غرفتها جيدا لعل المجنونة تحتفظ بما يودي بحياتكم. فتح الخزان وشرع، مع ابنه، يبحثان بين الملابس وفي الأرفف. نظر إليك وهو يشير إلى أدراج مكتبها الصغير: "شوف هناك!" فوزية، بوجه متورم من النوم أو البكاء، بحجاب يلتصق بجلدة رأسها، تفهم دوافع نظرتك المكسورة إليها، لا تمنع. تُشير نحو أدراج مكتبها تحثك على البحث. تقدّمت نحو المكتب وفي رأسك صورة الفراشة الوردية. شعرٌ أسود طويل يجاوز منتصف مؤخرتها كما تصفه أمها، أو تحت ظهرها كما تصفه هي. ما كدت تفتح دُرجا أول حتى أظبقته بسرعة تنتقل إلى الدرج أسفله. لفتَّ إليك انتباه صالح من دون قصد. تقدّم إليك أمرا: "افتحه!" فتحت الدرج الثاني في الأسفل. زجرك: "الأول نظرك باتجاه فوزية. هزّت رأسها موافقة. فتحته ببطء كاشفا عن قطع شوكولاتة ماكتوش كثيرة فوق كيس بلاستيكي يحمل اسم وشعار مكتبة البدور. كتمت أنفاسك ترقبا. فتح أبو فهد الكيس البلاستيكي يتفحص محتواه؛ ثلاث روايات لـ إحسان عبدالقدّوس. أطلق زفرة ارتياح. أعاد الكيس. التقط قطع الحلوى تاركها لها واحدة. أظبق درج المكتب: "هذا يضر صحتك".

لم يقل شيئاً آخر. كنت تسائلك: ماذا عمّا يضر بعقلها وأخلاقها؟! قبل انصرافكم، التفت صالح إلى فوزية بوجهٍ سَمِحٍ: "إذا رجعت الكويت.. ابتمس قبل أن يستطرد: "تسجيلين في الجامعة"

عصر يومكم إياه، اجتمعتم في غرفة الجلوس تنتصتون إلى إذاعة مونت كارلو تتابعون تفاصيل مؤتمر جدّة الشعبي. لقاء يجمع الحكومة في المنفى وأطيافاً من الكويتيين ضمنهم أصوات معارضة منذ تعطيل البرلمان. صوت الأمير في خطابه يعتصر قلوب النساء في بيت آل بن يعقوب. يُبكي فوزية. أمك حصّة كما لو تحاور أحداً، لا تنفك تمزُّ رأسها تردّد: "إيه.. إيه"، وراء كل عبارة يفوه بها عبدالعزيز الصقر في كلمته ممثلاً الشعب الكويتي في المؤتمر. عمك صالح ينصت مضيقاً عينيه. لا تعرف سبباً وراء ركله للمذيع وغضبه على نحو مفاجئ: أحرّسوه! انزلق المذيع على الأرض بعد إصرار الصقر: إن موقف بعض القيادات الفلسطينية لن يؤثر على تضامننا الثابت مع الشعب الفلسطيني في كفاحه العادل لتحرير وطنه. التقطت أمك حصّة المذيع، كمن تحمل رضيعاً، نظرت إلى ابنها: هل جُننت؟! لا تدري سبباً لرد فعلها، تأييداً لما جاء في البيان أم خوفاً على مذياعها. أعادت تشغيله. واصل صوت الصقر: إننا نعلن على الرغم من آلامنا وجراحنا وما جرّه عدوان النظام العراقي الآثم من المصائب والويلات على شعبنا، فإننا لا نُضمّر للشعب العراقي الشقيق شراً ولا نحمل له حقداً" أحرست العجوز مذياعها صامته ساهمة. ارتفع صوت في الشارع ينادي: "برّد.. برّد.. جاء أبو سامح بائع المثلجات في غير أوانه. كاد يفرّ قلبك من مكانه فرحاً لولا اتساع

عيني عمك صالح الذي همّ واقفا: "القوَاد! والله جريء؟! " استغربت لفظه وهو الذي لا يفعل أمام أهل بيته. لم تلبث نداءات البائع طويلا أمام صوت جاء أكثر ارتفاعا أوقف نداءاته. مضى أبو فهد إلى الخارج بدشداشته المنزلية يستطلع الأمر. تبعتماه، أنت وفهد، يقودكما الفضول. وجدتم جاركم عبّاس يصيح بالرجل الواقف وراء عربته والشمسية الحمراء مكسورة: لا خير فيكم يا أولاد الـ...! فتح غطاء عربة الآيس كريم والرجل يحاول أن يثنيه بلا حول. انحنى أبو صادق على الأرض مقابل بيته يحمل بين يديه حفنة تراب. صاح أبو سامح، بضعف، بلهجة أعادتكم إلى صوت المدرسة: "يا عمي شو دخلني؟! " هالَ عمك عبّاس التراب على الثلجيات داخل العربة. وضع أبو سامح كفيه على رأسه: "يا عمي عيب.. حرام!" اجتمعت الكلمتان في غير موضعهما وفق ارتباطٍ شرطي مع أسئلتك؛ عيب حرام. فارَ غضب عمك صالح: "انتو تعرفون الحرام؟! أبوكم.. أبو منظمة التحرير يا أولاد الحرام!" بكيتهما، أو أوشكتما، أنت وفهد إزاء منظر الرجل يدفع عربته بعيدا عن بيوتكم. تذكرتما حديث الرجل عن عربةٍ ألحقتُ أبناءه الثلاثة في الجامعة. لا شأن لكم بمنظمة التحرير. لا شأن لكم بما لا تفقهون. لا شأن لكم بشيء عدا رجل لاسمه على ألسنتكم طعم القانيلا والشوكولاتة والكاراميل. رحل بوجهه الكهل الذابل، بلحيته النابتة زغبا أبيض وبشرة حمصتها الشمس. اختفت نداءات الـ: "برّد.. برّد" غادركم أبو سامح مع أغنية "عبي لي الجرّة" لطالما تمنيّت اتفاقا بين جاريك. اتفاقهما جاء على ما لا تشتهي. إثر عودتكم إلى الداخل وجدتم العجوز تنتظر

صامتة. سأل فهد أباه: يُبه! هل كان عمي عبّاس على حق؟ جاءت  
إجابته أكيدة: طبعاً! نظرتما، أنت وفهد، إلى بعضكما في حيرة  
حدّسها صالح. ربّيتَ على ظهر ابنه. برّر: "آنا وأخوي على ابن  
عمي.. وأنا وابن عمي على الغريب" لا غريب في هماركم ذاك  
سوى اثنين؛ وصفه جاره اللدود بابن عمّ، ووصفه لأبي سامح  
بالغريب!

عينك، لا إراديا، انتقلنا إلى أمك حصّة مؤمنا بأنها سوف تقول  
شيئا إزاء جدّة الوصف..  
ولكنها لم..

\*\*\*





## الفصل الثامن

كنتم ثلاثكم في الحوش، قبل مغيب الشمس، أمام الكاميرا الـ HITACHI المثبتة إلى حاملها المعدني ذي القوائم الثلاثة. يرتدي فهد تي-شيرت أصفر لنادي القادسية يتقمص مؤيد الحداد هداف بطولة كأس الأمير 90، ويظهر صادق بـ تي-شيرت النادي العربي الأخضر، يتبادلان الكرة ركلا بالقرب من السدرة، يفتعلان جواً آمناً يضيفانه على التصوير، في حين تتحدث أنت إلى الكاميرا تحضيرا لإرسال شريط الفيديو مع من يخرج إلى المملكة العربية السعودية أملا وصوله إلى أيدي أبويك. كنت قد حصلت منذ أيام على شريط كاسيت يحمل رسائل صوتية منهما. أوصله من تسلل برأ بعد إغلاق الحدود الكويتية السعودية أمام العائدين. لم تفتعل ابتسامتك أمام الكاميرا وأنت تتحدث إلى والديك. كنت حقيقيا، سعيدا بكل شيء رغم خطورة ما يجري خارج البيوت، ورغم أخبار الاعتقالات والحكايات المسربة لوسائل التعذيب في المراكز التي اتخذها جنود الاحتلال سجوننا لانتزاع الاعترافات. كنت تسترسل حديثا. تبسم:

- "احنا بخير.. يمه.."

تلمع عيناك دمعا إزاء اللفظ: يُمّه. تخنقك عبرة. للكلمة "يُمّه"  
وقعٌ موجهٌ إذا ما جاءت في وقتٍ لا تسمعك فيه. ينطلق نفير سيارة  
جمع النفايات. تسارع قبل أن تقاطعك زيارة عبداللطيف المحتملة: لا  
تقلقا علي، أنا لا أخرج من..  
يقاطعك صادق وفهد في خيبة:

"عيد التصوير.. عيد!"

يشيران إلى السماء حيث مروحية الاستطلاع فوق رؤوسكم بيدٍ  
هديرها جواً آمناً افعلتموه. توقفون التصوير تنتظرون ابتعاد المروحية  
واختفاء صوتها. تستأنفون عملكم. يتخذ صاحبك مكانهما في الخلفية  
يتبادلان بينهما كرة القدم في دور مُملٍ مكرور. تحاور الكاميرا: أنا لا  
أخرج من البيت يُمّه.. أنام في غرفة أُمي حصّة.. لم أشاهد جنديا عراقيا  
حتى هذا الوقت لا تقلقي.. أصلا لا جنود في السُرّة!

تقاطعك أصوات أعيرة نارية في آخر الشارع. يصيح فهد في  
خبية:

"أوووه!"

يسقط صادق على ركبتيه أرضا:

"تعبنا!"

تتودّد لهما. تبتسم راجيا:

- "نعيد.. نعيد آخر مرة.."

تعيد التسجيل تكرر كلاما لم تنس منه شيئا عدا ابتسامتك التي كانت توأ. خيوط عرق تنحدر من شعرك خلف أذنيك تستقر في ظهرك. صديقاك من خلفك، اسودّت ياقتهما عرقا، يركلان الكرة بينهما مُرهَقَيْن، بوجوه متعبة وحواجب معقودة وآذان ترهف السمع تحسُّبا لأي صوت يُفسد جوَّ التصوير. بالكاد أُنجزت شريطك الفيديو. استبدلتم الشريط، تخلقون أجواء تسليتكم بعد استفاد كل الألعاب داخل سور الحوش؛ كرة القدم، عنبر، الغميضة وشدّ الحبل. تمقت هذه اللعبة الأخيرة. تستبدل مكانك في كل مرة، تارة تشدُّ مع صادق، ومع فهد تارة أخرى. تكره أن تكون في ذلك الموقف، بين اثنين ليس لك إلا الانضمام إلى أحدهما ضد الآخر في لعبة تعتمد على القوّة وحسب. تركتم ألعابكم تلك، تقتلون الوقت تمثيلا ارتجاليا. يتقمّص فهد، أمام الكاميرا، عبدالكريم عبدالقادر بإيماءات يديه يُفخِّمُ صوته يغني: "للصبر آخر.. خلاص، عافك الخاطر تدفعانه، صادق وأنت إلى الكف عن تقليد عبدالكريم: "ملينا!" يعدكم: "آخر أغنية.. والله والله" تمهلانه وقتا يختار أغنية أخرى. وقف جامدا فاتحا ذراعيه أمام الكاميرا. استلّ نفسا عميقا. أغمض عينيه بشدّة. فتح فمه واسعا. شرع يغني بصوتٍ وإن لم يشبه صوت مطربه، فإنه يشبه أسلوبه إلى حدّ مذهل: "وإذا بصوتٍ بنادي.. متى تعود بلادي؟" نَبّه صادق ما إن فرغ من غنائه: "هذي أغنية عبدالكريم عن فلسطين" هزّ فهد رأسه من دون أن ينطق. وقفتما، أنت وصادق، تتقمّصان شخصيات مختلفة تفعلان حوارات سخيفة. يتحوّل صاحبك إلى كرة القدم. يتحسّر صادق على عدم مقدرتكم الخروج ولعب الكرة في حديقة جمال عبدالناصر. تقفُ أنت

وراء الكاميرا تتابع لعبهما. تُعلّقُ بأسلوب خالد الحريبان: "فهد آل بن يعقوب.. معاه الكرة.. يعدّي.. قوووووول!" قاطعكم رنين جرس الباب يغرّد بإلحاح. تبادلتم نظرات ملؤها الفزع. الإصبع المجهولة تواصل ضغطها مكبس الجرس. أمّلت نفسك عساه عبداللطيف، رغم عدم رؤيتكم له منذ فترة بصحبة سيارة جمع النفايات التي اكتفى قائدها بإطلاق نغير سيارته كلما مر بشارعكم. تقدّم فهد صوب الباب. "لا تفتح!"، همّس صادق محذرا. توقف الرنين ليطلق المجهول الباب الحديدية بقوة. أو شكتم على الهرب إلى الداخل لولا ارتفع صوت عال: "افتحوا الباب!" امتقع وجه صادق: "بيسي زينب!" هرع إلى الباب يستطلع أمر جدّته. هالكم منظرها، تلهث حافية بلا عباءة، بدّت نخيلة أكثر، بالكاد لفت ملفعها بلا إحكام تتطاير منه أجزاء من شعرها الأشيب. هرولت إلى الداخل تصيح: "عبّاس.. عبّاس!" تبعتموها بوجوه صفراء. تعثّرت عند عتبة الباب. أسندها صادق. هرع أصحاب البيت إلى الممر تدفعهم نداءات الجارة العجوز. ما كادت ترى عمّك صالح حتى أمسكت بيديه باكية: عبّاس.. أخذوا عبّاس! خانتها ركبناها. سقطت أرضا. ذهل صالح لا يبادر قولاً أو فعلاً. احمرار أذني صادق انتشر في وجهه:

"أبوي!"

خرج من البيت راكضا. سارعت خالتك عائشة وفوزية تسندان أمك زينب، كنت تحدّق في وجه أمك حصّة. بقيت واقفة تنظر إلى ابنها. مرتبكا كان غير قادر على النظر إلى عيني أمّه. انفرجت شفتاه غاضبا: فعلها الفلسطيني!

ما جاء في بالكم أن يكون المعني أبو سامح. أمك حصّة لا تزال صامتة تنظر إليه بعينين تقولان: "ماذا بعد؟"، ولا بعد أمام الرجل، بين النساء، عدا الذهاب إلى غرفته يجلب مفتاح السيارة. لحقت به خالتك عائشة. صاحت بها أم صالح تنهرها: عائشة! ابق هنا!

خرج عمك صالح من غرفته بغترة حمراء لُفها، حول رأسه، كيفما اتفق. اتجه إلى الخارج مطأطئ الرأس بدشداشته المنزلية. صاحت به زوجته تسأل عن وجهته. أجابها ماشيا:

"مخفر السرة.."

تبعته مُخذرة:

"عليك الله لا تروح.. أنا قلبي قارصني!"

نظر صالح إلى عينيّ أمه. كانت تحدّق فيه لا تزال. مضى في سيره. نبّهته عائشة تشبّثت بحُجّة:

"ولكن لوحة السيارة.. كويتية!"

توقف عمك صالح عند أول الممر يفكر. نظر إلى أمه. كانت تُحدّق في عينيه. نكّس رأسه ساهما. ما رأته ضعيفا حائرا كيومكم ذلك. فاجأك يناديك. نظرت إليه مرتبكا. سألك:

"وين القاري؟"

\*\*\*



## الفصل التاسع

فوق طبقات الغبار المتراكمة في حوش بيتك لمحت آثار خطوات، رسمتُ طريقها بدءاً من باب الحوش اختفاء وراء الباب الداخلي المفضي إلى غرفة الجلوس، ثم رسمت خطاً آخر من الداخل إلى الخارج. شغلك الأمر. الأكيد أنها لم تكن خطواتك أو خطوات فهد، يوم بحثكما عن جواز سفرك، قبل شهرين. كدت تدخل البيت متجاوزاً الحوش لولا خوفك من مجهول يتربص بك، وانصياعاً لتحذير خالك حسن من الدخول. عمك صالح ينتظر في بيته عودتك بالدراجة. سلمته إياها ورأسك يغص بأسئلة بعدد آثار الأحذية فوق الغبار في حوش بيتك.

خرج صالح، ولم يعد منذ أن غادر بدراجتك باحثاً عن عبّاس في مخفر السُرّة، حيث عسكر الاحتلال. آخر صورة تذكره فيها مطأطأ، في الحوش، يتحاشى نظرات أمّه، يطوي أطراف دِشداشته حول خاصرته، يركب الدراجة مثل طفل. آخر صوت له: "وين القاري؟" كل من في البيت يسأل يتحدث يدعو ويصلي إلا العجوز صامته على غير دأب. شاحبة. ترسلك عائشة إلى بيت



عبّاس. لا جديد بين نخب النساء عدا ضربات أمك زينب على فخذيها باكية:

"ما تُعرف إبراهيم.. والله ما تُعرف إبراهيم!"

تكرر ردّها على من اقتحم بيتها من الجنود يسأل عن صاحب الاسم. توسلت إليهم أن يتركوا لها وحيدها؛ "وليدي، الله يرضى عليك. ما بقلبك رحمة. بالله وبيك. داخلة عليك"، تظنُّ أن لهجتها شفيعتها، لعلها تُلين قلوبهم، ولكن، لسانها العراقي لم يفعل. ما من لهجة تحاور أوامر عسكرية لها لغتها الخاصة. مر يوم، يوم ثان، لا أخبار عنهما، صالح وعبّاس. هرع أقاربهما يبحثون. لا جدوى. كنت قد هاتفت خالك حسن تخبره بالأمر. وعدك أن يتصرف. طرق باب البيت بعد زيارة مخفر السُرّة وعدد من المدارس التي أحالتها القيادات العراقية مراكز لجميع المعتقلين: "لا خير.. لا يعرفون شيئاً" العجوز مضربة عن الطعام كما اكتشفت أنت وتينا. لا يدخل جوفها عدا الشاي شيء. تستلقي أسفل سريرها النحاسي ليلا. الغرفة مضاعة حتى وقت متأخر. تنلو العجوز ما تحفظ من آيات قرآنية بصوت مسموع وخشوع مضاعف. تأمرك بعد نفاذ مخزون ذاكرتها: توضاً. قبل أن تطلب منك الإمساك بالمصحف لقراءة آياته. تُبرر العجوز: لا أدري أين أضعت نظارتي. تديرها لا تقرأ. لا تملك نظارة. لم تخرج من دروس برنامج محو الأمية إلا بحفظ أرقام أعانتها على استخدام التليفون ومعرفة أسعار بضائع السوق المركزي. تديرها لا ترضى أن تبدي إليك حاجة. تحث خطوك، متفهما، نحو خزانها

الخشبية حيث المصحف: أنا أقرأ لك ما تريدن يُمّه حصّة. تملأ أنفك رائحة النفتالين بمجرد فتح باب الخزانة. تقرفص فوق مرتبتك على الأرض. تتمم العجوز: ألا يا من أعاد يونس من بطن الحوت.. أعده سالما. تفتح المصحف بين يديك تقرأ. يقاطعك طرق فوزية على الباب: "يُمّه.. لا تنسين الدواء" تتابع قراءتك لدقائق قبل أن تتوقف تذكّرها: "الدواء.. يُمّه حصّة!" تستأنف قراءتك وأنت تتابعها. تمسك العجوز بأشرطة الأدوية. تجمع في كفّها اليسرى أقراصا خمسة. تمسك، بالكف ذاتها، كأس الماء. تلصق كفها اليمنى بفمها تلتقم الهواء، قبل أن تمسك الكأس بيمينها تُقربه من شفيتها. عيناك على كفّها والدهشة في وجهك. تعيد العجوز كأسها بعد ارتشافها قدرا قليلا من الماء. تجمع أقراصها، خلسة، في مندبل ورقي. ترميه في سلة القمامة أسفل طاولة أدويتها. بقب طوال الليل تتساءل دون أن تجرؤ على السؤال. كنت بين نوم ويقظة عندما جاءك صوتها بما يشبه حلما: "يا شبّاب النار!"، حذرتك من أن تفشي ما رأيت. ولأنك تكره أن تشمك بقلب، أذعنت.

يوم ثالث منذ اختفائهما. عائشة متماسكة كما تعرفها، أو ربما تفتعل تماسكا. لا تكف اتصالاتها عبر الهاتف. تفرقع أصابعها. تقضم أظفارها. تختفي في غرفتها. تخرج بعينين متورمتين وأنف أحمر ينفلت صوتها عاليا تصرخ بفهد، تسمع جدّته: "راح أبوك!" تضغط فكّيها تشتم لا أحد. ترمق أمك حصّة بطرف عينيها: "حسبي الله على من تسبّب" العجوز التي لا يرتفع صوت في حضرتها تلوذ بصمتها، مخطوفاً لوها. وجهها باهت أصفر. أنت وحدك تعرف

أسباب ذبولها في حين البقية تردُّه إلى غياب ابنها. كنت في مازق بين أن تكون شَّبَاب النار أو حافظ السر. تحدَّق في وجهها في حين تهز رأسها بما يشبه صلاة. أمك زينب وخالتك فضيلة وحوراء، تناوبن على زيارة بيت آل بن يعقوب بوجوه مرهقة: "أي أخبار؟" لا أخبار. أمك حصَّة تذب، جفاف شفيتها يقلقك، أصابعها ترتعش. تقترب منها فوزية. تعانقها. تمسح على ظهرها تقول: "يا نظر عيني إنِّي" تذكِّرها: "أخذتِ الدوا؟" تهزُّ العجوز رأسها إيجابا. تجري أنت نحو غرفتها. يفزعك تضاعف أعداد المناديل الورقية التي تحوي أقراص أدويتها في سلة القمامة. وددت لو أنك تجرب الجميع، ولكنك لست شَّبَاب النار! تَبًّا! لو كنت شَّبَاب النار.. لو!

عائشة لم تقو صبرا، جميع إخوتها في السعودية: "لا حول ولا قوَّة" هاتفت خالك حسن ليصحبها إلى مخفر السُرَّة. ذهبتما، فهد وأنت، معها. لفتت انتباهك لوحة سيارة خالك لدى وصوله؛ العراق كويت. نقطة تُحسب لأبي فهد. ضايقت كثيرا انصياح خالك حسن. ما كدتم تخرجون من شارعكم، مرورا ببيت الزَّلَمات، حتى أوقف خالك سيارته يستطلع أمر صراخ نساء البيت. كان أبو طه ممدِّدا يحمل أخوه وأبناؤه إلى السيارة. أزمة قلبية. عرفتم في ما بعد أن الرجل سقط فور صدور قرار السلطات العراقية بمساواة الدينار الكويتي بالدينار العراقي، مع إعطاء مهلة اثني عشر يوما قبل محاسبة كل من يتعامل بالدينار الكويتية. لم يحتمل الرجل فكرة أن المئة ألف دينار حصيلة شقاء عمره في العمل استحالت في يوم واحد إلى ما يساوي ستة آلاف فقط!

ترجل خالك حسن وعائشة من السيارة، في حين بقيت وفهد داخلها أمام مخفر الشرطة الذي خلته، منذ إنشائه، مستشفى للطب النفسي كما أوهمكم مسلسلكم التلفزيوني الأثير. فرقٌ كبيرٌ بين طرافة مشاهد المجنونات وبين كآبة منظر العسكر في مخيلتك داخل المبنى الأحمر. تخيلت أبطال مسلسلك المحبب، محظوظة ومبروكة والدكتور شرقان ومدير المستشفى أبا عقيل، مقيدين بالسلاسل معصوبي الأعين، وفؤادة مكّمة الفم لا تقوى على الصراخ: "احموا الناس من الطاعون!" لم تمض دقائق حتى خرجت عائشة يصحبها خالك حسن يمسدُّ لحيته بوجهه محبط. لم تستدل عليه. ما كدتم تتعدون بالسيارة أمام مواقف السيارات حتى صاح فهد: "يُمّه! شوفي هناك.. القاري!" كانت دراجتك مربوطة بسلسلة إلى أحد القوائم. ارتفع صوت عائشة: "الله يلعن القاري وصاحب القاري!" غصت في مقعد السيارة يضغط فهد على ركبتك مهوّنًا.

بحث خالك حسن، في الأيام التسعة لفقدان جاريك، في كل الأماكن المحتملة. معتقل المشاتل ومراكز التحقيق المنتشرة في المحافظات وثلاجات حفظ الموتى في المستشفيات. لا شيء. أمك حصّة تضمّر لا تسمع لها صوتا عدا ترنمة خفيضة لا تميز إن كانت أغنية أو تلاوة قرآن. تقتعد كرسيها الخشبي قصير القوائم أسفل سدرتها. تنتفح جزا تنثره على الأرض تنادي: "تَعُ تَعُ" فوزية، بحجابها الملصق بجلدة رأسها، لا تخفي قلقا إزاء طارئ حلّ بأمرها.

كنت في غرفة الجلوس. يومٌ عاشراً منذ خرج صالح بدراحتك. انفجرت عائشة فجأة تصرخ في وجه العجوز المقرضة في زاويتها تفتعل انشغالا تحيط أبواب الـ "ساري" لـ تينا: حسي الله عليك ما رأيتُ امرأة بقسوة قلبك! ارتعدت أوصالك إزاء ارتفاع صوتها في حضرة العجوز. كانت أمك حصّة تدير آلتها تحدّق في موضع الإبرة دونما انفعال إزاء ثورة كتنّها: راح الرجل بسبب عنادك، لا أحد يفهمك في هذا البيت كما أفعل، احتملتك سنوات من أجل صالح ولن أحتمل المزيد في غيابه! زادت العجوز سرعة دوران آلة خياطتها تشغل نفسها عن سماع ما تكيله لها كتنّها من كلمات كالسكاكين. تقدّمت إليها عائشة. انحنى على آلة الخياطة تمسك عجلتها توقف هديرها. قرّبت وجهها إلى وجه أمك حصّة. همست: لن تعطينا ممّا أعطاك زمانك. هزّك ارتفاع صوتها أكثر: انظري إليّ! لم تقو العجوز نظرا إلى عيني كتنّها. مطأطئة. منكفئة على ذاتها، بثوبها البني الواسع، هزيلة مثل خيشة رُز مهملة. واصلت عائشة تضغط فكّيها تقول: تريدني مثلك أرملة شهيد؟ عينا أمك حصّة على موضع الإبرة لا تزال. عينا عائشة على وجه العجوز: تتوقين لرؤية فهد مثل ابنتك مريض بلا أب كي يستريح قلبك؟ كرّرت تأمرها صارخة:

"حِطِّي عينك بعيني!"

رفعت العجوز رأسها تنظر إلي عيني عائشة. تفرّست وجه أمك حصّة. عيناها حمران بلمعة تسبق الدمع. شفتها السفلى ترتعش.

رَن جرس الباب. خرجت العجوز من صمتها تشهق، كأنما مسَّتْها  
كهرباء. انفلتت دموعها سخية على وجهٍ يتسم وسع شفّتيه:

"وليدي صالح!"

\* \* \*



## الفصل العاشر

ألقي القبض على عبّاس بسبب خراطيش فارغة عثر عليها جنود الاحتلال في الساحة المزروعة أمام بيته. حدث ذلك أثناء الحملة التفتيشية، بعد أن أطلق الشاب المجهول أعيرة نارية على رتلٍ عسكري يعبر شارع علي بن أبي طالب في طريقه إلى الجسر الواصل بين السُّرّة والجابرية. وجود أغلفة الطلقات، في حد ذاته، إدانة لصاحب البيت رغم خلو بيته من السلاح. ما كنتم لتعرفوا هذه التفاصيل لولا أخبركم أبو سامح الذي كان وراء رنين جرس الباب نهاركم ذاك. جاء من دون عربة الآيس كريم. مدّ يده إلى عائشة بورقة وقال إن كلاهما، عبّاس وصالح، هناك. قرأت أم فهد بين ما دُوّن في الورقة: "دائرة الأمن في البصرة" ضربت صدرها بكفّها: "البصرة؟! نظرت إلى فهد. تذكرت أغنية أمّ: "وين راح أبوي؟ راح البصرة.. راح البصرة!" نظرت عائشة إلى عيني الرجل الذي همّ ينصرف. "برّد!"، استوقفته تناديه بندااءته. انفلتت منه ضحكة لا تشبه ضحكة: "بطلنا نبيع!" استمهلته: "إصبر.. لا تروح.. عليك الله!". دعت له للدخول إلى الديوانية في ملحق البيت المطل على الحوش.



تَلَفَّتَ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ: "لكن بسرعة" جاء خالك حسن مليا هاتف عائشة. اجتمع بالرجل ليعرف منه التفاصيل. لا تفاصيل عدا أن تهمة صالح هي سؤاله عن عباس، ولا تهمة لعباس عدا خراطيش الطلقات الفارغة أمام بيته. لا شأن لعباس على ما يبدو بأغلفة الذخيرة الفارغة، يقول أبو سامح، أغلب الظن أنه إبراهيم منصور، أو المنير.

"عبداللطيف المنير؟"

سأله خالك متجاوزا اسم إبراهيم منصور. ولكن الرجل لا يتذكر اسمه الأول، قال إنه كان يراه في السوق المركزي لجمعية السُرَّة، وكثيرا ما كان يمر أمام بيته بعربة الآيس كريم، وأخيرا أصبح يراه في شوارع السُرَّة يطوف بسيارة جمع النفايات قبل أن يتوارى عن الأنظار. قيل إنهما، إبراهيم منصور والمنير، يعملان مع جماعة جاسم المطوع المسلحة. كلاهما مطلوب للجهات الأمنية العراقية بعد اعتقال جاسم. تبادلتما النظرات أنت وفهد. أنتما تذكران الاسم جيدا. جاسم الخبز والجبن والمنشورات. توقفتما عند عبارة اعتقال. يقول الرجل، وشى أحدهم بجاسم، أُفْرِج عنه بعد اعتقاله وتعذيبه، بقي تحت المراقبة بغرض اكتشاف بقية أفراد المجموعة، اعتُقل مرة أخرى. امتقع وجه خالك حسن: من أين لك كل هذه التفاصيل؟ من أخبرك بهذه الأسماء؟ ارتفع صوت أبي سامح. ردَّ كمن تلقى إهانة: دفنتُ ثلاثة من أخوتي في هذا البلد.. أنا كويتي أكثر منك! تمالك أعصابه وهو يستطرد: أطوف شوارع السُرَّة منذ ما يزيد على الستة عشر عاما يا أبا ضاري، أعرف جاسم جيدا، وأعرف

عبداللطيف شكلا، وحده إبراهيم منصور لا يبدو من أبناء السُّرَّة. فتح خالك زرَّ دِشداشْتَه. نظر إلى عيني الرجل يظن اتهاما: من الذي وشى بالمطوِّع؟ أجابه أبو سامح: رجل عسكري يعمل في الجيش، تقربَ منه، كشف سيره. مسدَّ أبو ضاري لحيته. واصل استجوابه: الجيش العراقي؟ هزَّ أبو سامح رأسه يؤكد: الجيش الكويتي. انفعل خالك حسن: هذا غير صحيح. أصرَّ أبو سامح: هذا صحيح. تملمت عائشة في جلستها. أطلقت زفرة تنبَّه لها خالك حسن. سأل الرجل: من أخبرك بمكان صالح وعبَّاس؟ نهض أبو سامح يرفع ذراعيه: لا تورطني أرجوك سوف يخربون بيتي لو

هزَّ خالك حسن رأسه في خيبة. ضيق عينيه يسأله مقاطعا: أفا! تعمل معهم يا أبا سامح؟ انتفض الرجل: معاذ الله! ولو! عيب علي يا زلَّمة! استل نفسا قبل أن يُطأطئ مستطردا: لو أجبته فسوف تضعنا كلنا في كفة واحدة.

\*\*\*



## الفصل الحادي عشر

كانت زيارتك الأولى للعراق. قطع خالك حسن طريق سفوان متجهاً إلى البصرة. الطريق رغم قصرها طويلة. جهاز تبريد الهواء ينفخُ منها ريماً رغم اعتدال الطقس خارج السيارة المخنوقة بأنفاسكم، بالكاد يلف الجوّ داخلها. المحميات الزراعية تتناثر على جانبي الطريق. تشاهد أشجار أثل متفرقة غير بعيدة. كنت تلتفت تكتشف جدّة الأشياء وراء زجاج النوافذ. وجوه المزارعين. الغترة البيضاء المرقطّة بالأسود. أنابيب الآبار الارتوازية، وبيوتاً طينية صغيرة متناثرة في المساحات الفضاء. طرقٌ شبه معبّدة على جانبي الطريق تسلكها سياراتٌ عسكرية تمضي في الصحراء نحو وحداتٍ عسكرية. الصمت هو كل ما يجمعكم. تنصتون إلى صوت الإذاعة. ثقبٌ صغير تنفذ إليكم من خلاله أحوال العالم. كنتم تحشون أن يمر الموجز من دون ذكر للكويت. تفرعكم فكرة أن يُنسى أمركم. مذيع ومذيعه يتناوبان قراءة موجز الأخبار. مشايخ اليمن يقفون موقف المملكة العربية السعودية ضد رئيس بلادهم الداعم للعراق. تنصت في داخلك إلى نداءات بائع الصرّة: "خام.. خام" إيران تعلن أنّها مع

دول مجلس التعاون الخليجي لإيجاد حلٍّ سلمي للأزمة. يقفز في مخيلتك وجه حيدر البَقَّال بابتسامته ذات السن الذهبية. هكذا كانت الوجوه والأصوات تستدعي نفسها مع كل دولة يشار إليها في خبر. تينا. الأستاذ دسوقي وجابر المصري. شاكر البهري وعلامين البنجابي. الحلاق الباكستاني مشتاق. عدنان السوري والأستاذ مُرهف. زميل الفصل عبدالفضيل السوداني وآخرون. كنت من دون قصد تقولبهم. تُعلِّبهم. تضعهم في مراتب مختلفة وفقا لمواقف أنظمتهم. كنتم، رغم ظرفكم، كمن حقق انتصارا إزاء سماع خبر رياضي وقت الموجز، على غير عادة: بكين تطرد العراق من الألعاب الأولمبية. جاءت كلمة طرد تعويضا عمَّا لم تقدرُوا عليه إزاء العسكر في وطنكم.

خالك حسن خلف المقود. ابنه ضاري لصق الباب، تشاركه المقعد في المقدمة. عائشة وفضيلة وحوراء وصادق وفهد في المقاعد الخلفية. تكدَّستم في السيارة كما نصح أبو سامح خالك حسن: خذ معك النساء والأولاد تسهيلا لزيارة المعتقلين. تركتم أمك حصَّة في البيت، برعاية أمك زينب وفوزية وتينا. لم تتمكن من السفر بسبب سوء حالتها بعد تلقيها أخبار أبي سامح. خالك يعرف الطريق جيدا، يزور سنترال البصرة، منذ أيام الاحتلال الأولى لإجراء المكالمات الدولية مع أقاربكم في الخارج. أثناء الطريق، مرورًا بمدخل الشارع المؤدي إلى قضاء الزبير، أشارت فضيلة إليه أن يعطف يسارًا. صوّبت سبَّابتها نحو جامع يبدو بعيدا، تميّزه منارة أثرية. طلبت النزول هناك: خمس دقائق.. لن أتأخر. تفهّم خالك حسن

رغبتها. أوقف السيارة بالقرب من جامع خطوة الإمام علي في الزبير. ترجلت فضيلة يتبعها التوأمان حوراء وصادق. مدَّ فهد ذراعه من مقعده ورائك. قرَّص أذنك. تجاهلته. سأل ماذا يفعلون؟ لم يجبه أحد. مكثت فضيلة مع التوأمين قرابة العشر دقائق، تتوسل وتتهل للإمام أن يرد لها غائبها. عادت بوجه مطمئن قبل أن يدير خالك سيارته نحو مركز مدينة البصرة.

تذكر جيدا كيف كان خالك، في سنترال البصرة، باهتا. مدَّ يده إلى موظف السنترال بورقة تحمل أرقام هواتف مختلفة. أشار الرجل نحو إحدى الكبائن. مر الوقف سريعا. لا تتذكر عدا صوت والدتك عبر الهاتف تتخلل نشيجها جملٌ مبتورة. سرعان ما انتهت المكالمات لتتوالى المكالمات الأخرى على عجل. خالك حسن يطبق كفه المرتعشة على سماعة الهاتف. تتذكر حزنا يغلفُ صوته كأنه يلقي رموزا في بيت قصيدة: "راح، قبل يومين، هو وفايز كنعان أمام بيت الأخير في الفيحاء.. لم أكن في البيت. ولدي ضاري شاهد كل شيء"

أمام مبنى دائرة الأمن أوقف خالك سيارته. ترجَّل يصحب عائشة وفضيلة والأبناء في حين أبقاك وضاري في السيارة. الفناء المقابل للمبنى يغص بسيارات تحمل اللوحات الجديدة، العراق-كويت. عائلات كثيرة تسأل عن أبنائها تتحرى خبرا أكيدا. مر وقت طويل. ضاري لا يبعد عينيه عن باب المبنى يقضم أظفاره: تأخو أبي! استفهمته عن سبب قلقه، متجاوزا علَّةً في لسانه لم تألفها قبلا. عيناه مصوبتان نحو الباب. تكثفت أنفاسه على زجاج

النافذة الجانبية: أخشى أن يُمسكوه. شيء من قلقه انتقل إليك. ارتعشت شفتاه قبل أن تنفرجان عن جملته: ذبحوا عبداللطيف وفايز كنعان، وصَوَّبُوا شخصا آخر. شرع يصف المشهد على الرصيف المقابل لبيتهم، تلفتُ انتباهك، مرة أخرى، استحالة الرأء واوَأُ على لسانه لدى نطقه الرصيف. بقيت سنوات لا تفهم خللا حلَّ بلسانه. كيف تحوّل ضاري إلى ضاوي؟

سألته عن الشخص الثالث: قد يكون إبراهيم منصور الذي أخبرنا عنه بائع الآيس كريم. نفض رأسه مؤكدا عكس حدسك. استشعرت دفئا أسفل فخذك الأيمن تشرِّبه مقعدكما. عاود ضاوي قضم أظفاره كأنه يوشك أن يلتهم أصابعه. أردف ونظره وراء الزجاج: رأيتهم من نافذة غرفتي قبل يومين، لا تزال بقع الدماء البنية المتحجرة هناك، بقع دماء وجزء من جلدة رأس مسلوخة على الرصيف، شكل الشعر والدماء والـ... .

لاذ بصمته. لزمك الأمر وقتا لتدرك أن من راح هو عبداللطيف المنير. وجدت تبريرا لاختفاء سيارة النفايات وعودتها لاحقا يقودها الرجل المثلث وحيدا، يكفي بتبنيهم بواسطة نفير السيارة إلى طوافه في شوارع المنطقة، بعد سقوط صاحبه متورطا بعمليات مسلحة. قهمل وجه ضاوي عندما كشف باب المبنى عن أبيه بعد حوالي ساعتين انتظار.

عاد حسن تتبعه وجوهٌ محبطة. نظرت إلى عائشة وفضيلة، يتبعهما الأولاد، مثل دجاجتين وأفراخهما. تخالهما أختين، بنفس

الوجوه المحمرة اللامعة. في المصائب كل الوجوه تتشابه. تكدّس الجميع في السيارة. نظر خالك إلى ابنه تدفعه الرائحة. فتح زجاج النوافذ. همّ ينطلق لولا ظهور رجل عسكري عند باب المبنى. أشار له أن يترجل. تحدّث العسكري إليه. كان خالك حسن يهزُّ رأسه منصتا قبل أن يعود إلى السيارة يخبر فضيلة وعائشة: يريد مالا سألته خالتك فضيلة: كي يطلقوا سراحهما؟ أجاها: كي يسمحوا بزيارتها هار غد. عدّ خالك دنائره العراقية: لا تكفي! بكت فضيلة. عائشة تعض شفتها السفلى تنظر إلى لا شيء. دسّت فضيلة يدها داخل ثيابها تُخرج عُقدا وأساور ذهبية: "هذا كل ما لدي!" رفض خالك حسن المحازفة برشوتّه ذهبًا. أدار محرك سيارته باتجاه شارع الكويت. لفت انتباهك الاسم الممنوع في وطنك. تعرف الكويت وطنا. تعرّفت إليها، في العراق، شارعًا. أوقف خالك السيارة في ساحة قريبة. استأنفتم الطريق مترجلين صوب سوق الصاغة في العشار نهاية سوق المغايز، مرورا بمحال التوابل في سوق الهنود. أجواء شبيهة بشارع الغربللي في سوق المباركية في الكويت لولا اختلاف اللهجة. دكاكين شعبية على جانبي السكّة. ساعات وملابس وأحذية وسجّاد وأوانٍ ومحال صيدلة وندرمة. لفت انتباهك العراقي هناك، لا يشبهه في أرضك. لا علاقة للزّي العسكري بالأمر. شيء تجهله يُفرّق بين الإثنين.

دخلت وصادق وحوراء، مع خالتك فضيلة، محل ذهب. محل صغير منخفض السقف بإنارة خافتة. وضعت فضيلة عُقدها وأساورها فوق المنضدة الزجاجية أمام البائع العجوز الأصلع كث



الشارب. سألها بصوتٍ مدخنٍ عتيق: رهن؟ هزّت رأسها: بيع. ثبت الرجل نظارته على أرنبه أنفه مكوّراً شفثيه يتفحص العقد بأدواته. ينقل نظره بين العقد وبينكم يتفرّس وجوهكم. سأل قبل أن يزنه: من الكويت؟ أو مأت فضيلة موافقة. كان غريبا على أذنيك سماع الاسم، كويت، في العراق وهي الكلمة المحظورة في وطنك؛ محافظة النداء. تنحج الرجل. قال: اعذريني لو سألتُ. نظر نحو الباب قبل أن يردف سؤاله عن حاجتها إلى المال. غطت فضيلة وجهها بجزء من عباءتها تخفي بكاء. طلب منها الجلوس. غاب في غرفة جانبية لها باب صغير يحمل الأساور والعقد. عاد يحمل مطروفا ورقيا وكأس ماء ناولهما أم صادق. نهضت تومئ له شاكرة قبل أن تمضي إلى الخارج من دون أن تحصي الأوراق النقدية في المطروف. "الله يساعداكم"، قالها الرجل عند باب محله مودّعا.

في السيارة، ناولت فضيلة خالك حسن المطروف. مزق طرفه. أخرج الأوراق النقدية يحصيها. التفت إليها مستنكرا: "بس؟" عاود النظر إلى داخل المطروف الورقي. دسّ كفه. اتسعت حدقتاه ينظر إلى أم صادق. أخرج العقد والأساور الذهبية. سألها: ما هذا؟!

\*\*\*

## الفصل الثاني عشر

تطلبت زيارتكم لصالح وعبّاس أن تمكثوا ليلة في البصرة. الليلة، بسبب إجراءات الزيارة، صارت ليلتين. التقيتم عبّاسا وصالحا في هاركم الثالث. بعد قضاء ليلتين كئيتين في غرفة في فندق حمدان تطلُّ على نهر العُشَّار، اضطررتم خلالها للنوم على ضوء الصباح بسبب ضاوي: "أخاف من الظلمة" في حين قضى خالك ليلتيه متقلبا فوق المقعد الخلفي لسيارته عوضا عن تأجير غرفة، توفيرا لمال زيارة المعتقلين اللذين عُرضوا، في اليوم الثالث، مقيدين بين عشرات شباب وشيوخ كويتيين أمام أهلهم. لم تتجاوز الزيارة نصف الساعة، لا تذكر منها عدا نشيح النساء، واحتلاط الدمع بالعرق، والذعر على وجهي جاريك حليقي الرأس في ساحة ترايبة صغيرة بعد إزالة العُصابتين عن أعينهما. لم يتجاوب العسكر مع توسلاتكم في تمديد وقت الزيارة. متى يُطلق سراحهما. لا جواب. لاشيء معلوم قبل المحاكمة، قال رجل عسكري. جاء وقع الكلمة، محاكمة، كبيرا في نفوسكم، ورغم اللقاء عدتم إلى الكويت بقلق أشد.

ما إن دلفت السيارة شارعكم حتى لاحظتم زحمة السيارات أمام بيت الزَّلمات. كانوا يستقبلون المعزَّين في وفاة أبي طه الذي لفظ أنفاسه الأخيرة في المستشفى بعد غيبوبة دامت أسبوعين. تذكرت وجه الرجل خائبا إزاء استقبال عمك صالح عند باب بيته قبل أسابيع. سألكم خالك حسن: هل ستذهبون لتعزيتهم؟ أجاب فهد نيابة عنك وصادق: "أبوي ما يرضى لم يُجب خالك. همستَ بأذن فهد: نسأل أُمي حصَّة. تعرفها ستدفعكم لتعزية من شاركتموهم لعب كرة القدم في الساحات الترابية لسنوات.

ما كان مقدرًا لك أن تسألها. ما جاء في بالك أن غياب ليلتين في العراق من شأنه إحالة أمك حصَّة إلى كتلة آدمية مثل كومة ثياب رثة على فراش المرض. سقطت أثناء غيابكم بعدما هدَّها التعب. أمرت بأن يوضع سريرها النحاسي في غرفة الجلوس، مقابل المرمر، حتى إذا ما أقبل صالح تلقَّته فور دخوله. لم تقو حراكا، متأملة عودة ابنها معكم. لم يتوقف حرق البخور بانتظار أن يكشف عنه ممر غرفة الجلوس. أسرع أنت وفهد بالدخول تسبقان الجميع. أفزعك وجه أمك حصَّة. مغمضة عينيها. فاعرة فمها، بما يشبه ابتسامة، من دون أسنان. بدت امرأة أخرى تكبر تلك التي تعرفها بسنوات طويلة. أمك زينب تقرأ القرآن عند رأسها. فوزية تمسح العرق عن جبينها، وعلى الأرض إلى جانب السرير تجلس تينا تُدلكُ ساقها. ركضت صوبها. سألت أمك زينب: هل عدتم بهما؟ لم تجبها. اكتفى فهد بهز رأسه، يقف إلى يمين السرير النحاسي، ينظر إلى وجه جدِّته الجديد. قرَّبت وجهك إلى وجه أمك حصَّة، مادًّا عنقك أسفل أنبوب المغذي

المعلق في حامل معدني إلى جانب سريرها. إبرة المغذي، كأنها مغروسة في قلبك. تحترق جلد كفها. تغوص في عرقها النافر. ترسم بقعة زرقاء داكنة. كنت تنصت إلى نبضك في أذنيك. تشعر بتدفق الدم في صدغيك. تكتم عبرات غلبت فهذا. قَبَلت جبينها: "يُمّه حصّة شلونك؟" لا ترد. تسمع صفير أنفاسها البطيئة. أنت تعرفها من دون أسنان تتحدّث كثيرا. ما بالها الآن صامتة. ترفع صوتك تحدّثها لعلها تستجيب. شرعت تطمئنّها: "عمّي صالح بخير جاء اسم ابنها كروح دبّت في جسد ميت. رفعت ذراعها ترتعش. فتحت كفها تنثر لا شيء في الهواء. حرّكت شفيتها طويلا. بالكاد خرج صوتها رقيقا يرتجف: "تَعّ تَعّ" طفت ببصرك على من حولك ترجو إجابة: ما بها؟ أطبقت أمك زينب مصحفها فور دخول عائشة وفضيلة. سألت: أين هما؟ هزّت عائشة رأسها. اكتفت تطمئن على غير عادتها: هما بخير.. سوف يُطلق سراحهما قريبا. نظرت أمك زينب إلى وجه جارّتها العجوز. لا تزال تردّد: "تَعّ تَعّ" حدّقت أم عباس في عائشة. قالت: لو عدتم بصالح، الآن، صالح على الأقل. انتفض جسدها تكتم نحيبا.

مرّت أيامٌ ثلاثة ثقيلة. يزوركم خلالها طبيبٌ فلسطيني يعمل في مستشفى هادي في الجابرية. هو من اكتشف، يوم سفركم، عزوف العجوز عن أخذ الدواء. يستبدل أكياس المغذي. لا يخفي قلقا: حالتها غير مستقرة. سيارات الإسعاف، وأهمّ المعدّات الطبية، سلكت طريق اللاعودة ناحية حدود الشمال منذ الأسابيع الأولى للاحتلال. العسكر

الذين سمعت عنهم كثيرا أصبحت تراهم بشكل يومي. تميزون حرسا جمهوريا عن جيش شعبي بألوان طاقياتهم. يقتحمون بيت آل بن يعقوب والبيوت المجاورة يسألون عن إبراهيم منصور المتواري عن الأنظار. يطأون السجّاد بأحذيتهم العسكرية يركلون أبواب الغرف. يحققون معكم. مع الخادمة. مع العجوز التي تجيهم "تت" تارة و"كش تارة أخرى. ينصرفون: "عجوز خرفانة!" في اليوم الرابع لعودتكم من البصرة كانت أمك حصّة في طارئ جديد على حالة جديدة. محاطة بالجميع. عائشة وفوزية وفهد وتينا وأمك زينب. شفتاها، مسحوبتان إلى ثغرها، لا تكفّان عن الحركة من دون أن تلفظ كلمة مسموعة. كلمات هوائية دافئة تنطلق من فمها مهجور الأسنان. قرّبت أذنك من شفيتها لعلك تلتقط جملة. غريبة رائحة ثغرها. عائشة تجلس بالقرب من تمثال أمك حصّة. تسند مرفقيها إلى ركبتيها. تحمل وجهها بين كفيها تحدّق في أرض غرفة الجلوس. لفت انتباهك التمثال عاريا من عبائه المثقبة. مهملة على الأرض أسفل القوائم المعدنية الثلاثة. كانت الدائرة الصغيرة أعلى عدسة الكاميرا الـ HITACHI تومض لونا أحمر. تعرف جيّدا ما يعنيه ذلك. لم ينتبه لاستغرابك أحدّ عدا تينا تنظر إلى الكاميرا. نظرت إلى عائشة. لكزتك هامسة: امرأة مجنون. أوقفت أمك حصّة حركة شفيتها. فتحت عينيها على اتساعهما تحدّق في سقف غرفة الجلوس كأنها تهجى حروفا في الهواء. أمسكت كفها بلطف خشية أن تؤلمها إبرة المغذي. باردة كانت. ارتبكت فوزية. "يّمّه.. يّمّه" فمها مفتوح لم يزل. تسارعت حركة بؤبؤها تُمشطُ السقف هبوطا نحو الممر وراءكم. "تّع" "تّع" اختلجت

عروقتها النافرة في رقبتها. ضغطتُ كَفَّك. أغمضت عينها اليسرى. بقيت اليمنى مفتوحة، ثابتٌ بؤبؤها على الممر. أرخت قبضتها. حرَّرت كَفَّك. لا تتذكر عدا الأصوات تنطلق في اللحظة ذاتها. نشيخُ هارموني وداعي: يُممه يُممه.. أم صالح.. يُممه يا نظر عيني.. خالتي.. ماما كبير.. يُممه حِصَّة! سحبت خُطاك نحو تماثلها في الزاوية مثل رجل آلي مأمور. تدريها لا تتحرك. تستحيل صنما إذا ما واجهتها عدسة الكاميرا. "أنا أصحياها" لم يسمعك أحدٌ وأنت تقول. وقفت وراء تماثل أمك حِصَّة في زاويته لا تعي فعلا أقدمت عليه. أدت وجه الكاميرا إلى الجدار، بعيدا عن وجه العجوز ذي العين المفتوحة على ممر بيتها. صحت بأعلى صوتك تُنبِّهها متجاوزا نخب غرفة الجلوس: "تستحين من الكاميرا يُممه؟! " بقي الصنم ساكنا. نحبيهم إزاء الفجعة لم يمنعهم يصمتون ينظرون إليك. انحنت أمك زينب تحمل العبء من الأرض أسفل الكاميرا. رمتها مثل شبكة صيدٍ على جسد جارها تغطيه. تقدَّمت صوبك. عانقتك. غاص وجهك بين رقبتها ووجهها. لها رائحة أمك حِصَّة. كنت تغالب نشيجك: "بيبي زينب.. شفيكم؟! " يأتيك صوتها، واهنا، تئنُّ عند أذنك:

يا حَبِيبَةَ قلبي يا أم صالح..

يا حَبِيبَةَ قلبي يا حِصَّة..

أغَمَضْتُ عينا مطمئنة على أهل بيتها..

أبقت عينا تتحرى عودة صالح!

\*\*\*



## الفصل الثالث عشر

أنتم لا تكون موتاكم، أنتم تكونونكم بعدهم. تكون ما أخذوه برحيلهم. يخلفونكم بلا جدار تتكون عليه، وأمك حصّة جدار، رغم تصدعاته، كان متكأكم الآمن. ترك غياها غصة في حلقكم، لا أنتم قادرون على لفظها ولا على ابتلاعها. رحلب. شعرت وكأن بيت آل بن يعقوب بلا سقف يحميه. أخذت معها أجمل ما في بيتها؛ صوتها الأخضر، رائحتها الخليط من كلونيا أم بنت والصابونة الحمراء والنفثالين ودهن العود والحناء، هدير مكنة خياطتها، ضحكة تينا وانخفاض صوت عائشة وبصر فوزية. بكى من حولك كثيرا. كلما تمالكت نفسك انفجر من أمامك باكيا يستدر دموعك. تهرب إلى عائشة تستمد شيئا من صلابتها. كان يوما أطول من سائر أيامك الطويلة وقت الاحتلال. كنت مشدوها إلى حدّ عجزت معه على البكاء. فهد كان مثلك تماما. تجلسان في زاوية غرفة الجلوس، بالقرب من تمثال أمك حصّة، بجواسٍ تلتقط كل ما يجري. لم يقترب منك الموت قط إلى هذه الدرجة. حتى استشهاد عبداللطيف المنير ووفاء أبي طه مرّ تأثيرهما سريعا. فوزية في غرفة أمها تقفل الباب. أنت



لا تفهم، أو لا تريد أن تفهم، لماذا أمك حِصَّة في الحَمَّام تغسلها أمك زينب مع امرأة غريبة بصابون السِّدر الذي كانت تصنعه في حياتها، صابون سِدْرَتِهَا، سِدْرَةَ العِشَاقِ ومِسْكَنِ الجِنِّ الأَمَنِ. كل شيء جديد. الشعور بالفقد وعدم التيقن منه بعد. هي لا تزال في البيت. حتى الكلمات التي قيلت في ذلك اليوم، لم تألفها، أو لم تعرف لها سببا. تخرج أمك زينب من الحمام مُشْمِرَةً عن ساعدين يقطران ماء. تحدّث عائشة.. كفن، كافور، رغوّة السِّدر، قطن ونايلون. بيبي زينب! ماذا تفعلون بأمي حِصَّة؟ لم تجرؤ على السؤال. أنت تعرف أنّها تحب صابون السِّدر كما تحب أشياءها الخاصة. وددت لو أحضرت لهم، من خزانتهما، كلونيا أم بنت تعطر بها كفيها، ودهن العود لتضع قليلا منه خلف أذنيها بطرف سبّبتها. لم تصدّق أن المرأة المكفّنة المحمولة على نقالة هي أمك حِصَّة. التصقت بتمثالها أكثر أطبقت كفك على طرف عباءته. أخبرت مغسلة الموتى: وجهها مضىء تبارك الله، لكن عينها اليمنى، سبحان الله، مفتوحة! دخل رجلان يحملان نعشها. أيقنت أنك لن ترى العجوز مرة أخرى حينما توارت وراء المر المفضي إلى الخارج. يشيعها أهل بيتها وجاراتها ونساء من أهلها لم تعرفهم قبلا. فوزية تنتحب بحرقة. تينا وفهد وعائشة وأمك زينب وخالتك فضيلة وحوراء، وأخريات يلتحفن السواد. يبكين وراء جثمانها المربوط بخيوط مثل خيمة مطوية مهملة في مخزن. نهضت راکضا ما إن ارتفع نحيب النساء في الحوش. لم تستطع اقترابا إلى ذلك الجسد الممدّد على نقالة الموتى كما فعل الجميع. التصقت بالسِّدْرَةَ تُرسل نظرك يشيعها. لم ينتبه أحدٌ سواك

إلى الدجاجات، في القفص القريب، ترفع رؤوسها إلى السماء، مغمضة أعينها، تفرغ. لم ينتبه أحدٌ إلى هديل الحمام في السدرة، متناغما بما يشبه عرفا جماعيا وراء الأغصان المتشابكة والأوراق، في مسكن الجن، سيدة العشاق.

تزاحمت النسوة مع فهد عند باب الحوش ما إن ارتطم باب سيارة نقل الموتى. مشرّبة أعناقهم، يرسلون نظراتهم وراء السيارة وهي تقل الجنمان تحتفي آخر الشارع، تتبعها، إلى مقبرة الصليبيخات، سيارتا خالك حسن وأحد أقرباء العجوز.

أنت لم تعرف أنها لا تأتي فرادى، في يومكم ذاك وحسب، اكتشفت أن المصائب إن أقبلت، أقبلت تمسك إحداها بيد الأخرى. إلى حدّ تجهل فيه علام تبكي. كنت في غرفة فهد تنام ليلتك، في حين تركتم فوزية تنام في غرفة أمها تحتضن وسادتها. استنزف الحزن تلك التي ما نادت أمها إلا بـ يا نظر عيني. لم تقف فوزية في عزاء أمها، ولم تفعل عائشة التي بقيت معها في مستشفى مبارك في الجابرية، أو حسب تسميات مستجدة، مستشفى الفداء في منطقة الأحرار، طيلة أيام ثلاثة مع فهد، في حين غص بيت آل بن يعقوب بالمعزيات. تجلس أمك زينب في الصدر، أول الصّف، تعزيها النسوة أولا قبل مرورهن على قريبات الراحلة. كنت في الديوانية معظم الوقت مع صادق. تراقب الجنود من النافذة المطلة على الشارع. يركنون سيارتهم العسكرية مقابل بيتك. يراقبون بيت آل بن يعقوب بحجة: ممنوع التجمّعات. تعود عائشة في الليل تاركة ابنها في المستشفى إلى جانب عمته. لم تفهم منها ما قاله طبيب فوزية. بسبب

مرض السكري. بسبب إهمال العلاج. هُتِّك الأوعية الدموية. تلف الشبكية. الذي فهمته وحسب؛ أن فوزية عَمِيَت. "قليلة حظ"، تذكرت قول أمك حِصَّة. لم تفكر كيف تستأنف فوزية حياتها في الظلام. كل ما جاء في بالك هو روايات إحسان عبدالقدوس في غرفتها. كيف تقرأها. تذكرت وعد صالح. سوف تكملين دراستك ما إن تُفْرَج. متى يعود صالح. متى تفرج. وكيف لفوزية، وحالها تلك، أن تلتحق بالجامعة؟ أسئلتك التي كانت تزعج الجميع استوطنت رأسك. لا أحد يملك أن يجيب، ولا أنت قادر على ممارسة السؤال. ما كادت أيام العزاء الثلاثة تنتهي، أخذت معها سواداً لِفِّ بيتكم، حتى انتشر في السُرَّة كلها خبرٌ. أُفْرَج عن جاسم المطوِّع. اقتيد إلى بيته. اخترقت رأسه رصاصة أمام أهله. حرَّ صريعاً عند الباب. ما كادت السُرَّة تتجاوز حزنها على عبداللطيف حتى استجدَّ الحزن بفقد جاسم.

كانت عائشة في بيت عمك عَبَّاس صباحاً، الأسبوع الثاني من نوفمبر، بعد مرور أربعين يوماً على وفاة أمك حِصَّة. أقامت لها أمك زينب مجلس عزاء في أربعينيتها. ليست جديدة عليك الكلمة. أربعينية. تذكرت انزعاج عمك صالح في المرة الماضية. الأربعينية التي أقيمت، قبل شهور، في جامع الإمام الحسين لمن أدانتهم المملكة العربية السعودية بتفجيرات مكَّة.

غص بيت عمك عَبَّاس بالمعزين، وغص شارعكم بجنود الاحتلال بحجة التجمعات إياها. لم يهتم لأمر الأربعينية أحدٌ، ربما، بقدر فوزية التي نادتك أنت وفهد وضراوي: "خذوني إلى بيت

عبّاس"، رغبة بحضور عزاء لم يتسن لها حضوره قبل أربعين يوماً. أسِفَتَ لمنظرها. يعاونها فهد في اختيار ملابسها وحجاب رأسها الذي بدأ ينمو فيه الشعر. لا تملك عباءةً ضرورةً حضور العزاء. اقترح فهد: عباءة التمثال! زجرته: إياك أن تعرّي أُمِّي من عباءتها! غص فهد بعبرته. لم تستغرب قولها. كنت مثلها، تشعر أن أملك حصّةً هي من يقفُ هناك في زاوية غرفة الجلوس. تراقب أهل بيتها. تطمئن إلى أن شيئاً لن يتغيّر برحيلها. أحضر فهد عباءةً من خزانة أُمه. شدّدت فوزية قبل ارتدائها:

"إحلف إنها مو عباية أُمِّي؟"

أقسم لها فهد بأنه لم يقرب التمثال. توعّدته:

"والله إذا شفت الكاميرا بدون عبّاية.."

لم تُكمل. حجبت وجهها بكفّيتها. بكت. منذ ذلك اليوم صرت أنت بصرها. أمسكتما بساعديها تقودانها إلى بيت الجار يتبعكم ابن خالك. تمشي بخطوات مضطربة فوق الحشائش اليابسة بين سَعْمَرانة وبرحيّة. لفتَ انتباهك اختفاء الجنود من الشارع. تركتما فوزية في غرفة الجلوس هناك بين نساء كثيرات يتوشحن بالسواد. يجلس بعضهن على كراسٍ، والبعض الآخر يقعد الأرض يستمع إلى ترتيل الملائية بخشوع. أملك زينب ساهمة تُمرر خَرَزَ مسبحتها بين أصابعها تتمتم. وجدتم صادقاً عند باب البيت. أخبرك مُشيراً بذقنه إلى بيتك: هناك جنودٌ في الداخل! أوضح مرتبكاً إزاء

صمتك: تسلق أحدهم السور. فتح الباب للبقية. مكثوا قليلا. خرج بعضهم، ولكنني متأكد أن بعضا آخر لا يزال في الداخل!

خلعت نعليك. تسلقت إخلاصة المطلة على بيتك. التفتت إلى فهد:

"فهد! عدل نعالِي"

انحنى فهد على نعلك المقلوبة يديرُ باطنها إلى الأرض بشفتين تشبهان هلالا مقلوبا. استقام ينظر إليك يعينين حمراوين. تشبَّثت بمنتصف جذع النخلة تطل على حوش بيتك الخالي من الجنود. لا شيء عدا البلاط يحمل غبارهُ آثار أحذية بدت أكثر مما رأيت في المرة السابقة. ابتلعت خوفك وغيرتك على غرفة والديك مستذكرا نصيحة خالك بعدم دخول البيت تحت أي ظرف.

بعد أذان العصر، انطلق نفير سيارة جمع النفايات يُنبِّهكم إلى مرورها في شارعكم. كنت وفهد وصادق وضاي في غرفة الجلوس. نادتكم تينا تطلب المساعدة. أسقطتم أكياس القمامة عند الباب تتابعون فوضى تجري أمامكم. رؤوس كثيرة تطل من نوافذ بيوت الجيران. سيارات عسكرية تغلق الطريق أمام سيارة جمع النفايات وخلفها. جنود عشرة. أكثر بقليل. يحيطون السيارة. يخرج آخرون من بيتك يحملون ألواح خشبية تحمل أسلحة آلية وزجاجات مولوتوف. يصوبُ أربعة من الجنود بنادقهم إلى السائق المثلث. صرخ أحدهم، يبدو أعلى رتبة، بزي مختلف، له شارب طويل معقوف مثل شارب هولك هوغان: "انزل يا إبراهيم.. سلّم نفسك!". التفتت

إليك فهد ممتقع الوجه: "إبراهيم منصور!" ركض ضاوي إلى الداخل مخلّفاً بلّله على الأرض. ترجل السائق رافعا ذراعيه للأعلى. أحاط به اثنان من الجنود يقيّدان يديه وراء ظهره. أزال أحدهما الغترة كاشفا وجهها بلحية كثّة. كان ينظر إليك، أثناء جرّه إلى سيارة الجيب العسكرية، قبل أن يعصبوا عينيه يقتادوه إلى جهةٍ غير معلومة. صادق وفهد يتفرّسان وجهك في صمت. لم تفهم تعبيرات الشفقة على وجهيهما. كنت ذاهلا. التفتّ إليهما فور ما اختفت السيارات العسكرية في آخر الشارع وراء بيت الرّكّات: هل رأيتما وجه الرجل؟! حرّكا رأسيهما يوافقانك. سألتهما وعينيك على آخر الشارع: ألا يُشبه خالي حسن؟!

\*\*\*



## الفصل الرابع عشر

قوّات التحالف؛ كانت العبارة الأكثر تردُّداً في شهركم الأخير للاحتلال. أميركا التي ما رأيتموها، أطفالا، إلا بصورة تظهر في أفلام الأكشن وبرامج المصارعة الحرّة باتت خلاصكم. أميركا تحذر.. تمنح فرصة.. ترسل الجنود وتُحصّر. أميركا تقود قوّات التحالف لتحرير الكويت. قوات كثيرة من دول العالم. دول عربية. دول أجنبية. دول كثيرة.. كثيرة، ليس من بينها دول.. الضد! كنت ترسم في مخيلتك جيشا قوامه شخصيات رافقت الاسم؛ أميركا. شخصيات سينمائية. أبطال مصارعة. رامبو، جيمس بوند، روكي، هولك هوغان، التيمت واريور، مستر تي، سوبر مان، بات مان وسبايدر مان وتيرميناتور يقودهم كابتن أميركا!

صرتم تترقبون أخبار الحرب. أنتم الذين لا تعرفون الحرب إلا على شاشات التلفزيون أخبارا وأفلاما أو ألعاب آتاري. صرتم لا تخرجون من البيت إلا للضرورة، ولا ضرورة، بعد انقطاع سيارة جمع النفايات عن المرور بشارعكم، عدا إلقاء القمامة، على قَلْبِهَا، في الساحة الترايبية اللصيقة بيت أبي سامي. تنصتون إلى أخبار



الإذاعة. مهلة أخيرة. عدّة وعتاد. أسماء جديدة؛ طائرات شبح، صواريخ سكود وباتريوت. منشورات ورقية لا يخلو منها بيت. إرشادات سلامة. مولّد كهرباء. إسعافات أولية. تخزين ما يسهل تخزينه من مواد غذائية. اقتصاد في المأكل والمشرب لم تألفوه قبلا. شموع بديل إنارة. شرائط بلاستيكية لاصقة تُبقي زجاج نوافذكم متماسكا في حال قصفٍ محتمل. إغلاق منافذ الهواء خشية استخدام المحتل أسلحة كيميائية. مناشف وفحم ومواد مطبخ لصنع كمّامات. الحرب التي حسبتموها خلاصكم، كانت، ولكن ليست بالسهولة أو السرعة التي حسبتم. عنق الزجاجاة الذي حُشِر فيه العدو، على حدّ تعبير وسائل الإعلام، كان طويلا. اندلعت الحرب الجوية في السابع عشر من يناير 1991. عاصفة الصحراء كما أسمتها أميركا، أم المعارك كما أسماها الرّيس. طال أمدها. سرت أخبار، في الأسبوع الأول؛ القوات العراقية تفتح مصبّات النفط تضحّؤها في مياه الخليج. فهد لا يبدو مازحا وهو يسأل عن حال السمك في البحر. سكان المناطق الساحلية يؤكّدون؛ أمواج سوداء. قيل إن الطيران الفرنسي قصف المصبّات قاصدا دفنها تلافيا لكارثة بيئية. أخبار كثيرة يتناقلها الجيران يناقض أحدها الآخر. كنتم تنامون على أصوات القذائف ورائحة الشموع المنطفئة. هتّز الأرض من تحتكم. يتصدّع من شدّة القصف زجاج النوافذ. اجتمعتم، وقت الضربة الأولى، أنت ومن بقي من عائلي صالح وعبّاس، أسفل السُلّم حيث هيأتم، وفقا للإرشادات، ملجأكم. تينا تصرخ مع كل انفجار تحجب وجهها بكفّيهها. تحتضنها عائشة تهدئ روعها. فضيلة تبكي. أمك زينب بين دعاء وقراءة آيات

من القرآن الكريم. فهد يبالح بمراعاة حوراء، يناولها قنينة ماء، يطمئننها. صادق يدس سبأتيه في أذنيه الحمراوين. فوزية تلتصق بك تسألك إن كنت تشاهد شيئا. لا خيار لديك عدا أن تكون رجلا. تطمئننها، لا شيء عدا الأصوات التي تسمعين. عواء السلوقي يشبه بكاء بعد كل دويّ. فهد لم يتمالك نفسه. خرج رغم صراخ عائشة: لا تخرج! عاد بالسلوقي إلى ملجئكم أسفل السلم. تشنجت في مكانك. انزوى الكلب في المسافة الضيقة مخفيا ذيله بين رجليه. لم يعد يزعجك. ألفت وجوده بينكم.

كانت الأرض أسفل السلم مفروشة بالمرتبات والوسائد. تحيطكم معلبات الأغذية وقناني المياه المعدنية. تنامون جنبا إلى جنب. الإذاعات لا تزال تحدث أخبارها في مسامعكم، لا تصدقون ولا تكذبون. تنتقون من بينها ما تتمنونه حقيقة. انقطعت الكهرباء. لا تدرون إن كان الأمر حكرا على شارعكم أم إنه يتجاوزه إلى بقية شوارع السرة، أو إذا ما كانت الكويت كلها غارقة في الظلام وفقا لأخبار حول تفجير محطات الكهرباء والماء. قيل إن الجيش العراقي يزمع على الانسحاب. قيل إنهم أضرموا النيران في آبار النفط تفجيرا بعجين تي أن تي يزن أطنانا، انتقاما ربما، أو لحجب رؤية طيران دول التحالف عن القوات المنسحبة برأ نحو الشمال.

كنتم بالكاد تنامون دقائق بين دويّ انفجار وآخر. مُمدّدين أسفل السلم. أمك زينب وفضيلة وحوراء وعائشة وتينا وفوزية، وأنتم الثلاثة، والكلب. أيقظتكم فوزية ساعة شروق يوم ما قبل التحرير. كانت أصوات الطيران ودويّ الانفجارات قد توقفت.

الحرب تلتقط أنفاسها: هل تسمعون ما أسمع؟ أمسكت كفها  
تطمئنها: هدير مولد الكهرباء في الحوش. هزّت رأسها: "لا"  
وضعت سبّابتها أمام شفّتيها: "إسمع" سمعتم. خرجتم إلى الحوش  
تنظرون إلى السماء في نصف إغماضة. كان النور يلون سماءكم قبل  
ظهور قرص الشمس بالكامل. أحرصتكم الدهشة ينظر واحدكم إلى  
الآخر. عشرات من طيور النورس تفرد أجنحتها تحوم في سمائكم.  
يضجُّ المكان بأصواتها تُجاوز صوت هدير مولد الكهرباء. يحطُّ  
بعضها متعبا فوق سور الحوش. أنتم لا تجدون تفسيراً لوجودها  
والساحل يبعد عن السُرَّة أميالا النخى صادق على الأرض يلتقط  
طائرا. رفعه حاملا إياه من ساقيه. على ريشه لطخات زيتٍ أسود.  
"ميت" ناداكم فهد فور ما فتح باب الحوش الحديدي: انظروا  
هناك! تكدّستم عند الباب تنظرون. بعض الجيران في الخارج. بعضهم  
يطل من النوافذ. مئات من النوارس وطيور الرهيز الساحلية تأخذ  
دور القطط والذباب والفئران، تنافسها، تعث في جبل القمامة في  
الساحة الترايبية اللصيقة لبيت أبي سامي. فوزية تسأل: ماذا هناك؟  
كنت عينيها. تصف لها كل ما تشاهد تاركا لأصوات النوارس  
إكمال الصورة. استغرقكم المشهد عدة دقائق قبل أن يتحوّل. ما  
كادت الشمس ترتفع قليلا حتى اسودّت سماءكم فجأة. سكتت  
النوارس. حلّ الليل في غير أوانه. شرعت أمك زينب تتمتم تلو  
الشهادتين. غرق المكان في الظلام. ارتفع صوتها تحثكم: "تشهدوا..  
تشهدوا.. حانت حانت!" تشبّث فوزية بذراعك. ماذا يحدث. لم  
تملك لها تفسيراً وقد كنت والجميع مثلها تمدون أيديكم أمامكم

تلمسون طريقكم إزاء ظلمة مباغثة. كما لو كنتم في حلم. أمسكت فضيلة بأمك زينب تدفعها للدخول. تتحسس طريقها. تتوكأ على الجدران. العجوز تنتفض. انتابتها نوبة هيسيريا: "قامت القيامة.. قامت!" تهدؤها فضيلة. وددت تسأل عن علامات تسبق اليوم. كيف تقوم قبل أن؟ تطمئننها: "بيبي زينب.. لا تخافين ولكنك كنت خائفا كما لو كنت ابن خالك في غرفة مظلمة. دخان أسود كثيف يحجب الرؤية. أخبرت فوزية بأمره. صاحت أمك زينب كأنها تذكرت للتو ولدها: "عبّاس.. عبّاس" كانت فوزية قد تركت ذراعك. أخذت تصيح كمن أضاع ابنته. فوزية! كنت تنادي. لم ترد.

أضياء مبنى الملحق المطل على الحوش. تسلل النور من نافذتي المطبخ والديوانية وباب الحمام المشرع.

جاءكم صوت فوزية من الداخل: "ها؟ شَبَّ النور؟"

\* \* \*



## الفصل الخامس عشر

شهوركم السبعة مرّت مثل دهر كلمة إشاعة التي اعتدتموها طيلة أيامكم السالفة، لم يلفظها أحدٌ يوم سماع الخبر؛ في السادس والعشرين من فبراير 1991: "الكويت حرّة!" خرجتم إلى الشارع، أمام بيوتكم، رغم تلوّث الجوّ وتناوب الليل والنهار عشرات المرات في اليوم الواحد، إثر دخان حرائق آبار النفط. يحمل الجيران أعلاما وصورا لأمركم وولي عهده لم تطلها النيران زمن تجريم الاحتفاظ بها. أنت لم تتبعد كثيرا. كنت على عتبة الباب تمسك ذراع فوزية تصف لها ما يجري. أعلام. صور. أطفال الحلي ومراهقوه يغنون. يصفقون. الجيران، بعضهم يُمسك بعضاً بما يشبه رقصة شعبية ارتجالية. زغاريد النساء تنطلق من نوافذ البيوت تتوحد مع أصوات النوارس في سمائكم. فهد، رغم ضآلة جسمه، يحمل صادقا على كتفيه في صورة كاريكاتورية. الأخير يرفع قبضتيه يلوّح عاليا. يرتفع نفير السيارات يحاكي غناء الشارع. وطني الكويت سلّمت للمجد. يب يب. وعلى جبينك طالع السعد. يب يب. فرحكم ليس حكرا عليكم. عمّال مصريون، بأثوابهم الصعيدية الواسعة، من بينهم جابر المصري، يشاركونكم فرحكم يهتفون:

"بالطول، بالعرض.. يطلع صدّام من الأرض فوزية تبتسم، تبكي، تُصفق تفاعلاً مع صور ترسمها الأصوات في مخيلتها. اقشعرت أبدانكم مع مرور سيارات مصفّحة في شارعكم، تحمل كل واحدة منها علماً من أعلام دول التحالف. فوزية تنصت إليك: "أميركا.. بريطانيا.. فرنسا.. مصر.. صادق يلتقط علم المملكة العربية السعودية ألقاه إليه أحد الجنود. يرفعه عالياً. يهتف. أحد الجيران فوق سطح بيته يرفع علماً أميركياً عملاقاً.. الأطفال يرفعون أعلام دول الخليج.. ودول عربية وأجنبية أخرى.. الجنود يهدون الأطفال فواكه وحلوى وبسكويت.. همزٌ فوزية رأسها تفاعلاً مع وصفك. لا تخفي دموعاً تلفظها عيناها الثابتتان. اقترب فهدٌ من إحدى السيارات المصفّحة، يرفع كفيه يُدني صادقاً إلى الجندي الأميركي فوقها. يقرب صادق كفيه إلى جانبي وجهه مثل بوق. يرفع صوته: "ماي فاذر آند هز فاذر إن عراق.. هيلب ذم پليز!" يبتسم الجندي يناوله موزتين.

لم يكونا، عبّاس وصالح، في حاجة إلى مساعدة الجندي الأميركي لفك أسرهما. عندما قُدرت لهما العودة، كما لم تُقدّر لمئات من أسرى. جاء أسر صالح وعبّاس في معتقلات البصرة في صالحهما؛ يوم اندلاع الانتفاضة جنوب العراق. انتشرت الفوضى، في الداخل، بعد الحرب وانسحاب الجيش العراقي. جنود طحتهم الحروب ثاروا على قائدهم. لم يقتصر الأمر عليهم، كما أخبركم صالح بعد عودته عما عايشه وسمعه هناك. خرج الأهالي في الشوارع الرئيسية لمحافظة النجف يتجهون إلى مرقد الإمام علي. ارتفعت النداءات في مكبرات الصوت تحت الشعب العراقي على التظاهر ضد النظام. فتحت

السجون. هرب المعتقلون من أسرى ومرتكبي جرائم. كان الجاران من بين الأسرى الكويتيين الذين تسنى لهم الهرب إلى الكويت سيرا على الأقدام، قبل إخماد الثورة قصفا بالطيران العمودي، رغم مزاعم الحظر الجوي الذي تفرضه أميركا على العراق.

عائشة التي ضاعف التحرير شعورها بالفقد تجاه عمك صالح انفجرت تبكي كل شيء. تبكي فرحا لخروج قوات الاحتلال. لعودة الأسير. تبكي، بأثر رجعي، حزنا على فقد أمك حصّة. قفز فهد يتعلّق بأبيه فور دخوله البيت حليق الرأس، نحيل الجسد، محمّص الوجه، طويل الذقن. صرخ ينبهكم: "أبوي!" ارتفعت الزغاريد من بيت أمك زينب في اللحظة ذاتها. خرجت عائشة من غرفتها بثياب النوم منكوشة الشعر. هرعت إلى زوجها غير مصدقة. فكّت عناقه وابنه. تسمّرت أمامه بشفاه مرتعشة. فتح لها ذراعيه باسمها يغالب دموعه. دفعته تضرب صدره. صرخت به: حسبتك ميتا.. أذبحك لو كنت! سقطت على ركبتيها تحتضن ساقيه تطلق أنينها بسخاء زامّة شفيتها. انحنى صالح عليها بجسدٍ ينتفض يقبلُ رأسها. لم تمض ساعة على عودة الأسيرين حتى جاءت زوجة خالك حسن بعباءتها ووجهها الشاحب. تمسك ضاويها من يده. تنظر إلى وجه عمك صالح يحدوها أمل مات فور ما أخبرها بأنه لم ير زوجها أو يسمع عنه هناك.

رَن جرس الباب بعد يوم من عودة أسيريكم. دخلت تينا تخبركم: "بابا عبّاس أمرها صالح بأن تدخل الجار إلى الديوانية: مجنونة! كيف يقف الرجل في الشارع؟! كان مزاجه سيئا، كما ينبغي أن يكون مزاج رجل فقد أمه ووقف عاجزا أمام مصيبة حلّت



بشقيقته. لحقمتا بعمك صالح إلى الديوانية حيث ينتظره عمك عباس. كانت جدران الحوش وأرضيته مليئة بالسُّخام. سماؤكم سوداء لا تزال. دخلتم الديوانية. وجدتم أبا صادق واقفا برفقة رجلين من الجيران. بادر أبو فهد وهو يشير إلى المقاعد:

"إستريحوا إستريحوا.."

هزَّ أبو صادق رأسه رافضا:

"نستريح بعدين.."

سأله عمك صالح:

خير؟"

أجابه موجهًا سبَّابته بعيدا:

"الخير، بعد ما يطلعون الفلَّسطن من الشارع.."

"طلَّعوا" من الشارع. كانت آخر مرة تسمع فيها لهجتهم المألوفة عصر ذلك اليوم. ما عادت اللهجة ضمن خليط اللهجات في شارعكم. ما عاد بيت الزُّلمات هناك على رأس الشارع لصيقا بمحل علامين البنجابي، ولا عاد فريق كرة القدم العائلي يشاركم في ساحات السُّرَّة الترابية. ضغط عمك عباس مكبس الجرس. ضرب الباب بكلتا يديه بقوة. فتح أبو نائل الباب ينظر إلى وجوه جيرانه المكفهرة. بادره عمك صالح: "اسمع" لم يسمع.

"اسمع انت.. أصلاً بعد ما مات أبو طه.. بَطَّلَ عَنَّا أَيَّ  
اشي هون!"

قالها أبو نائل قبل أن يُمحي وجوده وأفراد بيته من شارعكم.  
أسَّس له حياةً جديدةً في الأردن. محي كل شيء عدا وجهه الحزين  
في ذاكرتك الملعونة.

\* \* \*



## الفصل السادس عشر

وطني.. وطن النهار..  
 آه يا وطن.. يَلِيّ انوَلَدْتُ من جديد..  
 أنت محيط الأرض، يا موج البحار..  
 وطن النهار..

في أيامكم تلك لم تكن محبة عبدالكريم عبدالقادر حكرا على  
 فهد آل بن يعقوب وحده. كان الصوت الجريح، كما يسميه محبوه،  
 صوتكم جميعا حين غنى وطن النهار، وأبكاكم، رغم شُح النهار  
 تحت سماء أبت حرائق النفط إلا أن تحيلها ليلا مستمرا يكسر عين  
 الشمس في ذروة شروقها. تنصتون إلى الأغنية في الوقت الذي تستمع  
 فيه مناطق أخرى في الكويت إلى أصوات انفجارات ألغام زرعتها  
 المحتل قبل انسحابه. انشغل فهدٌ يبحث عن لونٍ للأغنية. يعجز.  
 يقول: "كل الألوان"

عاد والداك برّاً من السعودية بعودة الكويت. عانقتك والدتك  
 طويلا حتى تعرّق جسدك بين ذراعيها. بالكاد تعرّفتها. واهنة صفراء  
 تحيط عينيها هالات داكنة. عدت إلى بيتكم. وعادت أشياء كثيرة في

وطن وُلِدَ من جديد. وما للمولود الجديد إلا أن يتعايش مع جدَّة الأشياء ويقبلها بطبيعة الحال، أو، بعكس طبيعتها. عاد عدنان السوري يفتتح محل الجزارة في ملحق بيت العويدل المطل على الشارع. نفذ علامين البنجابي الغبار عن محل الغسيل وكي الملابس. ملأ العتبات أمام باب محله بصاقاً بنيّاً افتقدتم رؤيته شهوراً. عادت الحياة إلى مجمَع الأنبعي المغلق منذ الأسبوع الأول من أغسطس 1990. كشف شاكر الهندي واجهة مطعمه الزجاجية يعرض مأكولات تَقَطَّر زيتاً. تظهر وراءه صورة ملصقة على الجدار تجمع أميركم مع سلطان البُهرة. علَّق البقال حيدر الإيراني الكُرات المطاطية الملونة ومسدَّسات الماء والسيوف البلاستيكية أعلى باب دُكَّانه. وزَع، فرحا، العلكة والفسلق والحبَّ الشمسي على الأطفال، كل الأطفال. عاود جابر المصري نشاطه يدير سيخ الشاورما، يوم دجاج ويوم لحم كما عودكم. يزين سقف المطعم بأعلام كويتية وأخرى مصرية. ألصق أبو فواز صورا كبيرة للأمير وولي والعهد وأبراج الكويت على الواجهة الزجاجية. غص مدخل مكتبته بكتب لا تدري كيف وأين ومتى طُبعت. تحمل أغلفتها صورا أصبحت دارجة فيما بعد؛ خريطة الكويت تنزف دما، رسمٌ للرئيس العراقي يمتطي فيلا يتجه نحو الكعبة، رسم آخر لرأسه بجسد ثعبان. رسوم أصبحت تطاردك في نومك لسنوات. غاص سليم الخياط بين قطع الأقمشة يفصلُ للأطفال ثيابا بألوان عَلم الكويت. عاود الحلاق الباكستاني مشتاق نشاطه يزيل الغبار عن الالفة أعلى دُكَّانه، صالون جوهره السُرَّة، لا يدري سببا وراء إطلاق الكثير من الرجال للإحاهم

يرفضون أن يُمسَّها بشفرتها. حتى عبدالكريم فاجأ فهذا بظهوره في صورة على غلاف كاسيت وطني بلحية كثة. قيل إنه الكاسيت الأخير قبل اعتزاله الفن، لأن الفن حرام، ولأن الله هداه أخيراً وتاب عليه. في حين لم تكن لحيته سوى تمويهها أثناء الاحتلال لئلا يتعرَّف إليه الجنود. سألك فهد: "إذا صار عبدالكريم دَين.. ما يصير يعني؟" أو ماتَ مؤكداً. "أجابك: "الله لا يهديه إنشالله!"

عاد خليط شارعكم كما أَلفتموه.. الجميع عدا! صيرتَ تحصي ما لم يعد موجودا في وطنك الجديد. تحسب الأشياء التي أخذتها قوَّات الاحتلال معها انسحاباً؛ روح أمك حصَّة، بصر فوزية، وجود تينا ورائحة زيت جوز الهند في شعرها بعد غياب "ماما كبير"، حضور خالك حسن، حرف الرءاء في لسان ضاوي، صيحات أبي سامح الفلسطيني: "بَرَد.. بَرَد"، ونداءات بائع الصُّرَّة اليميني: "خام.. خام"، وبيت الرُّلَمات وفريق كرة القدم، ومعلمي المدارس من الفلسطينيين والأردنيين. غادر مئات الآلاف من الفلسطينيين مخلفين وراءهم بضع عائلات، نالت من حسن الحظ أو سوئه فرصة للبقاء مع واقع جديد يكفل لهم تلافي مصير غير آمن: نحن من لبنان.

اختفت أغنيات ناظم الغزالي في حوش أمك زينب، العجوز التي عاد أصلها، فجأة، إلى الأحساء. ما عادت بيبي زينب. صارت: "أمي زينب من الحسا"، كما يؤكد صادق متحدياً لسان جدته الذي صار عاراً بعد التحرير؛ لئلا تخرج حفيديها أمام أصدقائهما تلفت الانتباه: "جدَّتكَ عراقية؟! " عاشت تأمل بيوم تفتَح فيه حدود الشمال، ترور أهلها، وإذا ما اقتربت ساعتها ترحل

لتموت هناك، تُدفن في النجف حيث دُفِن أسلافها قرب مقام أمير المؤمنين.

ما عاد للـ "رئيس" حضور في بيت آل بن يعقوب، والمحبة العراقية فيه صارت سعودية محضة. صار صوت أبي سامح الفلسطيني صوتا آخر، لشابٍ سوريّ، رغم بهجة أطفال الشارع لصيححاته: "برّد.. برّد"، لم يكن صوته يشبه شارعكم. نداءات بائع الصُرة استحالت رنينا لأجراس بيوتكم، اليمينيون صاروا هنودا، تجار شنطة، غصت بهم شوارعكم، يبيعون البخور ودهن العود وأقلام الكُحل والساعات المقلدة الرخيصة. حُرمت من مشاهدة مسلسلات تلفزيونية تورط بعض ممثليها العراقيين بالتعاون مع نظامهم. مسلسلكم الأثير، على الدنيا السلام، لم يكن بمنأى. صار يُبثُّ بمشاهد محذوفة.

بعد سنوات طوال، سوف تتذكّر، عبدالكريم يصدح بأغنية ملوّنة صارت بمنزلة نشيد؛ وطن النهار: "غصباً على الآلام، ترجع وطن من جديد" تسأل نفسك إزاء وطن رجع، أو أرجعوه، بعد احتلال. ترفض الفكرة موقنا بأنهم ما أرجعوه ولكن شبه لكم.

لوّن غياب الأسرى الكويت بالأصفر. الاحتلال، رغم أنه أخذ بانسحابه الكثير، خلّف وراءه الكثير أيضا. إعلانات تضمُّ صور الخراب تحت عنوان "كي لا ننسى لوحات ولافتات قماشية وملصقات صفراء تحمل شعار "لا تنسوا أسرانا" في الشوارع وعلى جدران البيوت وفي شاشات التلفزيون. سبّة جديدة يتداولها صبية الشارع فيما بينهم: "يا عراقي!" عبداللطيف المنير وحاسم المطوّع

صارا نُصْبًا تذكاريًا من رخامٍ أخرس عند السوق المركزي على الرصيف المقابل لبيت محظوظة ومبروكة. ألصقَ فهد صورتيهما مع صورة كبيرة للشيخ فهد الأحمد، على جدار غرفته، بين صور مؤيد الحداد، أزالها عمك صالح: لا تُلصق الصور! السبب؛ لأنها حرام، ولأنها تطرد الملائكة من البيت. سألته عن صور فهد التي تعلقها عائشة على خزانة التلفزيون، وصور المسيح مصلوبا كانت على جدران غرفة تينا، ألا تفعل فعل صور الشهداء مع الملائكة؟ نظرتَه دفعتك تسحب سؤالك تعتذر: "خلاص.. ما أسأل مرة ثانية!"

صور الشهداء والأسرى في بيت عمك صالح، قبل إزالتها، لا تشبه صورهم في بيت عمك عباس. زوجة خالك حسن تصطحب ضاوي، تراوح بين اللجنة الوطنية لشؤون الأسرى ومكتب الشهيد، بحثًا عن زوجها في سجون العراق. ولا خير. مفرداتٌ جديدٌ بعضها، وبعضها ازداد تكريسا، على رأسها دول الضد؛ العراق ومن كان في صفه من دول عربية. صارت الكويت، كما قال عبدالكريم عبد القادر، محيط الأرض وموج البحار. وصرت في مساحة صغيرة، جزيرة، لا ترى أبعد من نفسها. كل المفاهيم آلت إلى عكسها. فلورنس؛ التي كانت سبباً أبي سامي ونقيصته، زمن أمك حصّة، وقت كان زوج الأميركية، صارت أعلى شأنًا وأرفع منزلة. استبقيتم وصف زوجها، ليس خطأ من قدره كما كنتم تفعلون بل اعترافًا بتفوقه وتفوق أبنائه بما يربطهم مع امرأة أميركية.

كنت في أول يوم دراسي بعد التحرير. أواخر 1991. في طابور الصباح في مدرسة النجاح المتوسطة. تقفُ بين مئات الطلبة، يرتفع



أمامكم علم الكويت عاليا في ساحة المدرسة. تهتفون للمرة الأولى بعد وقت طويل: تحيا الكويت.. عاش الأمير.. تحيا الأمة العربية، قبل ترديدكم النشيد الوطني بحماسٍ افتقدتموه شهورا، تلاحظون تأثيره على وجوه المدرسين الكويتيين والعرب. كنتم قد دلفتم الفصل للتو بعد رنين الجرس يعلن بدء ال دراسية الأولى. بينما يتسابق الطلبة على حجز المقاعد في الصفّ الأمامي، تسابقتم أنتم الثلاثة، بتحددون عادتكم، لاحتلال المقاعد في الصفّ الأخير بعيدا عن اهتمام مُعلّمكم. ترسمون أزراراً افتراضية على أسطح طاولاتكم. لم يتغيّر فصلكم الدراسي. عدتم كما تركتموه في المرحلة السابقة. صادق وفهد وأنت. تؤرّجون مقاعدكم على قوائمها الخلفية وتسندونها إلى الجدار. زملاء الفصل أمامكم كما هم، عدا اكتساب بعضهم ألقابا جديدة؛ ابن الأسير أو ابن الشهيد. كنتم فيما مضى ثمانية وثلاثين تلميذاً، صرتم أربعة وثلاثين بعد غياب عَوْض اليميني وعبدالفضيل السوداني وسامر وحازم الفلسطينيين.

ما كدتم تضعون كتبكم على الطاولات أمامكم حتى دخل المدرس الأول، الأستاذ مُرهف. في زيارة سريعة. "اقلبوا الكتب على الطاولات"، أمركم. قلبتموها. كان على ظهر الكتب شعار دائري لمجلس التعاون الخليجي يضم أعلام الدول الخليجية الست، بالإضافة إلى العراق الذي كان قد انضم إلى بعض المؤسسات في المجلس من بينها المؤسسة التعليمية والرياضية. أمسك الأستاذ مُرهف بواحد من الكتب يشير إلى العلم العراقي يملككم تعليمات الإدارة المدرسية:

"بالمزبل الأبيض.. لوّنوا هذا العلم.."

شرعتم بإزالة علم العراق من الغلاف الخلفي للكتاب. أمركم  
تفتحون بقية الكتب. يملئكم أرقام الصفحات مرورا على أعلام  
وخرائط بعض الدول. مُلغى، محذوف، علامة إكس، خارج المنهج.  
صفحة وجه وظهر.. اقطعوها! سعادتك بتقليص منها حكم الدراسية  
لم تشك عن ممارسة عادتك. رفعت يدك عاليا:

"أستاذ.. أستاذ.. عندي سؤال!"

حدَّقَ في وجهك وسع عينيه يتحقَّق من كونك أنت:

"العمى يا نفاق! انب لِسَاتك عمّ تسأل؟! لك بعدنا بأول  
ساعة بأول يوم!"

أنت لا تفتعل أسئلتك. لا تدري ما الذي يغضبهم. استقمت  
واقفاً تُلحِق صرير مقعدك بتساؤلك:

"أستاذ مُرهف.. قبل شوي، في الساحة، كنا نقول تحيا الأمة  
العربية، والحين نشخبط على صور الخرائط والأعلام؟!"

جحظت عيناه. تطلَّع إلى وجهك فاتحا ذراعيه:

"طيب وبعدين؟ شو طالع لي باليانصيب انت؟!"

ثقتك زائدة على ما يبدو حين أجبته:

"واحد من اثنين.. أما نوَقف تحيا الأمة العربية، أو ما  
نشخبط على الخرائط والأعلام!"

لم يأبه لخياري من اثنين كنت قد اقترحتهما. اقترح خيارا ثالثا  
يُشبهه أمرا:

"أو تأكلُ خرا!"

\* \* \*

سيصيرُ الرملُ جَمراً..  
ويصيرُ البحرُ ناراً..

سعاد الصباح

الفأر الثالث

---

جَفَرُ



## يحدث الآن 4:56 PM

كلما نشطت تفاصيل الشهور السبعة، أخذتني إليها، تفصلني عن كل شيء عداها. تواجهني بشخص كان أنا، لم أعد أعرفه. تُعرّفني إلى أناس احتفظوا.. بأسمائهم وحسب. أنا الآن هنا. لا يفصلني عن مقرر أولاد فؤادة عدا مئات أمتار، أستطيع مشاهدة البناية، ولكنني عالق في الزحام بين سيارات المتحمهرين ورجال الأمن والإسعاف والإطفاء. كل المنعطفات عن يميني مسدودة بالإطارات المشتعلة وأكياس الرمل. ألتقطُ هاتفي أتصل بابن خالي. لا يرد، في حين صوته في الإذاعة، يكرر القصيد، لا يزال. يرتفع تارة. ينخفض أخرى:

تَفَجَّرَ

إن أفعى الدارِ تخرجُ

من شقوقٍ.. من صخورِ جدرانك

ثقوب عريشك القش

نسيج حافك المش

تُجُّ النارَ في أزهارِ بستانك

تُصوِّحُ غرسك الأخصرُ

ماذا تفعل، برَبِّكَ، يا ضاوي! أعاود الاتصال. رُدَّ رُدِّ. لا مشكلة لدي إن غيرك فعل. لا رَد. يهاتفني أيوب. أُسكت صوت الإذاعة في سيارتي. يجيء صوته مرتفعا متجاوزا صوت الإذاعة في سيارته: هل جنتم؟! أطمئنه رغم انفعالي: أنا في طريقي إلى ضاوي، ليس المقر بعيدا، سوف أصلح الأمر. يقاطعني: تصلح ماذا؟ اسمع اسمع..

يرفع صوت الإذاعة في سيارته، وهو ليس في حاجة لأن يفعل. صراخ الناطق لا يحتاج إلى غير صمت أيوب: "أولئك النواصب الذين اتخذوا من الفئران شعارا بدلا من دين الله يدسون السُّم في العسل.. يقول الإمام علي عليه السلام؛ حين سكت أهل الحق عن الباطل، توهم أهل الباطل أنهم على حق، ويقول الله تبارك وتعالى في كتابه: "وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا" يا من تدَّعون أن الفئران آتية.. ألا أنتم الفئران وإن لبستم ثياب الـ...

"أي إذاعة هذي؟"

أسأله رافعا صوتي. يجيب على دأبه ساخرا:

"الأخ يقول إحنا نواصب. واضحة! إذاعة آل البيت.."

"أيوب!"

لا يأبه بمقاطعتي:

"إسمع إسمع جماعتكم!"

- "أيوب!"

ينتقل إلى إذاعة أسود الحق. تبت صوت ضاوي في القصيدة إياها،  
في نقل مشترك، يعقبُ عليها صوتٌ غليظٌ كأن صاحبه يُمسكُ بهاتف  
أيوب يصرخ في أذني: "هذا ما تقوله الفئران بمباركة الملاحدة!" يرتفع  
صوت ضاوي، والأنشودة الإسلامية وراء صوته لا تزال:

تَفَجَّرَ  
قَدْ دُبِحَتَ الْآنَ  
مَرَّاتٍ وَمَرَّاتٍ،  
تُرَاوِدُكَ الذَّنَابُ السُّودُ  
تَسْرِقُ مِنْكَ نَبْضَ الرُّوحِ  
تُنَاوِشُ لِحْمَكَ الْمَهْدُورِ

يصرخ الصوت الغليظ بما أوتيت حنجرته من غلظة: "ألا شئت  
ألسنة الروافض.. من هم الذئاب السود من؟ وإن كنا، فإن الذئاب  
خير من فئران تطاولت على أصحاب الحق. يا من صارت الفأرة  
رمزكم، وقد قال فيها رسول الحق صلى الله عليه وسلم؛ خمس فواسق  
تقتلن في الحرم: الفأرة والعقرب والغراب والحديا والكلب العقور.

يرتفع صوت أيوب، في الهاتف، ضاحكا: "ما أردى من المربوط  
إلا المفتلت!"

يكرر الناطق حديث النبي صلى الله عليه وسلم وفق ما يريده  
مؤكدا: خمس فواسق تقتلن في الحرم.. خمس فواسق على رأسها  
الفأرة يا من يُمَجِّدُ الفأرة وينادي بحماية الناس من الطاعون!



يسألني أيوب عن صادق وفهد. لا أخبار. يتوسل إليّ إجابة عما جرى. أنهي مكالمتي أدفعه للبحث عنهما، وسؤالهما عما فعلاه فجر اليوم. أرفع صوت إذاعتنا في سيارتي. ينهي ضاوي القصيدة:

أشتاتُ السباعِ.. النملِ  
تشرب نزفك المسفوحُ  
وللجزارِ شوقٌ عارمٌ للتَّحْرِ  
للسكينِ نصلُّ جائعٌ يزأرُ

ينتقل البث إلى أنشودة دينية. تردني رسالة نصيَّة من بيروت:  
"صديقي.. انسى الرواية، انشالله ما انطبعت.. ردّ طمني عليك!"

\*\*\*

## الفصل الثاني

شهورنا السبعة المظلمة أفضت إلى حالة جديدة. لم تكن مشرقة بالضرورة. بدت أفضل مما كنا عليه قبل الاحتلال، ولكنها لم تكن. شيء ما استغرقني سنوات طوال لإدراكه. لو أن لي ذاكرة، مثل غيري، معطوبة! كنا نتجهّز لحضور المسرحية الساخرة سيف العرب، أواخر صيف 1992. أول مسرحية للكبار نحضرها. والكبار، دائماً، شأن آخر. كنت قد بلغت الرابعة عشرة في تلك السنة، ومن حسن حظي أن عمي صالح لم ينزعج من وجودي في بيتهم معظم الأوقات. كنت في غرفة فوزية. كحالتها لا تشبه غرفة كفيفة. تغص جدرانها بالأعلام والصور والشعارات، وميداليات التكريم المدرسية، علقت بينها فستانها الوردي المنفوش، ذلك الذي ارتدته في حفل العيد الوطني قبل سنوات. كنت أقرأ لها رواية بعدما أرسلتني إلى مكتبة الدور لشرائها، كدأبنا منذ فقدت بصرها. بنجس في كرسيين متقابلين. توجه عينيها الصامتتين إلى السقف تنصت إليّ. كلما أهيتُ فصلاً أتأهب للخروج مع صادق وفهد إلى مجمع الأبعي، كانت تناديني: "إصبر لحظة!". تمدّ ذراعها أمامها تحرك أصابعها في الهواء.

أقربُ وجهي بين كفيها. تتحسَّسه. تمرُّرُ إصبعها بين أنفسي وشفتي  
تتأكد من نعومة شاربي. "كتكوت! لا تكبر"، تقول راجية، خشية  
أن يمنعني شقيقتها من دخول بيتهم، في حين لا أفكر في شيء عدا  
نعومة كفيها وعطرهما على وجهي.

عندما فضلت فوزية البقاء في البيت تنصتُ إلى قراءتي عوضاً  
عن حضور المسرحية، عرض عليّ عمي صالح الذهاب معهم مستفيداً  
من تذكرة دخول فوزية. لم أكن متحمساً لحضور المسرحية لولا  
مشاركة الممثلة حياة الفهد، محظوظة. تخلّيت عن فوزية. لم تعتب.  
سألتُ فهداً عن سعاد عبدالله: "مبروكة معاهم في المسرحية؟" هز  
رأسه نافياً يعدد أسماء الممثلين. بدا خلاف صادق وفهد عابراً عندما  
احتج صادق: "اسمه عبدالحسين عبدالرضا!"، في حين أصر فهد على  
تسمية دارجة للفنان، بطل المسرحية ومؤلفها؛ حسين عبدالرضا.  
طال سجالهما، يستميت واحدهما يقنع الآخر حسين. لأ  
عبدالحسين. يصر فهد على أننا نعبد الله وحده، وأن إلحاق كلمة عبد  
لغير الله حرام وكفر. يفعل صادق: "عبد يعني خادم.. وعبدُ الحسين  
يعني خادمه.. يا حمار!" "لا تسبّ.. إنت الحمار!" "لأ.. إنت!"  
يتبادلان التهم صراخاً. أنت كافر. إنت عراقي. يصمتان ينظران إليّ  
ينتظران تدخلا، ولكنني أكره لعبة شدّ الحبل هذه، رغم أن أمر  
الأسماء لم يعد يقلقني كدأبه قبل سنوات أربع، بين العُمريّة والعُميريّة.  
نظرتُ إلى صادق: "سمّه عبدالحسين.. وإنت.. أشرتُ إلى فهد:  
"سمّه حسين اتفقاً بإجابتها: "ما يصير!" حضرنا المسرحية. لا  
يكلمُ أحدهما الآخر.

ذهبتُ بسيارة عمي صالح إلى مسرح الدسمة، فيما تبعنا عمي عباس بسيارته. أتذكر أن أبا فهد بدا سعيدا بلافتات الحملات الانتخابية تملأ الشوارع، تأهبا لبرلمان 92 بعد تعطيل للحياة البرلمانية امتدَّ لسنتين. سعادته لم تدم طويلا عند مرورنا في شارع الدائري الثاني، بين الدسمة والدعيّة، إذ برزت إحدى اللافتات لمرشح يرتدي عمامة سوداء. "عشنا وشفنا!"، هزَّ رأسه يستطرد: "ليت الأمير يحلّ البرلمان"

في صف المقاعد الثاني كنا نتابع أحداث المسرحية. لو أنهم اختاروا لها اسما آخر! كنت أقول لنفسي، مستعيدا كلمات الأغنية في افتتاح بطولة كأس الخليج العاشرة قبل سنتين ونيف: "هلا بسيف العرب.. ينحط على يمناي!" ذاكرته سيئة من يتذكر كل شيء، وأنا ملعون بذاكرتي. لو أنني نسيت مثل البقية! أتذكرهم يضحكون ملء أفواههم منذ بداية المسرحية. مثلهم كنتُ أضحك. عدا أمي زينب. أنظر إلى وجهها يلقي عليه المسرح شيئا من إضاءته. بقيت صامتا لئلا تخونها ابتسامة. تقرّب ساعة معصمها إلى وجهها في الظلام. تتأفف. أتذكر فهذا في نهاية الجزء الأول يدس إصبعيه أسفل لسانه. يُطلقُ صفيرا قبل أن يصفق بحرارة، ليس إزاء مشهد مؤثر لاستشهاد بطل المسرحية بطلقة جندي عراقي، بل لأن عبدالكريم فاجأنا بصوته يعني موالا باكيا لا يشبه مسرحية ساخرة: "يا خوي.. لا تبكي على من مات واستشهد أنا أكره أن أكون ضعيفا أمام الغير. ولكن، منحني ظلام المسرح حرية أن أكون أنا إزاء حزن مباغت. "من مات لأجل الوطن.. بـ العون هو الأسعد!" تذكرتُ عبداللطيف المنير

وجاسم المطوّع ونُصّبهما الرخامي. تذكرتُ خالي حسن يوم أزيح اللثام عن وجهه. ما أردتُ له سعادة ينشدها عبدالكريم عبدالقادر في مواله الحزين؛ من مات هو الأسعد. أتراه ميتاً؟ سعيداً؟ تمنيته يعود إلى بيته يقومُ لسان ولده، يوقف تبوله اللا إرادي، ويخلصه من رهاب مزمن تجاه الأماكن المظلمة. يعود بيته، كما كان، هو الأسعد!

الضحك الذي ضحّت به مقاعد الجمهور، في الجزء الثاني من المسرحية، بدا سخيفاً أمام عبّوس أمي زينب. لم يتوقف ضحك عمي صالح، حتى السعال، منذ ظهر الفنان عبدالحسين عبدالرضا بلباسٍ عسكري يؤدي دوره متمصاً شخصية الرئيس العراقي، يطوف بين فلاحين عراقيين حفاة، يرقصون بثياب رثّة موغلين في الهزل. نهضت أمي زينب: "هاي مسخرة!" لم يتح لي الظلام مشاهدة وجهي صادق وحوراء بشكل جيد. أدري لسان الجدّة يجرجهما. كانت غاضبة. غاضبة بحق. دفعتُ عمي عبّاس من كتفه تحته على المغادرة: "العراقيين مو هيّج بهائم!" كنت بالكاد خرجتُ من تأثير مشهد الموت في جزء المسرحية الأول. صفعتني أمي زينب بقولها. ندمتُ على عدم بقائي مع فوزية في البيت، أقرأ لها روايات قديسها، إحسان عبدالقدّوس. أنا لا أحب مسرحيات الكبار. تشبّثتُ بعباءة أمي زينب: "أروح ويّاكم!" خرجنا تشيعنا ضحكات الجمهور أميّز من بينها، أعلاها، ضحك عمي صالح. غادرتُ مسرح الدسمة بسيارة عمي عبّاس.

أتذكرني في أواخر عطلة صيف 1993 في غرفة جلوس بيت أبي صادق، بعدما أصبح بيته مكان تجمعنا عوضاً عن بيت آل بن

يعقوب. أتذكر الغرفة عادت كعهدي بما تحمل جدرانها صور الأئمة والجياد والسيوف، ولوحات رسمها صادق عجزتُ عن فكِّ رموزها. قادتنا حوراء، فهد وأنا، إلى حيث يجلس شقيقها. ثنيت ساقِيَّ أجلس فوقهما إلى جانب فهد وصادق على الأرض أمام شاشة التلفزيون. كنت وفهد قد عدنا للتو من مؤسسة الحشاش للفيديو في الجابرية مشيا على الأقدام. رؤوسنا ساخنة، تنزُّ أجسادنا عرقًا. لم يقو فهد صرا إزاء إعلان قرأه في الجريدة. هاتفني في البيت ظهرا: "ألو! بعدك زعلان على أبوي؟" كان يدري بأني أحمل عتبا مريرا. الذي لا يدريه أن عتبي ليس تجاه عمي صالح، إنما تجاه الزمن الذي حرمني من دخول بيته بحجة أنني أصبحتُ رجلا. تساهل قليلا، حين أخبر شقيقته، إن كانت قراءتي لها ضرورية، فلتكن عبر الهاتف. رفضت فوزية. حُرِمنا من جلسات القراءة.

ولأنني لم أجه، سألني: "تروح ويّاي الجابرية؟" لا مجال للتخمين: "كاسيت جديد لعبدالكريم؟" تجاوز سؤالِي: "غيرّ ثيابك بسرعة!" غيرتُ مزاجي بسرعة. نسيت مرارة عتب أحمله تجاه بيت آل بن يعقوب. هرعت فورا لتغيير ملابسي. من سوى عبدالكريم يدفع فهداً للمشي، من السُرّة مرورا بالجسر، إلى الجابرية ظهرا في ذروة الصيف؟! ومن سواه يشفع لصاحبي يُرغمني على مصاحبته إلى مؤسسة الحشاش مشيا، احتفالا بمناسبة سنوية يتحرّق لها فهد أكثر من عيد؟! حثّ خطوهُ مسرعا ما إن لمح صورة الكاسيت الجديد كبيرة على واجهة المحل الزجاجية. اشترى شريطي كاسيت من الألبوم ذاته، وألح على البائع الهندي أن يعطيه صورة ترويجية



للاحتلال، تحمل شعار "كي لا ننسى" سألتُ فهداً عن الأشياء التي لن ينساها من زمن الشهور السبعة. عدّدها. العراقيون الأشرار. دول الضّد. الشهداء والأسرى. الحرائق والمباني المدمّرة، حقول الألغام وآبار النفط ودخانها الذي حجب الشمس لشهور عدة تلت يوم التحرير. كان يتذكر كل شيء بالأرقام. سبعة شهور احتلال. خمسة دول ساندت العراق. ستمائة وخمسة أسرى. خمسمائة وسبعون شهيدا. سبعمائة وسبعة وعشرون بثرا نفطية نفث نيرانها تحترق على مدار تسعة شهور. أكثر من مليون لغم برّي وبحري. أتذكره بحصي الأرقام في حين كنت أوصل المشي صامتا. سألتني: "شفيك؟" أخبرته أن والدتي تريدني أن أنسى كل تلك الأشياء. سألتني عن الأشياء التي تريدني، الست الناظرة، أن أتذكرها. كانت المرة الأولى التي يشير بها إلى والدتي على طريقة أُمي حصّة. كانت المرة الأولى التي لم يزعجني فيها الوصف. كانت والدتي كلما شاهدت صورة أو تقريرا في التلفزيون يحمل الشعار "كي لا ننسى" تغلق التلفزيون. تُمسّد رأسي. تُعدّد الأشياء التي لا تريد لي نسيانها؛ لا تنسى أن الكويتيين عملوا في جمع القمامة بعدما كانوا ملوكا في بلادهم. لا تنسى أننا أصبحنا لاجئين في ليلة وضحاها في شتّى بقاع الأرض. لا تنسى أن بعضنا، رغم إعانات الحكومة في المنفى، عاش على التبرعات طيلة أشهر الاحتلال. لا تنسى أن البعض ضحى بحياته من أجل وطنه. لا تنسى أننا نسينا كل خلافاتنا واختلافاتنا من أجل بلادنا. لا تنسى أنك لا تساوي شيئا من دون وطنك. ثم أخيرا، والأهم، لا تنسى أن الدنيا تدور! سألتني فهد: "والتعذيب وحرايق



النفط والألغام والـ.. قاطعته: "أمي تقول انسى حدّق في وجهي. سأل: "نسيت؟" لذتُ بصمّي ألفتُ إلى الورا أنظر إلى اللوح: "كي لا ننسى سألني قاطعا صمّي: "وأبوك؟" لا أتذكر حديثا لوالدي إزاء ما حلّ بنا عدا عبارتين لا ينفك يكررها، الأولى: "مو حرام كل هالنفط احترق؟!"، والثانية: "الله يعزّ الأمير أسقط قروض المواطنين ومديونياتهم

قطعنا الجسر وصولا إلى شارع طارق بن زياد في السُرّة. أصر فهد على زيارة بيت عمي عبّاس ما إن دلفنا شارعنا. سألته عن أوان الاستماع إلى الكاسيت الجديد. أجابني: "بعدين هو لم يفعلها من قبل قط. عادته يوم صدور كاسيت جديد لعبدالكريم أن يختفي في غرفته يوما بأكمله. يخرج في اليوم التالي وهو يحفظ أغاني الكاسيت كما يحفظ اسمه.

جلسنا، في بيت عمي عباس، على الأرض يتوسطنا صادق المهووس بألعاب الفيديو. يحكم كفيّه على مقبض تحكم جهاز الـ SEGA، مأخوذا بلعبة عاصفة الصحراء، Desert Storm، يقود طائرة مروحية أميركية يُصلي جنودا عراقيين رصاصا كثيفا. أفرغ ذخيرته ثارا إلكترونيا. ارتفعت ضحكاته، تشفيا، تُجاوز أصوات الانفجارات في الشاشة أمامه. كان عمي عبّاس يجلس على أريكة خلفنا يتابع حماسنا، يحصي القتلى. وجّهت حوارا شقيقها: "هناك.. ورا الصندوق الكبير!" فجّر صادق الصندوق وما وراءه. يتغيّر الرقم أعلى الشاشة يسجّل عدد القتلى، في حين ننتظر، أنا وفهد، مقبض التحكم ينتقل إلينا لنأتي على ما بقي من جنود عراقيين يتمترسون

خلف جدران آيلة للسقوط، نوجّه صواريخنا إلى خنادق لعلها تخفي أحدهم. نكسر أرقاماً قياسية حققها صادق. هتف فهد: "حوراء! شوفي شوفي هالحركة!" استبدل قذيفة واحدة كبيرة بطلقات رشاشة تضاعف الأرقام في عدّاد القتلى أعلى الشاشة. التفتُ إلى عمي عبّاس أسأله عن ضحايا رصاصاتنا وصواريخنا: "يُعتبرون شهداء؟" أجابني: "لأ طبعاً!" عدتُ لمتابعة الشاشة مطمئناً. خرج فهد مع ارتفاع أذان المغرب. انتهت إلى كيس مؤسسة الحشّاش على الأرض إلى جانبي. التقطته أتبع فهداً قبل أن يدرك بيته المحظور علي. سألتني حوراء: "وين؟" أجبتها راكضاً: "فهد نسي عبدالكريم ناديته عند الحوش: "فهد!" لوّحتُ له بالكيس. كان قد أدرك باب حوشهم. أجاب بصوت مرتفع: "اتركه هناك.. آخذه غدا" لم أفهم كيف له، بعد رحلتنا المضنية، أن يتخلى عن الكاسيت بهذه السهولة. نظرتُ إلى داخل الكيس. وجدت نسخة واحدة من كاسيت عبدالكريم عبدالقادر.. "ظماي انت 93"

\*\*\*

## يحدث الآن 5:02 PM

لا شرطة مرور تفكُّ هذا الازدحام الذي لا أرى آخره. أشفقُ على رجال الأمن والمرور والإسعاف والمطافئ، الموظفين منهم والمتطوعين، لا تكفي أعدادهم لتغطية مناطق الخراب. وجوههم هلعة. ماذا لو كان أحد أقاربهم بين الضحايا؟ ألتفتُ حولي لعل طريقاً سالكة بين السيارات تفضي إلى وجهتي. ألح رسومات لفتران مشطوبة بعلامة X، وشعارات، مهورَة بتوقيع أولاد فؤادة، على أسوار بعض البيوت، احموا الناس من الطاعون، الفتران آتية!

أمسك بهاتفني أتصفح تويتر. صورة البطاقة الشخصية تأخذ طريقاً سالكة بين مستخدمي البرنامج. كلُّ يعيد تدويرها يُدرج تعليقاً بوجهه لضاوي: "إن مَنْ يعرف من أي منطقة تبثُ إذاعة أولاد فؤادة براجمها يعرف حتماً بأنك زنديقٌ رافضي يبدو أن مقرّنا لم يعد سرّياً كما يقول أيوب. تعليق آخر يرد على الأول: "اقرأ اسمه، قبل أن تتكلم، وأنت تعرف أنه ناصبي إرهابي أنظر إلى وجه ضاوي في صورة بطاقة يتداولها الناس. له وجه خالي حسن. ابتسامته الهادئة. أسنانه البيضاء المنتظمة. لحيته الداكنة المُرّبة. لا شيء مما تحمله التعليقات يشبهك يا ابن الخال. لا شيء. تختفي الصورة وراء اسم الناشر يصحبه رنين الهاتف: "ألو

"يا خبيّ طز بالرواية.. بس طمني عليك!"

خوف الآخر وخشيته عليك عزاءً في حدّ ذاته. صوتي يخالف  
إجابتي:

"أنا بخير..  
"والله؟"

لا أحيّرُ جواباً. يسألني عن الحال. يبحثني على الخروج بدلاً من  
الاستمرار في. لا جدوى من. والحال من سيءٍ إلى. لا يؤجل سؤاله  
في نهاية المكالمة:

"بَعْرِفِ الوَقْتَ مَنّو مناسب.. بس شو قِلت؟ نطبع  
الرواية؟"

أنظر ناحية أعلام خضراء وصور كبيرة تعلق البنائيات لرجال  
مُعَمَّمين. تشبه، في مضمونها، أعلاماً سوداء وصوراً تعلق بعض بيوت  
السُرّة ومدارسها. تدفعني الصور والأعلام لأجيب مشترطاً:

"كاملة"

"يا رجل موضوعك مهم. دخيل الله حرام يمنعوه منشان  
أربع فصول منّا محرزة!"

ما يجول في خاطري. والازدحام من حولي. كلاهما أو أحدهما  
يجيلُ نبرة صوتي غاضبة:

"الحذف ما يغيّر شيء! إنت ما تدري! أوضاع الرقابة  
بائسة.. إنت ما تسمع عن مجازر الكتب عندنا؟!"

"عمِّي روق.. روق.."

يدفعه ترُددي يضغظ:

"هيدا مَنو حَكبي أنا.. هيدا حَكبي المحرر.. مِنشيل  
الفصول الأربعة وبوعدك روايتك بتفوت.."

تُنهي المكالمة بما يشبه رهانا. تجاز، بعد حذف الفصول الأربعة،  
أو لا تُجاز. وأنا أبحث في ازدحامي هذا عن مجاز إلى مقرِّنا. انعطفُ  
خروجاً عن الزحام، صعوداً فوق الرصيف، أقطعه إلى الشارع  
المقابل. تحتفي بنايتنا وراء بناية ضخمة. الأنشودة الدينية في إذاعة  
أولاد فؤادة لا تزال.

نستأنف بث برنامجنا أحببتنا المستمعين..

يمدّد ضاوي وقت حلقتة اضطرارا. لن يدوم الأمر طويلا يا ابن  
الخال! الشمس في آخر غروبها. أنظر إلى الساعة في معصمي،  
الخامسة وخمس دقائق. أمامك دقيقة واحدة. أدريك تتحرى أذان  
المغرب، لن تستمع إليه في الجارية وفق توقيتك. لا ضير إن جاء  
متأخرا عن موعدك عشر دقائق، الله أكبر، هذا النداء الذي ما عاد  
للصلاة وحسب. صار يسبق كل حَز سكين وطلقة رصاصة  
وانفجار. أتحرق للوصول، أعفيك من هذه المهمة. سوف أصل قريبا  
إلى المقرِّ، من أجل نشرة السادسة وفقا لما أرسله أيوب من أخبار على  
بريدنا الإلكتروني. سأتولى بنفسني بث برنامج صادق "أنا التاريخ  
كله". يكون صادق قد فتح هاتفه المحمول، ويرُد فهد على اتصالي

بدلاً من عبدالكريم. أتفرغ في التاسعة لبرنامجي "حنين"، ففي هذه اللحظات أحتاج هرباً من زمي هذا إلى زمنٍ يسيني مشاهدات اليوم. تتوقف السيارات أمامي فجأة عند الإشارة الحمراء. أنتبه إلى صمت إذاعتنا مدّة بعد عبارة استئناف ضاوي. أرفع صوت الإذاعة إلى آخره. مجموعات تعبر الشارع عن يميني تشير إلى ما وراء البناية الضخمة. آخرون لا يلتفتون إلى شيء عدا طريقهم. أُرهب سمعي مع الإذاعة. صوت بالكاد يُسمع لطرقات متكررة. ونداءات، ربما.. لستُ متأكداً. لعله ضعف الإرسال. لعلها تشوشات إذاعة أخرى. يقترب الصوت. يتعد. لا يزال غير واضح ألتقط منه بضع كلمات. يا الله يا الله. ينقبض صدري. أنظر في نافذة السقف أهرب من ضيقي إلى رحابة السماء. "المطر عند الله"، تنشط الأغنية داخل رأسي. الأرض ترفضي. تلفظني. أتذكر ضاوي كلما استغلقت أمره يقول "يجيب الله مطر ينهض صوت أمي حصّة من سباته، يتلع صوت ضاوي، تصيح: "راح تطيح علينا السما" أحتاج إلى زرّ كرر صادق. أضغطه.. يختفي كل شيء، أو أحتفي!

يرتفع نفير السيارات ورائي ينبهني إلى الإشارة الخضراء. "يا الله يا الله" شيء ما يجري لضاوي. قلبي يقرصني يا ابن خالي. أتجاوز الإشارة. تظهر بنايتنا وراء البناية الضخمة. نوافذ مقرّنا في الدور الأخير تنفث دخاناً كثيفاً. يرتفع أذان المغرب: "الله أكبر.. الله أكبر ينفجر صوت ضاوي فجأة في الإذاعة. يقترب. يتعد: اللهم هوّن علينا ظلّمة القبور.. اللهم وسع قري ونور لي فيه.. اللهم هوّن علينا ظلّمة القبور..

فجيعتي بمصيرك المحتمل، يا ابن الخال، لم تشغلني، أنتبه إلى  
حرف الرءء سللما في لسانك، ىرن في أذنل.

"للجلب الله مطر يا ضاوى.. للجلب الله مطر

\* \* \*

## الفصل الثالث

ذات ظهيرة، ربيع 1994، أمسك فهد بلوح صفيح، بالقرب من السُدرة. كان اللوح ذات يوم جزءاً من قفص دجاجات أمي حصّة. رفعه كاشفاً عن رمل رطب خلّفته أمطار الشتاء الماضي. الأرض مثالية لتكاثر دود القُبّي. شرعتُ وصادقُ نحفر الرمل بأظفارنا نبحثُ عن دودٍ نشطٍ ممتلئٍ يصلحُ لاجتذاب طيور الربيع وقت الحَبال. دودٌ كبير ذلك الذي يستحيلُ، تالياً، أبا جعل. بخلاف ديدان صغيرة، في أفضل أحوالها، تتطور إلى خنافس تافهة. لا هوية تُحقق متعة الحَبال إلا مُتعة القُمبار لدينا. كرهتُ القُمبار، منذ آخر مرة قَمِرتُ فيها قبل ستّ سنوات، بسبب عمي عبّاس وكلامه المسموم. صارت هوية الحَبال متعة فريدة أبقيتها بعيداً عن عُقدِ جارينا. سرحتُ مع زرزورٍ نافقٍ، بالقرب من اللوح الصفيح، تملأُ بطنه ديدان صغيرة تتلوّى وتثير الغثيان. نَبهني صادق: ما بالك؟ أقوال أمي حصّة لا تفارقني. أحبته: يخرج من بطنك دودٌ يأكلك. لم يعرني اهتماماً. مددتُ يدي إلى الرمل الرطب. الكثير من الدُودِ في البقعة أسفل اللوح. شرع صادق يلتقطه بين إصبعيه، يضغط منتصفه، يتحقّق من



صَحَّتْهُ: "مِدَّ إِيدِكَ!" كنت قد رفعتُ كَفِّي عن التراب، صفقتُهما ببعض، بعدما رأيتُ غَيْرَانَا لا قدرةَ لِلْقُبِّيِ على حَفْرِهَا، وفضلاتُ بَنِيَّةِ دَاكِنَةِ تَقَارِبِ حَيَّاتِ الرُّزِّ حَجْمًا. تَشَمَّمْتُ المَكَانَ. رائحةُ تَرَايِيصَةِ حَامِضَةِ أَعْرَفُهَا جِيدًا. ظَنَنْتُهَا اخْتَفَّتْ. تَذَكَّرْتُ قَوْلَ أُمِّي حِصَّةً، لَيْسَ ضَرُورِيَا أَنْ تَرَاهَا كَيْ تَعْرِفَ بِوُجُودِهَا. صَادِقٌ وَفَهْدٌ يَجْسَبَانِي أَبَالِغُ إِذَا مَا رَحْتُ أَصِفُ الرَّائِحَةَ. لَا يَصِدِّقَانِ. أَنْتَ وَاهِمٌ.

كَانَتْ حَصِيلَتُنَا كَبِيرَةٌ مِنَ الدُّودِ. لَا يَكْفُ عَنْ الحِرْكَةِ فِي قَاعِ زَجَاجَةِ كُولَا فَارِغَةٍ. طَوِينَا أَطْرَافَ دَشَادِيشِنَا الشَّتْوِيَّةِ الدَاكِنَةِ لَفَا حَوْلَ خُصُورِنَا. حَمَلْنَا فَخَاخِنَا الشَّبَكِيَّةَ الخُضْرَاءَ وَزَجَاجَةَ الدُّودِ. حَحْنَتْنَا الخَطِيَّ إِلَى بَرِّ مِشْرِفٍ فِي نَهَايَةِ شَارِعِ دَمَشَقٍ. فِي المَنْطَقَةِ الَّتِي سَوْفَ تَصِيرُ سَكْنِيَّةً خِلَالَ أَقَلِّ مِنْ عِشْرِ سِنَوَاتٍ. قَامَتِ المَنْطَقَةُ بَعْدَ ثَوْرَةٍ لَا مِثِيلَ لَهَا ضِدَّ ثَعَالِبِ الحِصْنِيِّ وَالجِرَابِيِّعِ وَالضُّبَّانِ وَالسَّحَالِيِّ وَقْتُ دُخُولِ الحَفَّارَاتِ وَسِيَّارَاتِ خَلْطِ الإِسْمَنْتِ إِلَى البَرِّ. يُشَاهَدُ الضُّبُّ خَاطِفًا بَيْنَ أَلْسِنَةِ الإِسْفَلْتِ يَبْحَثُ عَنِ مَكَانٍ آمِنٍ. صَارَ الجُرْبُوعُ بِلَا مَأْوَى، تَدْكُ آلَاتُ الحَفْرِ غَيْرَانَهُ فَوْقَ صِغَارِهِ، يَتَقَافَزُ هَلْعًا مِنْ ضَجِيجِ أَصْوَاتِ آلَاتِ البِنَاءِ. كَانَ ذَلِكَ تَحْضِيرًا لِتَقْسِيمِ البَرِّ إِلَى خَمْسِ مَنَاطِقٍ سَكْنِيَّةٍ؛ السَّلَامِ وَحِطِّينَ وَالشَّهْدَاءِ وَالصَّدِّيقِ وَالزَّهْرَاءِ. كَانَ البَرُّ القَرِيبُ مَكَانَنَا الأَثِيرَ وَقْتُ حُصُولِنَا عَلَى رِخْصَةِ القِيَادَةِ عَامَ 1996، المَكَانَ الوَحِيدَ الَّذِي نَسْتَعْرِضُ فِيهِ بِسِيَّارَاتِنَا نَثِيرَ الغُبَارِ حَوْلَنَا بَعِيدًا عَنِ دُورِيَّاتِ شَرِطَةِ المَرُورِ. نَنْهِي فُوضَانَا بِفَرَشِ قِطْعَةِ سَجَادٍ نَمْضِي وَقْتًا هَادِئًا فِي الظَّلَامِ بَعِيدًا عَنِ ضُوضَاءِ المَنَاطِقِ السَكْنِيَّةِ وَأَنْوَارِهَا. يَتَحَدَّثُ فَهْدٌ عَنِ أَسْمَاءِ المَنَاطِقِ الوَلِيدَةِ. الصِّدِّيقِ نَسْبَةً إِلَى

الخليفة أبي بكر الصديق. يستغرب صادق تسمية منطقة بأكملها؛ الصديق، في حين اكتفى المسؤولون بشارع يحمل اسم الإمام علي بن أبي طالب في السُّرة. يُذكره فهد بتسمية منطقة الزهراء نسبة لابنة النبي فاطمة الزهراء زوجة الإمام علي. "لا تزعل"، يقول له. يُصوّر حديثهما للسامع مزاحاً، ولكنه لم يكن. يبدأ باسم المناطق، وينتهي بما يشبه خلافاً حول أحقية أصحاب الرسول في خلافته. من يخلفُ من. كنا في الجزء الذي صار اسمه منطقة السلام. نفترش الأرض ليلاً. نسنُدُ ظهورنا إلى سيارتي. كنتُ ساهماً أتبع جربوعاً مفجوعاً يقفز هنا، وضباً لاهثاً يركض هناك. يضحك صادق وفهد إزاء حزني لحالها مشرّدة في الظلام. يهون صادق الأمر بعبارة قالها لي قبل سنتين في المكان نفسه: يموت أحدهم ليعيش آخر!

بعد نصف ساعة، قضيناها مشياً حاملين فخاخنا وزجاجة الدود، كنا في البرّ. مكان آمن، في زمن يسبقُ تشظيّه إلى خمس مناطق سكنية. في جو مشمسٍ بارد، تحت سماء صافية الزرقة. انتشرت أزهار النوير على امتداد البصر مثل سجادة صفراء لا آخر لها. مضينا في السير نبتعد عن ضجيج الشارع. أحببتُ المكان الربيعي لولا أن لمحتُ كلباً سائياً في الجوار. "هش هش!"، طرده صادق يرميه بحجر: الكلاب السائبة جبانة! همس فهد وهو يشير إلى طائر صرد رمادي غير بعيد: "هناك هناك.. حمّامي عربي!" توقفنا على مبعدة من الصرد الرمادي، كان مولافاً حول سيدة جافة. يحطُّ فوقها يدس منقاره في ريش صدره الأبيض قبل أن يطير ثانية. يرتفع أسفل السّدرّة، على مبعدة خطوات، تلُّ صغير لحجارة مهملة. لم نأبه بابتعاد الطائر، واثقين بأن المولاف

يعود إلى مكان يألفه. غرفَ فهد حفنة رملٍ، جعلها تنسلّ من بين أصابعه في الهواء يحدّد اتجاهها. تطايرت حبات الرمل تساير الريح في وجهتها. نقلتُ الأحجار من مكانها أصنعُ تلاً باتجاه هبوب الريح صوبَ السّدرَة. أسندتُ الفخَّ إليه أبرزه أمام الصرد الرمادي إذا ما حطَّ عائدا إلى الغصن. ندرية يواجه الريح بصدرة الأبيض أبدا. غطيّتُ أجزاء من الفخّ بالتراب. أخرجَ صادق القُبي من زجاجة الكولا التقطه بين إصبعيه يزيل حبات رمل عالقة بجسده الأصفر اللزج. ثبّته في منتصف الفخّ بخيط مطاطي أحكم لفه عليه. صار القُبي يتلوّى وينتصب بصورة لافتة في سكون ما حوله. ابتعدنا، مئات أمتار، نراقب السّدرَة الجافة، بعيدا بين أزهار النوير. أقبل الصرد الرمادي، يطير منخفضا، مهيبا يحوم حول السّدرَة. حطَّ على الغصن الجاف يواجه الريح بصدرة الأبيض. يتلفّت حوله والخط الأسود حول عينيه مثل عُصابة اللصوص في الأفلام. تنبّه إلى حركة القُبي فوق التلّ الصخري. لمحتُ الكلب السائب يُقعي بعيدا، بين النوير، يظهر رأسه، مادّا لسانه، يراقب الطير في مثل جلستنا تماما. هبط الطيرُ على التلّ الصخري يتلفّت حوله. يجرّكُ رأسه بما يشبه رقصة شعبية. اقترب من الفخّ. تحفز الكلب. قرّب الطائر رأسه إلى الدودة حذرا. تسحب الكلب في البدء. صار الحمّامي العربي قريبا جدا يناور القُبي. نقلتُ نظري بين الكلب والطائر في حين أنصتُ إلى نبضات قلبي في رأسي. صار الكلب يركض نحو الحمّامي العربي يثير الغبار وراءه من مسافة بعيدة. لم يكن مثل سلوقي أبي سامي وإن مائله شكلا. كان ملطخا بالأوساخ. شكله مربع. الكلاب السائبة تنسى جنبها وقت جوعها.

فتح الطائرُ منقاره الأسود. لم تتحرَّك. حبسنا أنفاسنا. نراقبُ الكلبَ في مشهدٍ يشبه أفلام الحيوانات الوثائقية. شيء ما سقط من الذاكرة عندما دوَّى انفجار عظيم ترك صفيرا في أذني وغبارا كثيفا مثل غيمة سقطت من السماء. استغرقتنا الأمر وقتا لنذكر أن الكلب وطأ لُعما أثناء جريه صوب فريسته. كانت أشلاؤه قد تناثرت في المكان. كنا نلهث جلوسا. نرتعش. نخشى حراكا يُفضي إلى مصيرٍ مشابه لمصير الكلب. صرنا ندرس الخطوة أسفل أقدامنا. لم نهرب في البدء. نتصرَّفُ بغير إدراك. يتلَفَّتُ فهد باحثا عن الصرد الرمادي، يقول: "لَتَّ الحَمَّامي العربي كسر صادق زجاجة الكولا محررا الدُّود أسفل التلِّ الصخري. حرَّ القُبِّي من قيده المطاطي في الفخِّ. لا أدري، إلى هذا اليوم، لماذا لم نطلق سيقاننا للريح خروجا من البرِّ فور الانفجار. ولماذا صرنا نلتَفَّتُ بحثا عن الصرد الرمادي وكأن قوَّة خفيَّة تحميه. ندرسه يطيرُ منخفضا. ولكنه، رغم ذلك، اختفى. كانب السيارات قد تزاممت في نهاية شارع دمشق. بداية الطريق الرملي. عند التقاء الإسفلت بالرمل. حملتنا سيارة إلى بيوتنا. نسيت ما قاله السائق صراخا إزاء حماقتنا. نسيتُ كل شيء مثل حُلْمٍ لم أتذكر منه عدا قول صادق إزاء مشهد عظيم. قول صار لا يفارقني: يموت أحدهم.. ليعيش آخر!

تزامن شهر محرَّم مع بداية عطلة صيف 1994. كنت في غرفتي أهمُّ للخروج عندما رنَّ جرس الباب مساء العاشر من الشهر الهجري. دسستُ زجاجة عطر في جيب دشداشتي قبل ذهابي إلى مجمَّع الأنبعي حيث ينتظرني فهد. وجدتُ صادقا وراء باب الحوش يحمل قدرَي طعام من الذي تعدّه أُمي زينب كل عام في ذكرى أيام مقتل

الحسين. ناولني صادق الطعام: "امسك بسرعة" أجبته: "هذا وايد!" نظر باتجاه بيت آل بن يعقوب، برّر بأن أمي زينب أرسلته يحمل الطعام. قدّر لنا وآخر لبيت عمي صالح. ولكن عمي عباس أسرّ إليه قبل خروجه بأن يكتفي بإيصال الطعام إلى بيتنا متجاوزا بيت جاره اللصيق. سألته عن رغبة أمي زينب، قاطعني: "أعصي أبوي؟!"، ثم راح يؤكد أن أبا فهد لا يأكل من طعامهم. توترت علاقة الجارين ثانية. تركتُ القدرين على الطاولة في غرفة الجلوس. تركني صادق ليذهب مع عمي عباس إلى الحسينية في اليوم الأخير، في حين ذهبتُ إلى مجمّع الأنبي. "تفضّل!"، صاح جابر وهو يدير سيخ الشاورما أثناء مروري أمام مطعمه: "شاورما؟ سانديويتش مكرونة بالكاتشب؟" اكتفيتُ بالتلويح له هازأً رأسي. رفع صوته عاتبا: "خلاص؟! جابر بقي كُحّه وماكدونالدز هو الجِلو!" كان المطعم الأميركي الشهير قد افتتح أول فرع له في الكويت قبل أسابيع. قيل إنه الأكبر، مساحة، في العالم. قيل إن السيارات تصطف أمامه في طوابير طويلة. قيل إنه يخصص جزءا من أرباحه لدعم إسرائيل. قيلت أشياء كثيرة، ولكن، يفوتك من الكذاب صدقٌ كثير. تجاوزتُ جابرا، مرورا أمام مكتبة البدور، حيث اقتعد أبو فواز كرسيًا عند الباب: "ما عدنا نشوفك!" افعلتُ ابتسامة. سأل: "منهو إللي يقرا لبنت بن يعقوب ألحين؟" مططتُ شفّي رافعا كتفي أهزُّ رأسي. مضيت تاركًا إياه ورائي متحلطما: "القطو أكل لسانك؟!" تجاهلتُ قِطَهُ ملتفتا إلى قِطِّ آخر يجلس على صناديق كولا فارغة، يرفع أطراف دِشداشته إلى ركبتيه، يدخن سيجارة، أمام دُكَّان حيدر. لم يكن صاحب الدُكَّان

موجودا. غاب، هو وولده، عن دُكانه شأن كل يوم عاشوراء في كل سنة. "شلونك فهد؟"، سألته قبل دخولي إلى دُكان البقالة. وجدت ابن شاكر البُهري ينوب عن حيدر وابنه. يجلس خلف مسطبة العلكة والحب الشمسي. ناولته نصف دينار لقاء علبة سجائر قبل أن أنضم إلى فهد أقتعدُ صندوق كولا إلى جانبه. ما كدتُ أسحبُ نفسا من السيارة، أهدقُ في توهج جمرها منتشيا، حتى نبهني:

"إسترها إسترها!"

أخفيتُ سيجارتي، ممسكا بعقبها بين سبّاتي وإهامي، مخفيا جمرها وراء كفي. حبستُ الدخان في صدري. بالمثل فعل فهد، لحين مرور سيارة عمي عبّاس في السّكة أمام المجمع واختفائها في آخر الشارع. كان زجاجها الخلفي يحمل ملصقا صغيرا لتلك الصور التي صارت تنتشر على زجاج السيارات، تشير صراحة إلى طائفة ينتمي إليها صاحب السيارة، بصورة لم نألفها قبل الاحتلال؛ مثل سيف ذي الفقار وسفينة تحمل أسماء الأئمة.

أطلقتُ الدخان من صدري باهتا. سألتُ فهدا منذ متى يعيرُ اهتماما لأبني صادق لئلا يراه يدخن. لم يرد. سحقتُ سيجارتي بقدمي قبل أن أهيها. رششتُ العطر على كفي ووجنتي وملابسي. أشرتُ بذقني نحو حرفي الـ F والـ H على جدار مبني محوّل الكهرباء أمامنا. تعلوهما كلمات مجتزأة من أغنية؛ "بيني وبينك غربة كُنّها الليل مهورا بلقب عبدالكريم عبدالقادر، الصوت الجريح. أخبرتُه بأنه يهينُ صادقا بفعله هذا. نظر في الفراغ ينفثُ دخانا كثيفا

من منخريه قبل أن يقول: "صاڤق أخوي" سألته: "وهوراء؟" لم  
يرد. صاآ أبو فوآز يناديه:

"يا ابن الملوآ!"

التفتنا إليه. واصل يآذر فهذا:

"ما ورا هالدرآ خير!"

نظرنا، فهذا وأنا، إلى بعضنا في آيرة. واصل الرجل:

"لو أهلكم يعرفون.. يموتون آسرة!"

أآمر وجه فهد لم يُجر جوابا. رَقَّ صوت أبي فوآز في

نصيآته:

"أتركها يا وليدي.. أتركها!"

ترك أبو فوآز مقعده يتجه نحونا مآدًا إصبعيه، مثل علامة النصر،

يقرُّهما إلى شفآيه:

"سيآارتك أطول منك!"

التقط سيآارة فهد من بين إصبعيه. رماها بعيدا:

"أتركها يا وليدي!"

\* \* \*

## يحدث الآن 6:52 PM

يرتفع هدير مولدات الكهرباء في البيوت والبنيات وقتَ قطعت الحكومة الكهرباء، في وقتٍ لا مجد فيه إلا للظلام. ذابت رزم الشموع التي أحضرها مساء اليوم، قبل أن يشعلها. مضى قبل أن يواجه ظلاما يخافه. ظلامٌ ساكنٌ لولا وميض أحمر لسيارات إطفاء، وآخر أخضر لسيارة إسعاف، يلقيان لونيهما تناوبا، يكشفان السُّخام، على بنايتنا، وعلى الوجوه المدعورة لسكان الطابق العاشر. يجلس بعضهم على الرصيف مستسلما لإسعافات أولية. يتنفس عبر كمّام. أحتاج كمّامًا يقيني رائحة ننته ألفتها الجميع إلا أيوب وأنا. يُحدّث واحداهم الآخر بأن الحريق كان بسبب تماس كهربائي. يعزوه آخر إلى موقد الطبخ. يقاطعهما ثالث؛ عثور رجال الأدلة الجنائية على جالون فارغ، والكثير من الفئران الهاربة من الشقة المشتعلة، في ممر الدور العاشر. كان باب الشقة مقفلا والمفتاح في قبض الباب من الخارج. يُلمح أحدهم إلى شبهة جنائية. يسأل صاحبه يتأكد من موضع المفتاح من جهتي الباب: "وين المفتاح؟" تختفي أصواتهم مع أصوات سيارات الإطفاء والإسعاف. يتردد الصوت قديما داخل رأسي في غير وقته، يراوح بين مبتدأ الأغنية وختامها: "المفتاح عند الحدّاد"، "المطر عند الله" مُسعفان، بثياهما البيض، يكشفُ عنهما باب البناية، يسيران في عجل نحو سيارة إسعاف مشرعة بأبيها تنتظر



قدوم قطعة صغيرة على نقالة جرحى. لا أدري لمَّ العجلة. أسحبُ  
رجلي العرجاء صوبَهما. يدفعان النقالة إلى السيارة. أستمهلهما:

"لحظة.. لحظة!"

أُمسكُ بذراع أحد المسعفين وهو يطبق بابيَّ السيارة. يفتح  
ذراعيه يمنعي من الاقتراب. وجهه صارم:

"ما يصير!"

أرجوه:

"طلبتك يا خوي.. لا تردني.."

ينظر إليَّ يسأل:

"قريبك؟"

تنفستُ مني عبره:

"ولد خالي.."

تلين ملامحه. ينظر إلى زميله. يهزّان رأسيهما يعاودان فتح  
الباب. أتقدّم نحو ما تبقى من ضاوي تحت اللحاف الأبيض داخل  
السيارة. يُمسك الرجل بكتفي:

- "تقدر؟"

أومئ برأسي مؤكدا. كفه تطبق على كتفي لا تزال:

"أكيد؟"

أمرُّ إصبعي أسفل أنفي أمسح ما تحالف مع دمعي:

"أكيد"

أجلس على ركبتيَّ قرب النقالة داخل سيارة الإسعاف. أمسكُ  
بطرف اللحاف أزيله ببطء. إن كان اللثام، ذات يومٍ، قد كشف  
عمَّن كنت أظنه يُشبه خالي حسن، فإن اللحاف في سيارة الإسعاف  
يكشف عما لا يشبه ابنه. شيء يشبه الجسد ينث رائحة شواء بعدما  
كان دهن العود عطره. وعدتني يا شيخ بالمطر أهكذا ترحل  
يا رجل، يا ابن فؤادة، بلا مطر؟ تغيب يا ابن الخال، ولو يعود الخال  
عنك يسأل، ماذا أقول؟ هل أقول له هاك بواقى ابنك وقد صار  
جرما متفحماً بطول ذراع؟ حملة رجال إطفاء يسلمونه لرجال  
إسعاف فات أوان إسعافهم. رحلت بجزء متفحّم وأجزاء رماد  
أورثتها نارٌ قديمة. خلّفتني وراءك إذن. خلّفت حرف الرءاء مُعاقا في  
أذني يشتاقي إلى لسانك. وقدر طعام وفندوس تمرّ ينتظران يمينك.  
غابت الشمس عن شمسك وقت أذان المغرب. وقت عانقت السماء  
ظلمتها و لم تمطر أعيد اللحاف فوق الجسد المتفحّم. أنظر إلى  
بروز الجسد تحته. ماذا لو كان شخصا آخر؟

"شيد حيلك.."

التفتُ إلى مصدر الصوت ورائتي. أجدُ أيوبا. يملأ السُّخام ثيابه  
ووجهه وكفيه. التفتُ إليه وكأن بيديه أن يغيّر أمرا كان محتوما. أو  
أن يجيء بخبر يكذّب ما حدث. لربما كان ذلك الشيء على النقاله  
يخصُّ آخر غير ابن خالي.

"أيوب! جابك الله..

أهرعُ إليه أقول:

"لا تخاف.. مو أكيد.. مو أكيد..

يتسم، والدمع يرسم خطين على سخام وجهه. ابتسمُ  
بالمثل. هزرتُ رأسي:

"آنا ما شفت وجهه.. يمكن مو ضاوي.. حتى ريحته  
غير..

ينظر إلى وجهي مستغربا. أمرر إصبعي على أسناني. أتذكر  
سني المفقودة. أضحك. أسأله لماذا ينظر إليّ على هذا النحو؟!

يعانقني. ينتفض جسده.

\*\*\*

## الفصل الرابع

كنت وحيدا في البيت. بداية عطلة صيف 1995. أحببتُ بيتنا أكثر من أي وقتٍ مضى، منذ استعصى دخولي إلى بيت آل بن يعقوب، ومنذ اشترى والذي قطعة أرض كبيرة في شارع أبي حيان التوحيد في الروضة ليقم بيتا جديدا. الروضة لا تبعد، عدا بضع دقائق بالسيارة، عن السُّرَّة. ولكنني أكره أن أكون في مكان غير مكاني. كانت والدتي في السوق تحضّر حاجياتها، مثل كلِّ سنة، قبل سفرنا إلى لندن. لم أفكر في إقناعها ببقائي في الكويت، ولا معين لي في إقناع والذي بأنني سوف أكون أمانة لدى من؟ كنت قد طلبتُ من والدتي ألا أسافر معهما قبل سنتين. أجابت: "والله، إلهي رفع السماء، ما تقعد دقيقة بروحك!" رضختُ، رغم أن لا علاقة للسماء بالأمر. كان والذي، الغائب عن البيت في الغالب، أكثر غيابا مع انشغاله في بناء بيتنا الجديد. لم يعد لوالدي وجود أو أهمية في حياتي. ليس بسبب غيابه الدائم عن البيت، بين الشركة ومتابعة البناء، إنما بسبب غياب عن السُّرَّة يُمهِّدُه لنا. هو لا يفهم ماذا يعني اقتلاعي من ذلك المكان. كان يحدثني عن الديوانية الكبيرة المطلة على

الحوش، وعن حَمَام السباحة والجاكوزي والسونا وغرفة البخار في سرداب بيت العمر. يُزعجه عدم اكترائي بخراطط يبسطها أمامي لهيكل البيت الجديد: "وين تَبسي غرفتك؟" تترجم عيناه حنقا تسكتُ عنه شفثاه إزاء إجابتي: "أي غرفة.. ما تفرق" رَن هاتف البيت مساء. حَيَّتني خالتي عائشة قبل أن تقول: "خذ كلم فوزية" فَرَّ قلبسي لسماع الاسم. كانت أول مررة تطلب الاتصال منذ حظري من دخول بيتهم بتهمة تجاوزي السن القانونية. جاء صوتها مغلغا بعتب شفيف:

"خلاص كتكوت؟ صرت كبير علينا؟"

رغم المكانة التي تحتلها فوزية لدي. ضايقتني كلمة كتكوت. أحببتها ذاكرة أهمة أعتزُّ بها؛ أنا رجل! أطلقت زفرة قبل أن تعقب: لست رجلا. قاطعتها مبحلغا:

"نعم؟!!"

أتمت جملتها:

"انت شيخ الرجال.."

لم أتمالك شوقي إليها وإلى صوتي يقرأ روايات إحسان عبدالقدوس في غرفتها و..

- "فوزية أنا وايد ولهان عليك.."

لم تمهلي أتمم ما أردتُ قوله. اندفعتُ تقول:

"تدري؟ لو ترجع عيوني دقيقة وحدة.. ما أبسي أشوف  
غير وجهك"

نبهتني خلال خرس أصابني:

"كتكوت!"

انفلتت ضحكتي عالية. سألتني:

"طلعت لك شوارب؟"

تحسستُ شاربي من دون أن أجيب. استطردتُ:

"ما عليه.. أنا كلمت صالح.. وافق إنك ترجع تقرا لي

سألتها كيف رضخ لها وهو، كما تقول، أسدٌ عليها. ضحكت  
تخبرني بأن عائشة هي من فعلت، لأن قراءة فهد لروايات إحسان  
عبدالقدوس سيئة جدا، ولأن عائشة تقرأ بصوت عالٍ مثل مدرسة في  
فصل، ولأنني لا أزال كنتكوتا في السابعة عشرة من عمري وهي في  
الثالثة والعشرين. قالت متجاوزة كل شيء:

"أمي، الله يرحمها، كانت تحبك وايد..

احتنقتُ بعيراتي. أردفتُ تقول:

"وآنا بعد.."

جاوزتُ مشاعري مقدرتي على النطق. قالت:

"ياالله تعال"

طلبتُ منها أن تمهلني وقتاً أحضّر فيه سيفي البلاستيكي أولاً  
خانتها ذاكرتها. سألتني لماذا السيف؟ جررتُ مشهداً بعيداً: لكي  
نتبارز. أنا بالسيف وأنتِ بأنفك. أجمتُ ضحكها تفتعل غضباً:  
"كتكوت!"

أجبتها:

"آنا آسف فوزية"

ارتفع صوتها:

"نعم؟!"

تداركتُ:

"آنا آسف عمي.."

\*\*\*

## يحدث الآن 7:15 PM

تبتعد سيارات الإطفاء والإسعاف والنجدة بضوائها، مخلّفة صمتا وروائح دخان تحالط الهواء الفاسد، وبرّك المياه حول البناية. يختفي الناس في بيوتهم، خشية رصاصات رجال الأمن، المشروعة، وقت إعلان مفاجئ لحظر التجوّل بدءاً من الساعة. الظلام المعقول خارج البناية لا يشبه الظلام في الداخل. نمُدُّ أيدينا أمامنا كمن يغوص في حبرٍ تتحسّس الجدران. نقطع السلام صعوداً إلى الدور العاشر ينتبه أيوب إلى مشيقي. يسألني ما بالك تعرج؟ "ولا شي أصوات مروحيات تجوب المنطقة. نعيبُ تباع الجيف قريب جداً يملأ صداه المكان. أعيرة نارية تخرق الصمت في الخارج. يسبقني أيوب يمدُّ هاتفه المحمول أمامه، يبددُ ضوء شاشته ظلام السلام. أحتفظ بهاتفني في جيب دِشداشتي لئلا تنفذ بطاريته قبل اتصال من فهد أو صادق. يتوقف أيوب يدسُ كفه في جيبه يخرج زجاجة عطر يصبُّ في راحة كفه. يقربها إلى أنفه يتنشّق مثل مدمن. يمدُّ كفه إليّ. أتزود بالرائحة قبل أن نمضي صعوداً. أعبث بأزرار هاتفني أتصلُ بضايي. الجهاز مغلق. يهمسُ أيوب: "انتبه" أنتبه إلى ضوء هاتفه يزيحُ ظلمة عن جسدٍ متكوّمٍ على درجات السلم. أنحني على الجسد اتحقّق من هويته لربما يكون. ولكنه لم يكن. جثة شاب يبدو في أوائل الثلاثين بنظارة طبية سميكة الإطار. يضمُّ ذراعيه إلى صدره يحضن أوراقاً. أمسكُ



بواحدة أسأل أيوبا أن يُقَرَّبَ ضوء الهاتف. تتضح حروف العبارة على الورقة: "الدين غفلة!" يغمغم أيوب: لا عجب في أن يتجنبه رجال الإسعاف! أهرُجُ الجسد الملقى لعل فيه حياة. "ميت!"، يقول أيوب. أُقَرَّبُ أُذني إلى صدر الشاب. يكرّر أيوب: "ميت" يدير إضاءة هاتفه المحمول نحو آخر السِّلْم. بالكاد أرى جسما يجاوز الذراع طولا ينتصبُ فوق الدرايزين. نواصل المشي صعودا. أتبيّن تباع الجيف ضحما. أنظر إليه لأول مرة من مسافة قريبة جدا. إنه كما يصفه الناس؛ له جسد العُقاب ورأس البومة ولون الغراب. يحدّق في الجنة وراءنا. تتناهى إلى مسامعنا أصوات ضربات قوية بصدى مكبوت. يلتفتُ أيوب نحوي يشيرُ إلى مصدر الصوت؛ المصعد. يتهلّل وجهي. لعله ضاوي. أحثّه لنسرع إليه قبل أن يقتله الظلام. أيوب لا يرد. نحن بين الطابقين الثاني والثالث. نصعد نحو الباب المؤدي إلى الممر بين الشقق. أركض في العتمة صوب المصعد العالق، وصوت الضربات على بابه لا يزال. أصبح: "منهو؟" يجيبني صوت صبيّة، من الطابق العلوي، تستنجد. تتابني حية. أدير ظهري لأيوب في الممر أقول له قافلا نحو السلام:

"مو ضاوي.."

يُنَبِّهني صوته، ورائي، هادئا:

"والبنت؟"

- "عادي.. الصبح ترجع الكهربا.. ما راح تموت!".

بمسكُ بذراعي. ألتفتُ إليه أنظر إلى وجهه بما يتيحهُ ضوءُ شاشة الهاتف في يده. أستغربُ الحيرة في ملامحه. نحن عجزنا عن مساعدة أنفسنا. ما باله يتحلّى بشهامته لا يزال. أسأله لماذا ينظر إليّ كمن ينظر إلى مجنون. أمسكُ بيده أحنّه يتبعني صعوداً إلى الطابق العاشر. يسحب يده. يصرخُ بي:

"إنت مجنون؟!!"

"إنت المجنون!!"

لا أمهله يفوه بكلمة. أنفجر في وجهه لعله يثوب إلى رشده:

"أحتك؟ بنتك؟ قريبتك؟!!"

يعقد حاجبيه يستنكر قولي. أعقد حاجبيّ أستنكر نظرتَه لي. مالنا نحن ومن يعلق في مصعد ما دمنا، كلنا، عالقين في هذا المكان الذي يسمونه وطناً. أصرخ في وجهه: "إصحى إصحى!" تنطفئ شاشة الهاتف في يده. نفوس في الحبر والصمت ثانية. ألم مبالغت، في خدّي الأيسر، يصحبه صوت كالبرق يسقطني أرضاً. صبيّة المصعد لا تزال تطلق نداءاتها تستنجد. يركض أيوب إلى السلم نحو الطابق الذي توقف عنده المصعد. أمسحُ بكفّي موضع الألم في وجهي أبرّده. صفيرٌ في أذني اليسرى يمزقُ صمت المكان. أحبو نحو الزاوية ألوذ بها مثل فأر مذعور. أرتجف. أتخيل صوراً أخيرة لضاوي. تلتهمه النيران. يصرخ ألماً. يصرخ ذعراً. يصرخ تضرعاً لله أن يأتي بمطر أو يهون ظلمة قبر. الصبيّة تضرب باب المصعد. ضاوي، داخل رأسي،

يضرب باب الشقة المقفل من الخارج والنيران تشتعل في دشداشته. يترك آثار كفيه سوداء على الباب. يصيح.. مطر مطر.. تضحك النيران. تصرخ صبيّة المصعد. تصرخ فؤادة: احموا الناس من الطاعون! وأنا.. أنا الطاعون. أنا من جئت بكل هذه المصائب. فهد وصادق، لو أنكما لم تلحقا بي في الساحة الترابية. ضاوي، لو أنني لم أطلب منك المحيء. جئت بسبيي. مت بسبيي. أستعيد صوتك أنصت إليه مشوشا في الإذاعة. يا الله يا الله. أعطي وجهي بكفي. أئن. أنتحب. ينحني أيوب عليّ. لا أدري كم مر من وقت وأنا أهذي. يمسك بكفي يزجها عن وجهي. يحمل مصباحا يدويا في يد. وفي يده الأخرى يطوق صبيّة المصعد بجسدها النحيل وثوبها الأسود. بنت صغيرة. تبدو في التاسعة. العاشرة على أبعد تقدير. تنظر إليّ منكوشة الشعر. تزيج خصلات تغطي عينيها الواسعتين. "عمي.."، تقول قبل أن تنفرج شفتاها الورديتان عن سؤال:

"انتوا عيال فؤادة؟"

أنظرُ إلى أيوب بالكاد ألمح ابتسامته. راحت الصبيّة تروي حكايتها. منذ اقتحم بيتها أفرادا ملثمون، يرتدون الأسود، قبل ثلاثة أيام. يجروُن والدها على الأرض بعدما أوسعوه ضربا، أمام بناته، بسبب نشاطه ضمن جماعة مخالفة للقوانين العرفية. جرت الحادثة بعد يوم واحد منذ أُطلق سراحه من معتقل التحرير. هي ابنة كبرى بين ثلاثٍ ماتت أمهم في تفجير مجمّع الآقنيوز قبل ثلاث سنوات. "أمي راحت عند الله.. لكن أبوي.. تقول إن أخواتها في رعاية الجيران،

في الوقت الذي أمضت فيه أيامها الثلاثة، على ضفة نهر البين تنادي والدها، لأن الناس يقولون إن كل أولئك الذين اختفوا، منذ اشتعال الحرب، يستقرون في قاع النهر. "لكن أبوي ما يرد علي!" حملها رجل شرطة إلى مقرنا من أجل أن نذيع خبر اختفاء والدها، لعل أحدهم يعرف له مكانا غير قاع نهر البين. امتقع وجهي أنظر إلى أيوب. هز رأسه يؤكد ما كان يحذر منه دائما. مقرنا لم يعد سرياً. قالت الصبية إن الشرطي حذرنا من ترك البناية والخروج ليلاً. تُنهي حكايتها بسؤال مجدداً:

"عمي.. إنتو عيال فؤادة؟"

"إحنا عيال كلب"، أقول في سرّي. بأي وجه أجيبها، وأنا لا أملك عدا وجه لا يحمل إلا الضعف. لا يشبه وجوها رسمتها الصبية لمن تسأل عنهم. أتجاوز سؤالها بسؤال عن اسمها. تجيب:

"حصّة.."

كيف لدهن العود أن يرافق الاسم على هذا النحو، ينتشر في الجو رغم رائحة الحرق وعفونة الهواء. أحتق بصوتي:

"إي حبيبي.. إحنا عيال فؤادة.."

"إنت أي واحد فيهم؟"

يجيبها أيوب باسمها:

- "هذا الكاتب"

تقترب مني. تلتفت إلى أيوب تأخذ منه المصباح اليدوي. توجه  
النور إلى راحة كفها. تُريني رسمة فأر مشطوب بعلامة X:

"آنا أحبكم وايد.."

قَبَلْتُ كَفَهَا الصغرة:

"واحنا نحبك.. حِصَّة.."

\* \* \*

## الفصل الخامس

"اترك باب الغرفة مفتوحاً"

قالها عمي صالح أثناء ارتقائي السُّلم، بصحبة فهد، إلى غرفة فوزية. كنت مرتبكا في بيت آل بن يعقوب على غير عادة. شعرتني غريبا، وكأني في بيت غير الذي كان مصنعا لأجمل ذكرياتي. حتى تمثال أُمي حصّة، بعباءته القديمة، في زاوية غرفة الجلوس لم يدفعي لتجاوز شعوري ذاك. لم يحرّك في إلا غصّة ظننتني ابتلعتها خلال السنوات الخمس منذ رحيل جارتنا العجوز. ما كدتُ أعبّر باب الغرفة، أطأ سجّادها الوردية، أنظر إلى فوزية متأهبة في كرسيها. حتى شرع فهد ينقل نظره بيننا، يومئ يديه كأنه يعزف على آلة العود. يرمش ساخرا. يُغني أغنية اختار لها ألوان قوس قزح: "شفتك شفتك، قلبي رجف، صبري ضعف عينا فوزية تجاه السقف، شحيتان بصراً سخيتان دمعا. ابتسمتُ تلوم ابن شقيقها على انتقاء هذه الأغنية تحديدا: "ما لقيت إلا شفتك؟! " أحاب فهد بأن الأغنية ليست لها. خَزَرني: "الحكي لك يا جارة!" ردّدت فوزية كلمات أغنية أخرى لعبدالكريم من دون أن تغنيها: "حتى النظر ما

يفيد، وان جاك عذره.. قالت ليس فهد وحده من يحفظ أغنيات عبدالكريم. صَفَّق لها ابن أخيها بيتسُمُ وسع شفتيه. مدَّت كَفَّها في اتجاهٍ غير الذي كنت أقف فيه. سارعتُ إليها بكفِّي مصافحاً: "شلونك فوزية؟" أجابت: "هلا بأخوي.. هلا بنظر عيني في حين واصل فهدُ غناؤه يجرُّكُ يديه يعزف على لا شيء: "شفتك يا لهفة خاطري.. لوني تغيَّر وانخطف لِحْتُنِي في مرآةٍ لا أهمية لها في غرفة فوزية، في حين كانت كَفَّها في كفي. جاء وصفُ أغنية فهد يشبهني تماماً. كنت أنصتُ في داخلي إلى صوت عبدالكريم في أغنية غير أغنييَّ فهد وفوزية: "كانت معي، طول العمر، عين وهَدَب.. كانت معي، من الصغر، حبّ انكتب"، لأكتشف أن عبدالكريم يغنينا كلنا، ليس كما اعتاد فهد أن يقول: "عبدالكريم يغني لي بروحي لم يعد صوته كبيراً. صار في مثل سني، أو ربما أنا الذي صرت مثله كبيراً مع نمو شاربسي.

لفتني وجود كراسٍ أربعة عوضاً عن اثنين ألفتُ وجودهما في المكان. لم يمضِ وقت طويل قبل أن تنضم إلينا حوراء، بحجّة زيارة فوزية، تحتل الكرسي الرابع. سافر أبوها برفقة جدّتها، إلى الأردن، أرضٍ مختلة بين أرضين ممنوعة واحدهما عن الأخرى، تصلُ الأقارب، من الكويتيين والعراقيين، ببعضهم. تعود أمي زينب، في كل مرّة، بجنين أقلّ نجاة أهلها، وآخر مضاعف لمكان لم تطأه منذ ما يزيد على خمسة أعوام. لم أبْدِ دهشة إزاء سفر أمي زينب للقاء أهلها في الأردن، خلافاً لما قاله صادق عن سفر جدّته إلى أهلها في الأحساء. احتلّت حوراء المقعد مقابل فهد. "ينقصنا صادق"، قلتُ،

رغم يقيني بأن لا وساطة من شأنها تسهيل أمر زيارته، ولا هو مهمٌّ بدخول بيت آل بن يعقوب الذي لم يعد يتسع إلا لبعضنا وبالخيلة. كنت قد مررتُ على مكتبة البدور قبل مجيئي، أحمل رواية نصحي بها أبو فواز، "ثقوب في الثوب الأسود" لـ عبدالقدوس. لم يتردد فهد، إزاء رؤية الرواية بين يديّ، يقول: "ثقوب في عباءة تمثال أمي حصّة!" عقدت فوزية حاجبيها متنهّدة: "الله يرحمها" سألتُ لإمّ نشتاق في غياب أمّها؟ أجمعنا على فقد أشياء كثيرة. "مثل شنو؟" أصرّت أن نُحدّد. أجابت حوراء بأنها لا تفتقدها كثيرًا، لأنها، منذ كانت طفلة، تشعر بأن أمي حصّة هي نفسها بيبي زينب. تلعثت قبل أن تعيد آخر جملتها متخلية عن لقب بيبي مستعيضة عنه بـ أمي. ختمتُ بأن أمي حصّة لم تمت. ابتسم فهد وهو يُبرزُ أصابع كفيه مثل مخالب. قال إنه يشتهي أجارها الشهوي مع مطبّق السمك. استلّت فوزية نفسًا عميقًا. قالت إنها تشتاق إلى رائحة دهن العود في مِلْفَع أمّها. نظر الثلاثة إليّ يتحرّون إجابتي. كنتُ أشتاق إلى سوافها وقصصها حول جنّيات السّدرة والحيوانات والأشجار الناطقة وبنات كيفان ونجم سهيل والفئران الأربعة. قاطعني فهد: "الفئران الأربعة؟!" سألني إن كانت جدّته قد حكّت لي بالفعل تلك الحكاية. لستُ أدري لماذا هزرتُ رأسي إيجابًا. أمُنحني امتيازًا لم يسعف الوقت أمي حصّة لتمنحه لأحد. تَحَمَّس فهد يرجو أن أحكي له ما لم تحكه الجدّة. أجبته: "بعدين!" تدخلت فوزية تسألني أن أحكي لهم شيئًا مما أذكره من سواف أمها. سألتها: "وإحسان عبدالقدوس؟". أجابت: "بعدين" لم أثير فضولهم حينما بدأتُ أعدّد



أسماء القصص التي نحفظها. بدا عليهم الفضول حينما نظرتُ إلى وجه فوزية أحرهم بأنني أحفظُ الجزء الثاني من قصة سهيل. قصة أجمل جُرمِ سماوي في درب التبانة. بدا الامتعاض على وجه فهد ينقل نظره بين وجهي ووجه عمته في ريبة. سألتني فوزية: "إنت متأكد إن أمي تعرف درب التبانة أصلاً؟!" أجبتها بسرعة: "هي قالت إن الأبله علمتهم في نحو الأمية!" استندتُ إلى ظهر الكرسي. مهدتُ لقصتي: "زور، ابن الزرور، اللي عمره ما كذب ولا حلف زور.. هَلَّل وجه فوزية.

"حين اختفى سهيل في جنوب السماء حاملاً ذنبه الكبير، وراح شهاب يبحث عنه حاملاً سراجَه أمامه، سمع القمر بحكايتهما. صار بدراً، ينير لشهاب دروب السماء المظلمة. تتسع رؤية شهاب أكثر مما يتيح له سراجٌ يحمله. مضت أيام يُشاهدُ فيها شهابٌ بصورةٍ خطِّ نارٍٍ خاطف في السماء ينادي صاحبه. كان كلما ظهر سهيل، مضى شهاب نحوه مسرعاً، يقطع مسافة الشهور من دون راحة، ولكنه في كل مرّة يصل فيها، بعد مسيرة الشهور الطويلة، يكون صاحبه قد اختفى على أمل البزوغ في نفس الموعد من السنة المقبلة. زار شهاب القمر، وقد كان بدراً مكتملاً، منيراً جميلاً، أجملُ أجرام مجرّة درب التبانة قاطبة..

أجبرتني دموعُ لمعت في عيني فوزية، إزاء وصفي للقمر، على السكوت قليلاً. تأفف فهد قبل أن أوصل:

"شكى شهاب للبدر عجزه عن إدراك سهيل، طالبا منه، وهو الجرم الكبير الذي حتما يرى كل شيء، أن يدلّه على صاحبه، بدلا من الاكتفاء بإنارة دروب السماء. بكى البدرُ. سألت منه دمة ضخمة سقطت من السماء على الأرض التي أحالتها الفئران خرابا. ظهر الزرعُ فيها مرة أخرى. رُزُّ وحنطة وذرة وشعير. طلب البدرُ من شهاب أن يعود ليفلح أرضه عوضا عن إهدار وقته. لم يفهم شهاب. "ولكنك ترى كل شيء!"، قال للبدر يرجوه أن يدلّه على مكان صاحبه. أجابه البدرُ بأنه لا يرى شيئا رغم النور الذي يرسله إلى كل مكان، لأنه في الحقيقة لا يملك بَصَرا. بهت شهاب غير مصدق بأن الجرم السماوي الجميل، رغم كل النور الذي يعكسه لمن حوله، لا يستطيع الرؤية. ولأنه أعمى، صار يجد ذاته في إنارة الطريق للآخرين. حمل شهاب سراجَه مودعا البدر، ولا أحد يعرف الطريق الذي سلكه؛ هل بحث عن صاحبه أم عاد لأرضه المهجورة"

مررت فوزية إصبعها أسفل عينيها ما إن أهيمتُ الحكاية. ابتسمت وهي تقول إنني أجيد تأليف القصص. "مو تألِفي!"، أحببتها قاطعا. اكتفت بابتسامتها في حين تدخل فهد: "أمي حصّة ما تقول قصص بايخة مثل هذي!" انفلتت عبارتي رغما عني: "قصص بايخة؟! أُلّف وحدة مثلها لو كنت تقدر!" انفجرت حوراء ضاحكة. ألبستُ فوزية وجهها جدية وهي تُحثني أن أكتب قصصا للأطفال. لربما يأتي يوم أصير فيه كاتبا مشهورا: "آنا واثقة إنت تقدر لم أقرأ لعبدالقدّوس يومنا ذاك. قالت لي فوزية قبل عودتي إلى البيت: "نظر

عيني انت.. وأحلا أخو في الدنيا.. اكتب على شاني عند باب  
الحوش، أمسك فهد بذراعي، قبل أن أعود إلى البيت. سألني:

"انت تحب عمّي مثل احنك.. صح؟"

هزرتُ رأسي أواقفه. شدّني يضغط ذراعي:

"إحلف والله!"

لم أتمكن من النظر إلى عينيه، وصوت أمي حصّة في رأسي:  
"تطيح علينا السما!" حرّرتُ ذراعي من قبضته. أجبته:

"لا تدخل الله.. الله يخليك.."

\* \* \*

## يحدث الآن 8:00 PM

أجلس على أرض ما تبقى من مقرّ أولاد فؤادة. أُسندُ ظهري إلى الجدار، بين السواد الذي يلوّن كلَّ شيء. سواد غياب النور، وسواد السُخام على الأرض والجدران والسقف وأجهزة الإرسال والكمبيوتر والطابعات. حصّة، بثوبها الأسود، في الزاوية تضمُّ ركبتيها إلى صدرها. تعبت بماتف أيوب تبحث عن لعبة تقتل وقتها حين رفع حظر التجول مع طلوع النور. يُقَطِّع أيوب أشرطة صفراء لُفّها رجال الأدلة الجنائية حول بعض الأماكن في الشقة. يتحسّس شيئاً بطرف قدمه. "غريب!"، يقول وهو يوجّه نور المصباح إلى فأر متفحّم. يختفي داخل الغرف، يحمل مصباحه اليدوي، يبحث عن شيء خلفته النار سليماً. تتقدّم حصّة تجلس إلى جانبي. تلتصق بي. تقول: أنا أكره الظلام، الظلام أخذ أبي. تحتضن ذراعي: "كنت راح أموت داخل الأسنسير في الظلمة" لا تأبه بصمتي. تنظر إلى وجهي تقول:

"أنا أحب أمي حصّة"

لا تمهلني أسأل عمّا يبذد حيرتي. من أين لها أن تجيء بالاسم؟ تعبت بحقيبتها تُخرجُ ثلاثة كتب صغيرة تناولني إياها. لا أوارى ابتساماً وأنا أمسكُ بكتّبي الثلاثة. أول كتاباتي في سلسلة قصص

الأطفال؛ سلسلة ابن الزرور. كيف لهذه الصبيّة أن تُنسيني كلّ ما يجري. تقول إنها أحبّت أُمي حصّة راوية الحكايات. تُناولني قلما تطلب مني أوقّع على إحدى القصص. أخيرها: قصة سهيل، قصة جنّيات السُدرة، أم قصة النخلات الثلاث؟ تختار الثالثة:

"أحب بنات كيفان"

أجيبني هامسا: "وأنا أحبها.. وأحب صويحبتها"

تقول:

"عندي إختين"

تبتسم:

"أنا إخلاصة، وخواتي برحيّة وسعمرانة"

تتبع قولها بضحكة. تتعهد، إذا ما كبرن والحال كما هي، بأن تؤسس جماعة مثل جماعتنا، تسميها بنات كيفان. من قال إن لا جدوى من وراء الكتابة؟! أفتحُ الغلاف على صورة أبداع صادق في رسمها بالألوان المائية. صورة ثابتة لأُمي حصّة، في الصفحة الأولى من قصص السلسلة، تفرّص بعباءتها السوداء بين ثلاثة أولاد يرتدون الدشاديش، وفتاة ذات شعر أسود طويل، بستان وردي منفوش. تمهّدُ العجوز لقصّتها: "زور، ابن الزرور، إللي عمره ما كذب.. أكتبُ في الفراغ الأبيض أعلى الصورة: "إلى حصّة الصغيرة، إخلاصة.. إليك أجمل قصة حكّتها.. أُمي حصّة". تعيد الكتب إلى

حقيبتها. تطبع قبلة على وجنتي. یرن هاتف أیوب بین یدیها. ترفع صوتها تنادیه:

"عمی! تلیفونک یرن"

یرفعُ صوتہ یسألها عن اسم المتصل أو رقمه الظاهر على الشاشة. تقرأ له الرقم. یدفعني رقم هاتف بیت آل بن یعقوب لألتقط الهاتف من بین یدیها: "ألو!" لا تزال حوراء عند فوزية في السُرّة. تسألني عن بطنها وعن ظهرها؛ صادق وفهد. لیس عندي جواب آخر خیر إن شاء الله. تقول إن صالحاً لا يزال في مستشفى مبارك. مؤكداً أن حالته حرجة: "خايفة عمی صالح يموت بعین مغمضة.. وعین مفتوحة" أتذكر وجهه ظهر اليوم عند باب بيته. أتذكر ذلك. أتذكر قوله: "هذا ثمركم يا زرع السبخة" من میناً زرعُ من يا أبا فهد؟ أتجاوز قولها أسأل عن فوزية. تقول إنها صامتة منذ عصر اليوم. أتذكرها آخر مرة رأيتها، قبل ثمانية عشر عاماً، في القاعة الماسية لفندق شيراتون. كيف تبدو الآن؟ تنهي حوراء المكالمة بأنها وولديها وفوزية بخير. توصينا بعدم الخروج لحین رفع حظر التجول. ألمحُ حصّة في الظلام تعبت في حقيبتها. تمسكُ بشيء تقرّبهُ إلى فمها. تمدهُ إليّ. أهرُ رأسی أخبرها بأني لستُ جائعاً. تضحك. تعيد ما بيدها إلى الحقيبة. تتقدّم نحوی تستعيد هاتف أیوب. تضيء شاشته تمضي صوب أشرطة الأدلة الجنائية، تقتطع جزءاً صغيراً، تلفُ به شعرها. تعقبه وراء رأسها. تجلس إلى جانبي. توجه ضوء الشاشة إلى وجهي: "عمی.. یصیر أسأل؟" أومئ لها مشجعاً. تسألني عن

عمرى. أحييها. اثنان وأربعون. "وانتي؟" تجيب: "إحدعش  
تتململ في جلستها. تبدو متورطة بسؤال. "تبين تقولين شي..  
حصّة؟" اسمها يوجعني. تومئ برأسها. تقول بأنها تريد أن تفضي لي  
سراً إن أنا أجبتُ عن سؤالها أولاً:

"ما تشم الريحة؟"

"أي ريحة؟!"

تبرطم:

"خلاص.. ولا شي.."

أيوب يراقبنا عند باب إحدى الغرف. أرجوها تُفضي. تفضي.  
هي تحجل أن تبدي تقزّزا إزاء الهواء الفاسد، لأن أحدا لا يتبسه إلى  
الأمر عداها هي ووالدها وشرطي أوصلها إلى مقرّنا قبل ساعات.  
أطمئنتها بأنني وأيوب نشمُّ ما تشمُّ. يتهلل وجهها. تسألني عن سبب  
الرائحة. ولأنني أكبر من والدها، على حدّ رأيها، فلا بد أن لدي سبباً  
مقنعاً أكثر مما يقوله. أسألها عن رأيه. تتردّد قبل أن تجيب. هو يقول  
إن الرائحة لن تزول إلا بجفاف نهر البين ورحيل تبّاعة الجيف. وكلا  
الأمرين لن ينتهي إلا إذا..

تصمت حصّة. يقترب أيوب يحضّها تستطرد. تهز رأسها  
ترفض. يسألها عن اسم أبيها. تهزُّ رأسها ترفض. يسألها عن نشاطه.  
تهزُّ رأسها ترفض. ينفد صبري أسألها:

- "لازم نعرف أبوك على شان نساعدك حصّة!"

أجتاوز وجع الاسم أتحريّ منها جوابا. تكتفي تحدّد أوصافه. عمره خمسة وثلاثون. طويل نحيل. نظارة طبية بإطار سميك. اختطفه المثلّمون قبل ثلاثة أيام! تبادل، أنا وأيوب، الصمت في حين تسألني الصبية: "عمي! متأكد إنك تشم الريحه؟" أصفُ لها أطوار الرائحة. حامضة طورا تحرق العين. تهزُّ رأسها توافقني. زنخة طورا آخر مثل بيض فاسد. ترفع حاجبيها باهتمام. تدس يديها داخل حقيبتها. تناولني زجاجة عطر: خذ  
يرنُّ هاتف أيوب ينبّه إلى رسالة. تتسع حدقتاه يقرأ. يمدُّ هاتفه يقرب الشاشة أمام وجهي. كتبت حوراء: أحدهم يضرب باب البيت بعنف!

\* \* \*





## الفصل السادس

مضت سنتان أوْلُفُ فيهما قصصا، أُحورُ أخرى. أعتكف في غرفتي أكتبها على أوراق تمهيدا لزيارة غرفة فوزية. صيرتُ إحسانها. أطعمُ قصصي بحكايات حب، وقصص أمي حصّة، وأغانٍ وطنيّة أحببتها فوزية. أزعجتُ فهدًا بفائض حب في ما أكتب، رغم حبّ يجمعه بحورائه التي تخلّفت عن اجتماعاتنا في غرفة فوزية. وقد فعل فهد بالمثل، تاليا، بطبيعة الحال. كانت علاقتهما واضحة، بين مدّ وجزر، يشهد عليها خطُّ الهاتف الجديد في غرفه فهد، وجهاز الرّد الآلي يجيب كل يوم بأغنية، سوداء غالبا، أحمّن بسماعها المرحلة التي أدركاها حبًا. "لا خطاويننا وراها لقا.. وإن تلاقينا، نتلاقى بشقا" أحرزنتني الأغنية حين سماعها في الهاتف. أفصحتُ فوزية: "فهد كَلِّم أمّه بخصوص حوراء" عائشة لم تخبر زوجها. اكتفت تحذر ابنها: "أبوها عبّاس وأبوك صالح.. إنت مجنون؟! حوراء صارحت فضيلة. لم يختلف رُدّها عن ردّ عائشة. كنت أشعر بمرارتها، تشبه مرارتي تجاه من؟ مرارة كبيرة وشعور بالفقد، حين صار لزاما علينا ترك السُرّة في سبتمبر 1997. لم نسافر، صيفنا ذاك، بسبب انتقالنا من

السُّرَّة إلى الروضة. كنت في سيارتي، ليلاً، أحاذي رصيف بيتنا، حين جاء فهد وصادق يودعاني. انتقل والداي إلى البيت الجديد قبل أسبوع، في حين بقيتُ أمدد فترة إقامتي قبل أن تلفظني السُّرَّة. مفسحاً بيّتي لأصحابه الجدد، غير مُصدِّق بأن غريباً سوف يسكن غرفتي يصبح جاراً الجيراني القدامى. "عمتي تنطرك في الحوش تبي تسلم عليك"، قال فهد. أجبته: "سلم عليها" حدِّق في وجهي يقول: "تنطرك!" اكتفيت أكرر: "سلم عليها" أدتُ محرِّك السيارة أشير بسبَّابتي بعيداً: "أنا رايح الروضة.. مو مسافر!" ولكنني كنت أعني بأنني كنت على سفر لا رجعة بعده. مضيتُ أقود سيارتي. أدركتُ نهاية الشارع، عند بيتٍ كان للزُّلمات قبل سنوات سبع، بالقرب من محلِّ علامين البنجابي. قفزتُ أمامي صورة الحزن في وجه أبي نائل في يومه الأخير. لم تفلح مقارنة بُعد الوجهتين عن السُّرَّة في تخفيف مرارتي لقاء تركي شارعنا القديم؛ الروضة القريبة من هنا، وعمَّان الأبعد من هناك! لا شأن للمسافة في أمري. شعور غير مبرَّر دفعني لأن أستدير بسيارتي. لم أكرث بيتنا ولا بيت عمي عبَّاس. توقفتُ أمام بيت أوسط جمع الإثنين في حوشه. مرَّرتُ نظري على بنات كيفان؛ إخلاصة وبرحيَّة وسعمرانة. الباب الحديدي الأسود. السُّدرة وراء السور. فتحتُ النافذة عن يساري. صرير سُوير الليل، بين الحشائش أمام بيّتي صادق وفهد، كان يعزفُ أغنية رحيلي. أكثر سيارات شارعهم مُغيرة تلفُّها الأغطية القماشية. أصحابها في سفر. أكره السفر. "إنت رجعت؟!"، فاجأني صادق يصيح بي عند باب بيته. اختلقتُ سبباً لعودتي: "رجعت أقول لك

سَلَّم على أُمي زينب.. وايد تفرَّس وجهي يهوّن: "إنت مو مسافر!" مضيت أفود سيارتي أنظر، رغم الضباب في عيني، إلى محل الجزيرة في بيت العويدل، ودكاكين جمَّع الأنبعي. كانت على هيأتها تدبُّ حياة، إلا مكتبة البدور تحمل واجهتها ورقة تحمل رقم هاتف واسم أبي فواز تعلقه عبارة: "للبيع" أتذكرني عند منعطف شارع أبي حيّان التوحيد في الروضة، مرورا بمطعم شهريار الذي لا تُشبه شاورماه شاورما جابر في جمَّع الأنبعي، والذي لا يبيع سندويشات المعكرونة بالكاتشاب. غصت سيارتي بدخان سيجارتي. كانت نوافذ السيارة مغلقة لئلا ينفلت صوت عبدالكريم خارجها يكشف سرّي: "وداعية يا آخر ليلة تجمعنا" رششت عطراً بما يشبه استحماماً قبل دخولي البيت. والذي تعرف ماذا يعني تركي لشارعنا القديم. كانت قرية مني جدا ليلتي تلك. فتحب ذراعها على وسعها تعانقني طويلا فور دخولي الأول، في حين أرخيت ذراعي لا أبادها عناقا. تشممتني. همست في أذني: "عطرك حلوا!" استطردت: "لكن أنفاسك كريهة" اعتصرتني بين ذراعها تؤنّبني على التدخين. لم أنطق بكلمة. تململت بين ذراعها. هي تعرف تماما مقدار وحشتي في البيت الجديد. "إذا ما تراتاح في الديوانية الجديدة، روح السرة، شوف ربعك، وقت ما تبني حررت جسدي من ذراعها: "يمه" تفرّست ملامحي تترقب قولاً أمهدّ له. كنت أهدق في عينيها:

"قولي والله العظيم، إللي رفع السما، إني ما أدخل السرة بعد اليوم!"

أسندتُ كفها على كتفي تسأل قلقة:

"ليش؟"

لم أستطع إطالة النظر إلى وجهها. ألححتُ عليها أن تفعل.  
تملّصتُ. خَزَرْتِنِي: "شفيك؟" كنتُ أجيها بطلبي كلما كررت  
أسئلتها: "حِلفي يُمّه"

"وليش الحِلفان؟ إحلف انت! براحتك لو ما تَبِي  
تروح!"

ارتفع صوتي في وجهها:

"آنا ما أقدر.. ما أقدر يُمّه.."

أحاطتني بذراعيها مرّة أخرى. كنتُ أعرف أنني لا أجيّد ما  
اعتادت هي عليه في جعل الله حدًا بينها وبين قولها. لا أستطيع مدّ  
سبّابتي إلى السماء أقمحها في شأني، إيمانًا بسقوطها على رأسي إن أنا  
أحنتُ بقسمي، لأن القسم شيء كبير، ولأنني لست مثل "ابن  
الزرزور اللي عُمره ما كذب ولا حلف زور التمتع عينا والدي:  
"حبيبي إنت تبالغ!" وضعتُ وجهي بين كفيها: "في أحد  
مزعلك؟" زممتُ شفتي لئلا تفلت عراقي.

"حبيبي شفيك؟ ترتاح إذا آنا حلفت؟"

أومأتُ لها مؤكدا مثل طفل. ألصقتُ وجهي بين رقبتها وكتفها  
تُمسّد مؤخرة رأسي:

"يلعن أبو السرّة.. والله، إلهي رفع السما، ما تدخلها وأنا  
موجودة!"

رفعتُ ذراعيّ أطوقها بشدّة. سألتني:

"لكن ليش؟"

\* \* \*

## يحدث الآن 8:43 PM

يتصل كلانا، أيوب وأنا، بحوراء. لا رد. هاتف بيت آل بن يعقوب. لا رد.

تشبَّت حِصَّة بدِشداشَتِي:

"أروح معاكم!"

يرجوننا أيوب التزام البقاء في المقر، في حين يذهب هو إلى ابنة عمه في السُّرَّة. أمهض من الأرض أزيل السُّحام عن دِشداشَتِي:

"أروح معاك!"

ينبهي:

"السُّرَّة!"

أهزُّ رأسي أوكد:

"أروح معاك"

هو يحسب قطيعتي مع السُّرَّة لا تزال. تجاوز استغرابه ينظر إلى الصبيَّة. تنظر إليه. ينظر إليَّ يسأل:

- "وحظر التحوّل؟"

وكان الحظر يطالنا أنا والصبية وحدنا.

أجيبه:

"الحافظ الله.."

نركض نقطع السلام نزولا أحمل حصّة بين يدي. يسبقنا أيوب يحمل مصباحه اليدوي. الجثة، بين الطابقين الثالث والثاني، ممسوخة الملامح في الظلام، يجثم تباع الجيف بمخالبه على صدرها، يدسُّ منقاره الأسود المعقوف يمزق لحمها. صرختُ حصّة: "تبّاع الجيف!" حجتُ عينيها بكفي لئلا تنتبه إلى الجثة أسفل الطائر. باب البناية يكشف عن نور مضطرب في الخارج. يطفئ أيوب مصباحه. يطلُّ من وراء باب البناية على الشارع. يرفع رأسه يتحقّق من عدم وجود قناصة على أسطح البنايات. ينظر شمالا يتجاوز الباب يُغمغم:

"عيال الكلب!"

أتبعه، أمسكُ بيد حصّة، أستوضح سبب الشتيمة. أجده يقفُ على مبعدة من سيارته والنيران تشتعل فيها. ألتفتُ يمينا نحو الرصيف المحاذي للإشارة الضوئية.

"سيارتي هناك.."

أركض، بقدر ما يسمح به عَرَجي، صوب السيارة. يتبعني أيوب. يتنبّه إلى كومة الخردة على العجلات. "سيارتك سكراب! تمشي؟" أومئ برأسي. يشير إلى الواجهة الأمامية يستغرب خلوها



من الزجاج. يسألني: "حادث؟" أجيبه: "بعدين أقول لك" يكاد يقول شيئاً. أطمئنه بالأقل يقلق. أقود سيارتي بلا أنوار. يعبثُ أيوب بأزرار المذياع: وذلك إثر انفجار خمسٍ وثلاثين سيارة مفخخة خلال أربع دقائق.. يعلن مجلس الوزراء أن كيفان منطقة منكوبة، ويناشد المواطنين في كافة المناطق البقاء في منازلهم.. إذاعة الكويت، على غير عادة، لا تواري حقيقة. يصرخ أيوب: "غير صحيح!" المنصورية تشتعل. "إشاعات!" احتجاز رهائن داخل حسينية في بنيد القار. "كذب!" وزارة الداخلية تهيب بالقناصة عدم التعرض للطبور السوداء؛ وحدها كفيلاً بانتشال الجثث. "كلام فاضي!" جرحى في اشتباك الروضة فجر اليوم. أخرس المذياع. يُطمئن أيوب: "صدقي إشاعات" لا أرد. بيوتٌ عن يميني تحترق. جبلٌ، من إطارات السيارات، يشتعل عند مخرج الدائري الرابع. يتأفف أيوب يُحثني على الاستدارة:

"بسرعة!"

أستدير بسيارتي نحو مخرج آخر. تمدُّ حصَّة سبَّابتها الصغيرة  
هَمْس:

"عمي.. شوف فوق!"

أنظر إلى البدر يقارب اكتماله يتيح لنا تمييز الأشياء في الظلمة. "شَيِّ يَخَوْف!"، يقول أيوب. أنتبه إلى سبَّابة حصَّة، لا شأن لها بالبدر. تلقي النيران ضوءاً مضطرباً على عشراتٍ من تباعة الجيف

تحطُّ فوق أعمدة الإنارة المعطلة. عند الشارع الدوّار أسأل أيوباً:  
"وين؟" يصيح بي أن أتجّه إلى مخرج الدائري الخامس. أتبعُ  
توجيهاته أقود سيارتي بذاكرة صيفر. يهاتفُ ابنة عمّه. لا رد. جبل  
ناري آخر يسدُّ مخرج الدائري يخلفُ دخاناً كثيفاً أسود. مثله يقطع  
الطريق المؤدي إلى شارع تونس. آخر تُشاهد نيرانه من بعيد، يشي  
باستحالة العبور إلى طريق الفحيحيل مقابل مستشفى هادي. الجابرية  
محاطة بالجبال النارية من كل صوب. "وين؟"، أسأل أيوب. يلتفتُ  
إليّ:

"الجسر!"

أذكره بجواجز المثلثون. يرميني بسؤاله:

"عندك خيار غيره؟"

ألود بصمّي. يخمن سبب تردّدي. يصرخ بي:

"لا تقول لي إنك ما تبّي تدخل السرّة!"

أواصل القيادة نحو الجسر

"دخلتها اليوم الظهر.."

أدريه يستغربُ قولي وأنا الذي ما أقتربتُ من السرّة منذ ثلاثة

وعشرين عاماً:

- "دخلت السرّة؟!"

يكرّر قولي يدفعني أوكد:

"رحت بيت فهد أسأل عنه.."

يعقد حاجبيه كأنني أذكره بما نسيه. يمسك هاتفه يجري اتصالاً  
ينظر إليّ قبل أن يبعد الهاتف عن أذنه. تبهت ملامحه. يقول:

"عبدالكريم عبدالقادر!"

يجري اتصالاً آخر. يطلق زفرة طويلة:

"الجهاز مغلق!"

ينظر إلى ساعة معصمه.

"الساعة تسع وعشر! وينهم؟!"

\* \* \*

## الفصل السابع

أثتتُ عالمي الخاص، أول انتقالي إلى الروضة، مفسحا مجالا أكبر لعزلة أقلقت والديَّ. حتى وقت ذهابي إلى المسجد، كنت أشعربي وحيدا لا أعرفُ المصلين. صوت الإمام غير مألوف، حتى كلامه لم يعد مفهوما. رائحة السجاد لا تشبهها في مسجدنا القديم. ما من عمود بين أعمدة المسجد يتعرَّفني إذا ما أسندتُ ظهري إليه. استغرب والدي ملاحظاتي أثناء عودتنا إلى البيت مشيا. سألتني: "جاي تصلِّي والا تشمَّ السجاد وتعد العواميد؟! " لم ينتظر أجابتي. استطرده يقول إن الله الذي صلينا له في مسجد مريم الغانم هو الله في مسجد الروضة، هو الله في كل مكان: "لكنك تبالغ"

ألقتُ المنطقة بعدما صار أبو حيان التوحيدي أكثر من مجرد اسم لشارع أسكن فيه. تعرَّفتُ إليه أكثر فور انتقالي. أعوض فقد علي بن أبي طالب الشارع القديم. أسستُ لعلاقة جديدة. أمضيتُ أياما في مكتبة الفيحاء العامة أبحث عن التوحيدي بين الكتب. ألثهم صفحاها. أنا لم أقرأ شيئا كهذا في حياتي. أففُ عند اطمئنانه وعلاقته برَّبّه وثقتَه بعفوه ومغفرته حتى في ساعات موته، وأنا الذي، في تلك السن، بسبب

والدتي وأمي حصّة، صار الخوف وحده يؤطر علاقتي بالله. كتبتُ قصة، ذات مساء، فور عودتي إلى غرفتي، متأثراً بما قرأته في المكتبة عن التوحيدى حين أجاب صحبه، لقاء وعظهم وتذكيرهم بمقام الخوف عند لقاء ربّه، أو ان احتضاره: "كأني أُقَدِّمُ على جنديّ أو شرطيّ! إنّما أُقَدِّمُ على ربّ غفور ما كدتُ أُنهي قصتيّ على الورق حتى انتابتني رعشة تلاها استغفار أفضى إلى تمزيق أوراقى قبل حرقها على رصيف بيتنا الذي لا حوش له ولا قوّة تجذبني إليه. كنت أتبع بنظري دخان أوراقى يتصاعد إلى السماء. أرفع رأسي. أنظر إليها. أحسبُ دخان قصتيّ كفارةً عن ذنب كتابتها، لعل الله يغفر، ولعل السماء تبقى مكانها. أدريها لن تقع على نحو وصفته جارتنا العجوز قبل سنوات. ولكنني كنت مؤمناً أن شيئاً ما سوف يحدث. أطمئن إلى صوت أُمى حصّة داخل رأسي: "عَفِيهِ على وليدي" لم أشعر بندم إزاء حرق أوراقى، وقد كان التوحيدى ذاته قد أحرق كتبه قبل موته، كنت أبرر لِنفسي كلما كتبتُ قصة وأحرقتها. كنت أكتب، زمن السُرّة، لأنّ هناك من يتلقى كتابتيّ، يحررني منها، يفهم ما أقول له، أشهد تأثيرها على وجهه، يرافقتي رقيقاً أثناء كتابتيّ إليه، ينتقي معي كلمات يفهمها. الكتابة التي اتخذتها في الروضة ملجأ صارت مقلقة. أثبتُ فيها كلّ أسئلتى متجاوزاً حدود والدتي وأُمى حصّة. أعاود قراءتها. أرتعد. أحيلها رمادا. صارت علاقتي بأبى حيّان بين مدّ وجزر. أفهمه ولا أفهمه وأنا أحمل إرثاً ثقيلاً ينعني من التفكير. غريبٌ أن لا يفهمك إلا إنسانٌ رحل منذ ما يقارب الألف عام. أتمهّلُ في قراءة كلماته عن الغريب: الغريب الذي لا اسم له فيذكر، ولا رسم له فيشهر، ولا طيٌّ له فيُنشر، ولا عُذر له

فُيَعُذِرُ، ولا ذنب له فُيُغْفَرُ، ولا عيب عنده فُيُسْتَرُ.. وأغربُ الغرباء من صار غريباً في وطنه، وأبعد البُعْدَاء من كان بعيداً في محل قربه.

كان ضاوي، إذا ما شاهد سيارتي، مقابل مكتبة الفيحاء العامة القريبة لبيت خالي حسن، ينضمُّ إليّ. أشمُّ رائحة دهن العود قبل أن يهمس في أذني: "السلام عليكم يفضي لي، هامسا، قلقا نقلته إليه والدتي: "عمتي بالها مشغول عليك" يتفحص عناوين الكتب على الطاولة أمامي. سألني، ذات يوم، ماذا أقرأ. أمسك بكتاب مفتوح على صفحة سيرة موجزة لصاحب اسم الشارع حيث أسكن. تبهي بحب: لا تقرأ أي شيء. ربّت على كتفي يقول إنه يفهمني. "إنت ضايع"، قال لي. خشيتُ أن يشرع بعظات الجمعيات الدينية التي يحفظها. ولكنه نظر إليّ باسم متحاشيا استنكارا بدا على وجهي: "ولهان عَسَ السَّرَّة؟" اشتممتُ رائحة نبق طازجٍ في داخلي. أحبته: "آنا ما أقدر أروح" صحّح: "إنت ما تبّي تروح!" هزرتُ رأسي مدعنا. أطبقَ الكُتُب على الطاولة أمامي يقول:

"آنا مثلك.. من يوم اختفى أبوي كرهت المكان.."

تفرّس ملامحي كأنه يقرؤني من الداخل. أردف:

"وانت، لأنك تحبّه، ما تقدر تزوره ضيف!"

استقام واقفا. اتسعت ابتسامته يُنهي:

- "واللي يجيب لك السَّرَّة في الروضة؟!"

\*\*\*

## يحدث الآن 9:16 PM

محطة وقود الجاهرية عن يميني. السيارة في حاجة إلى. يقاطعني أيوب: "بعدين. أشير إلى عدّاد الوقود: "ما في بانزين!" تنبهي حصّة إلى وجود مُلثمين في المحطة عن يميننا. يصرخ أيوب يدفعني لأن أسرع نحو انعطافة آخر الشارع المؤدي إلى الجسر سيارة شرطة تبعثر الظلام بوميض يراوح بين الأحمر والأزرق ورائنا. أخفّف سرعتي أحاذي الرصيف الأيمن. تتجاوزنا السيارة تعترض طريقنا عند المنعطف. يترجل شرطيّ شابّ تطلّ عيناه من وراء كمام. تنحني حصّة أسفل المقعد الخلفي. كفّ الشرطي على مسدّس في حزامه وكفه الأخرى تحمل مصباحا. يتقدّم صوبنا يتفحصّ سيارتي المهترئة، وجهاز اللاسلكي يوشوش في حزامه. أترك سيارتي أسحب رجلي العرجاء. أناوله بطاقتي الشخصية. ينقل مصباحه بين وجهي أمامه ووجهي في البطاقة. ينحني أمام النافذة ينظر إلى أيوب: "هويتك يستجيب أيوب. يرجوه أن يسمح لنا بالعبور نحو الجسر من أجل.. يقاطعه الشرطي بأنه لو تساهل معنا إزاء خروجنا وقت حظر التحوّل، فلن نسلم من رصاص الجيش، وإن سلمنا منه.. يبتّر جملته يشير بيده صوب الجسر:

- "يذبحونكم!"

التفتُ إلى حيث يشير. مُلثمان، أعلى الجسر، يمسكان بجثة يلقياها في نهر البين. يُطلق آخرون أعيرة نارية في الهواء. أومئ للشرطي برأسي متفهما. أرجوه بأن يجد لنا طريقة للعبور. أشرح له فحوى رسالة وردتنا من أهلنا في السُرَّة:

"لو ما عبرنا.. يموتون!"

"لو عبرتوا.. تموتون!"

لعلَّ وجهي يشرح ما لا أتمكن من قوله. أحتنق بكلمات الرجاء. بيتعد مقرِّبا جهازه اللاسلكي إلى فمه. يسأل عن طريق سالكة. يأتيه الرُّدُّ مُشوِّشا. الجابرية مطوَّقة بالنيران. ينصحه الصوت بأن يعود إلى مركز الشرطة. يرفعُ الشرطي كفتيه بهز رأسه. يأمرنا بالعودة إلى حيث جئنا وإلا فالمت لنا بالمرصاد. يقول بصوت مخنوق إن السبلاد تشتعل. لا رجال إسعاف ولا دفاع مدني ولا متطوعون قادرون على انتشال آلاف الجثث. وحدها تَبَاعَة الجَيْف تقوم بالدور. أتذكر الجثة في سلاّم البناية. يترجل أيوب من السيارة يتوسل إلى الشرطي أن يفعل شيئا. يجيبه الشرطي قاطعا: "ما يصير" يؤكد ملوِّحا ببطاقة أيوب، بأن اسمه يكفل له عبور الحاجز الأول. ولكن قد ينتهي به الأمر طافيا في نهر البين إذا ما مر بالحاجز الثاني. يطلق أيوب زفرة طويلة يتلفَّت حوله. يتحكم بصوته خشية انتباه رجال الجسر. يكرُّ على أسنانه. يقول للشرطي بين رجاء وغضب بأن يفعل شيئا. يرفعُ الشرطي رأسه يمشط أسطح البنايات بنظره. يذكره بالقناصة لو أطلنا البقاء. يرمي أيوب هاتفه المحمول ومحفظته على مقعد السيارة. يدير لنا ظهره يهرول



نحو الجسر. أهمُّ أتبعه. يمسكُ الشرطي بذراعي. يرتفع صوتي:  
"أيوب!" يلتفت إليَّ وقد أدرك الرصيف المقابل الممتد إلى الجسر.  
يُقرَّبُ سبَّابته إلى شفتيه: "هششش—!" ينسلُّ بين شجيرات جافة.  
ينحدر بين الأحرش يخنفي. يدفعني الشرطي نحو سيارتي:

"صاحبك مجنون.."

تسند حِصَّةَ كفيها إلى زجاج النافذة تصيح:

"وين عمي أيوب!"

ينتبه الشرطي، مُكَمِّمُ الوجه، إلى وجودها في المقعد الخلفي.  
يوجِّه مصباحه صوبها. يرفع حاجبيه:

"حِصَّة؟!"

كهرُ رأسها من وراء الزجاج توافقه. يعنّفها بصوت خفيض:

"قلت لك لا تتركين البناية في الليل!"

تلامس أذناها الحمر اوان كتفيها. يرقُّ صوته يسألها:

"لقيتي أبوك؟"

يبدو الحزن على ملامحها. ينظر إليها عاقدا حاجبيه. ينحني على  
زجاج النافذة يحدِّق في كف الصبيَّة المسند إلى الزجاج. يفتح الباب.  
يمسكُ بيدها يوجِّه مصباحه إلى راحة كفيها. ينظر إليَّ جاحظًا يسألني  
من نحن؟ أنظر إلى جهة اختفاء أيوب لا أحيِرُ جوابا. يهزُّ كفَّ حِصَّة  
يربني ما تحمل في راحتها. يعاود سؤاله نافد الصبر. يتتابني خرَّس.

يشير بسبّابته نحوي:

"انتو؟!"

يناولني بطاقتينا، أنا وأيوب. يأمرني بأن أتبعه، على ألا أترك مسافة كبيرة بين سيارتينا تلافياً لرصاصات القناصة. يرتفع نقيب تبّاعة الجيّف مهيباً مثل صافرات إنذار بعيدة. أمدُّ يدي ناحية الجسر أرجوه ينتظر عودة صاحبي. تبدو الدهشة في عينيه يسأل:

"صاحبك؟!"

يدفعني بذراعه صوب الرصيف المقابل حذراً. نقف بين شجيرات الرصيف. أكمّم وجهي بكفّي. يشير بذراعه أسفل الجسر أعرف أيوبا أكثرنا اندفاعاً. أعرفه أشدُّنا إيماناً بدورنا. ولكن فكرة عبور النهر سباحة! عدا زَنخ الرائحة، ماذا لو شرب من مائه؟ أتبعه بنظري مدرّكا منتصف النهر يسبح على مهل. عشرات من تبّاعة الجيّف تحطُّ على الضفة المقابلة. يكشف عنها ضوء البدر وبراميل النار فوق الجسر تقفُّ مثل عجائز حدباوات. تمايل بعباءاتها السود الرثة. تغني نعيها يصدر من أغوارها، يضيف على المكان خوفاً فوق خوف. تتقافز مقتربة أكثر نحو التقاء الماء باليابسة. كأنها تنتظر سفينة تعود من بعيد. ولكن السفينة.. ولكن أيوب..

أين أيوب؟!

\*\*\*



## الفصل الثامن

اجتمعنا في ديوانية بيت الروضة، فهد وضاهي وصادق الذي عرفنا إلى أيوب ابن عمه. شابٌ لطيف، كنت أراه، مرورا، في الأعياد يزور جدته زينب. سرعان ما انضم إلى الشبلة. كانت أعمارنا تراوح بين العشرين والثانية والعشرين. فعلها ابن خالي. بث روحا كانت قد غادرتني في البيت الكئيب لم أتصور عودتها في غير محلها. هو لم يحضر السرة تماما. ولكنه فعل ما بوسعه. استغرقني الأمر سنوات لأدرك أن وقوفه معي، تلك الأيام، كان بسبب قلقه علي وبدافع صرفي عن كتب أقرؤها. لم يكن قادرا على إقناعي بالكف عن تدخين يستهلك صحي، ولكنه تمكن من إبعادي عن كتب من شأنها أن تفسد عقلي. هذا ما قاله بعد سنوات. كان أبو حيان التوحيدي قد اختفى تماما إلا من اسمه في لافتة على رأس شارعنا. وكان ابن خالي قد اختفى تماما بعد دخول آلة العود إلى الديوانية يحملها فهد. يخفيها عن أبيه الذي أقسم بالله: "لو دخل العود بيبي أكسره على راسك!" هو الرجل نفسه الذي كان يقرب مشط البروش إلى فمه يغني لعبدالحليم. لكن، على رأي أمه: "الحي يقلب".

كنت أسأل فهذا متجاوزا تدمره على أبيه: "شلون فوزية؟" يكتفي بالرد: "عمتي زينة" لا يختم إجابته بما يرضيني: "تسأل عنك" فيما يدير صادق ظهره لنا، يواجه شاشة التلفزيون، يلعب الـ Playstation، أستلقي على ظهري أنفخ دخان سيجارتي تجاه فتحة التكييف المركزي في السقف. يزعجني هدوؤها. كان على أبي ألا يتخلى عن الكنديشة. كنت أفتقد هديرها وانتفاضها ورائحة الغبار وقت تشغيلها.

قرفص فهد على الأرض الرخامية، يحتضن آلة العود يعالج مفاتيحها يُدوّن أوتارها. أدهشني كيف له، خلال شهور قليلة، أن يتعلم العزف بهذه المهارة. تمكّن من أن يصير عبدالكريم لمن يريد، في حين فشلتُ في أن أظل عبدالقدّوس لمن أردت. صار يقرأ الشعر وهو الذي، غير كتب المدرسة، لم يفتح كتابا. ترك في الديوانية، عند زاوية العود، دواوين شعر يبحث عن كلمات رصينة، كما يصفها، تليق ألوانها ومذاقاتها وروائحها ومواسمها بصوت عبدالكريم إذا ما قابله ووافق أن يعنى من ألحانه ذات يوم. انهمك في زاويته الأثرية يبحث في دواوين الشعر "أوووووه"، صاح ممتعضا يبعثر الكتب أمامه. التفتنا إليه نستوضح. قال: "هذي نشرات أخبار مو دواوين شعر!" راح يُعدّد ما تدور حوله القصائد: هضبة الجولان السورية، مجزرة صبرا وشاتيلا، مقتل أطفال مدرسة بلاط الشهداء في العراق، حرب أهلية لبنانية، حرب عراقية إيرانية، اختطاف طائرة الجابرية، تفجير المقاهي الشعبية، غارة أميركية على ليبيا، أطفال فلسطين! أنهى مُفخّما صوته: "كان هذا الموجز وإليكم الأنباء بالتفصيل!" رحنا

نضحك إزاء شكله غاضبا. سأله أيوب: "وحُب.. ما في حُب؟" هزَّ رأسه: "في حُب.. ولكن من له مزاج يقرا الحُب وسط الحرب!" علَّق أيوب: "هذي كلها دواوين شعرائنا قبل سنة تسعين!" تناول فهد عوده راح يغني أغنية سَمَّى لوها. لم أسأله يوما عن حوراء، مكنتها بتتبع أحوالها خلال عزفه وغنائه في الديوانية، مثل سُوير الليل لا يملُّ يغني، يتحرى من أنثاه استحابة. يُجيب جهاز الرَّد الآلي في هاتف غرفته: "تحمَّل بالصبر وأنا أتحمَّل.. فؤادي لأجل عينك كم تحمَّل.. وتصبَّر علَّها في يوم تنحل ما تمنيت شيئا، في تلك الأيام، كأمنيَّتِي بأن يحقق الاثنان أمنيتهما. لعلها في يوم.. تنحل، ولكن، في يوم من عام 2000، في ساعة حسبها عمي صالح مباركة، وقت أخبره ابنه برغبته في الزواج، أجابه: "انفُو عليك!" لعن الساعة التي جاء فيها ابنه برغبته مقرونةً باسم بنت الجيران. عمي عبَّاس أجاب زوجته، التي جاءته ثمَّهْد لموضوع ابنتها، بأنه يزوِّج ابنته كلبا على أن يزوجه لولد "صويلح" وأنا، وحدي أنا، كنب مفجوعًا بما يردُّني من كلام صالح وعبَّاس. لم أعد أحمل احتراماً لأي من الرجلين. أوجعني اتفاق فهد وحوراء على عبارةٍ كرَّراها: ليتهما ما عادا من الأسر! وأوجعتني أكثر إجابة ردَّدتها في سرِّي: "يا ليت"، غير مبال إن أمضى الاثنان حياتهما يرددان: "وين راح أبوي؟ راح البصرة!" رغم موت البصرة في الأغنية منذ العام تسعين، وقت اتخذنا الـ جيرةً بديلاً عن البصرة في الأغنية. كان كبيراً علي أن أنصت إلى ما يُنقل إليَّ من كلام أبويهما بتفاصيله رغم رصدي لعلاقة الجارين صغيراً. كلامٌ سوف يصبح مألوفاً في سنواتٍ مقبلة، تبثه

الإذاعات والتلفزيونات ومواقع الإنترنت ويكتبُ بأصباغ الرِّشِّ على أسوار البيوت، يُحمِّلُ أولاد فؤادة وأنصارهم ما فوق طاقتهم لإخفائه بعد استعصاء علاجه. أي كراهية تكشَّفت لي أيامنا تلك. تمنيتها طفلين، جهال، صالح وعبَّاس، يقفان أمام والدي، في زيهما المدرسي، تصفع شفاههما تحرسهما إلى الأبد. أمنيّتي تلك بدت مضحكة تافهة، لأنها تشملُ كثيرين، يظهرون في سنوات قليلة مقبلة، لا مقدرة لأحد على إخراسهم. يموت واحدكم في سبيل أن يُخرس الآخر. يُصدر مفتاح الجنَّة، رغم أن المفتاح عند الحدَّاد، والحدَّاد يبي فلوس، والفلوس عند العروس، والعروس تبي عيال، والعيال بيون حليب، والحليب عند البقر، والبقر بيون حشيش، والحشيش يبي مطر، والمطر عند.. الله!

صادق الذي حسبته غافلا، منشغلا مع ألعاب الفيديو، لم يكن. صارحني بأنه كان يغض الطرف تفاؤلا بنهاية مأمولة، ولأنه يشق بشقيقته، ولأن: "فهد أخوي وأعرفه"، على حدِّ قوله. بعد رفض أبيه لم يتوان يُقحمني وسيطا أنصح فهدًا بعدم مطاردة شقيقته، لأن هذا نصيبهما، والخيرة فيما اختاره الله. طالني ما طالني من تجريح إزاء رسالة نقلتها إلى فهد. غضب. غضبت حوراء. اتفقا ينهيان وساطتي بأن لا خيرة فيما اختاره عبَّاس وصالح. شدَّدا: النصيب ما نختاره نحن! أعرِف فهدًا نحيلا مُد كنا. فرقٌ بين نحول وضمور. كان يتأكل من الداخل. يبدو ذلك واضحا في وجهه الأصفر. في صوته. في عينيه وما حولهما. كان صاحبي يذبل. يمسك عوده. يعني بما يشبه استسلامًا، أغنية صفراء: "لو الشجر له نصيب في بارد ظلاله.. ما

حَرَّقَ القِيضَ جفني وأنت فـ أهدابي كان صادقاً قد اختفى هو الآخر من الديوانية. لم يحتمل أغنيات صاحبه تشي باختفاء حوراء من حياته. صرنا بالكاد نجتمع فهد وأيوب وأنا. فقدتُ الأمل تماماً في نهاية تمنيها لعلاقة شهدتُ تشكُّلها صغيراً. هاتفتُ صادقاً أرجو عودته بعدما حقَّق ما أرادَه في منع شقيقته من وصل فهد. اشترط: على أن يكفُّ عزفه وغناؤه السخيف! أهمل فهد عوده داخل حقيبة جلدية في الزاوية نزولاً عند رجائي. عاد صادق إلى ديوانية الروضة. وعاد ضاوي بعد انتفاء سبب قطيعته. استأنف جهاز البلاستيشن نشاطه. وعادت رائحة دهن العود التي أفتقدُها مرَّتين، الأولى برحيل أمي حصَّةً، والثانية بابتعاد ضاوي عن ديوانيتنا. الديوانية التي أحببتها صارت مكاناً مَقِيماً ومصدر قلق، بين حال فهد وحوراء، وحالة جديدة ظننتني تركتها ورائي في السُرَّة. ما إن راحت أنظار العالم تتجه صوب نيويورك في تفجيرات سبتمبر 2001، حتى صار أمرها شغلنا الشاغل في الديوانية. ضاوي يدافع. يبرر. يستميتُ يبرهن بأن الأمر برمته لعبة لتشويه الإسلام. يعارضه صادق شامتا تنظيم القاعدة ومن هم في صفهم، في حين يسخر أيوب من الإثنين في ذروة انفعالهما. طال جلدُهما ذات ليلة، نال من رموز دينية في كلتا الطائفتين. يُذكرُ واحدهما الآخر بحوادث ماضية ينسبها لطائفة ضد. يوغلان في إثباتِ حقِّ، يستشهدان بالله، يتحدّى واحدهما الآخر، عودة بالتاريخ إلى زمن النبوة وما تلاه. لم أبدأ أي محاولة لإسكاتهما، مأخوذاً بسردهما للتاريخ كل وفق مصادره ورؤيته وإرث ثقيل انتقل إليه من أسلافه. أففُ تارة مع هذا، أخرى مع ذلك. همس فهد لأيوب أن يناوله العود



من الزاوية حين بلغ ارتفاع الأصوات حدًا مزعجا. أسند العود إلى حجره يُغني مغمضا عينيه رافعا وجهه إلى السقف: "لو مشيت بالعناد والتحدّي.. الله معاي.. الله معاي!" انتفض الاثنان، ينظران إلى، كأن صلحا قد نُقض. انصرف ضاوي يتبعه صادق. فتح فهد عينيه ينظر ناحية الباب: "الدرب إللي يودّي ولا يجيب"

لم تكفّ زوجة خالي حسن، في ذلك الوقت، همتني تسأل عن ضاوي. من هم أصدقاؤه. أين يذهب. ولماذا انقطع عن الديوانية؟ لم أكن أعرف الكثير.

مضت شهور خمسة على حالنا تلك، قبل أن يستعيد وجه فهد لونه القديم، ويلوّن الديوانية بالأزرق يوم غنى: "ساعة الفرحة" عاد صادق بعد قطيعة. فهمت أن شيئا يجري في السُرّة. كان موقف أمي زينب حاسمًا يوم أقسمت، بكل المقدّسات؛ الله بسمائه، والنبي محمد، والإمام علي، وحليب أمي حسّية، وثديي الذي أضع، على ابنها الذي أصر بأن الزواج غير متكافئ، تُذكره بأمرها حسّية، وكيف أن لا شيء اعترض زواجها من أبيها كاظم: "تزوجوا وعاشوا سنين.. كل شي ماكول"، قالت تستسهل الأمر نقل لي صادق ما أفضت به جدّته. لولا قسم والدتي تجاه السُرّة لما تأخرتُ أطرق باب بيت أمي زينب أقبل جبينها. محقة حوراء حين قالت إن أمي حصّة، بوجود أمي زينب، لم تُمت. سوء معاملة جارها لم يشنها عن عزمها. ارتدت عباؤها، تجرّ خطواتها متكئة على عصاها، تكرر طرق باب صالح، رغم اعتلال صحتّها. صدّها. مرّة. مرتين. كرّرت زيارتها الثالثة. بقيت في الحوش رافضة دخول منزل من لا يقيم لها

وزناً. هزّت رأسها: "عين حصّة ما غمّضت!" قالت له والدموع في عينيها. "عين حصّة تشوف" بهت أبو فهد. أخبرته بأنها تريد أن تموت مغمضة عينيها على أهل بيتها، على أن يكون ابن حفيدتها، من فهد، آخر ما تراه بينهم. استطردت قبل أن تمضي إلى بيتها: "إللي بيني وبين أمك أكبر من كلاواتك إنته وعبّاس!" مضت تمشي على ثلاث وهي تمدُّ سيّبتها صوب الحديقة الصغيرة في الحوش: "أشهدّ سِدرة حصّة عليك!" قالت كلمتها الأخيرة، تاركة عائشة وفضيلة تبدلان ما في وسعهما لإنهاء الموضوع. فيما بقيتُ أنا بعيداً أنصتُ إلى تطور الأحداث من فهد وصادق. لم يكن أمرهما سهلاً. يتعطلّ كلما سار بضع خطوات. اشترط أبو صادق، إن كان لا بد من الزواج، أن يُعقد وفق المذهب الجعفري في حين عارض أبو فهد محذراً ابنه إن تنازل في البدء: "باكر يلبسونك عمامة!" اتفقنا، صادق وفهد وحوراء وأنا، على تسوية الأمر بدعم من أمي زينب، حين أنهت كلامها لنا: "روحوا إنتو تزوج الاثنان، في مارس 2002، على ألا يُفصّحا إن كان زوجهما قد تم على مذهب — هُم أم على مذهب — نا. والتزمتُ وصادق بعد إمضائنا شاهدين، على عقد الزواج، ألا نفشي أمر المذهب لأحد. أتذكر كيف كنا، ضاوي وصادق وأيوب وأنا، نجهّز فهداً يوم زفافه وكأنه زفاف جماعي. قمنا بترتيب كل شيء، في حين سافر صالح إلى العمرة واعتكف عبّاس في بيته تلافياً لحضور الزفاف. انتظرته وصادق يُنهي حمّامه المغربي في السالمية، في حين ذهب ضاوي وأيوب يُحضران الدشداشة والغترة والبشت من محلّ علامين البنجابي. لا نطيل البقاء في قاعة الانتظار

الصغيرة في الصالون. ألتصص وصادق على فهد من وراء الباب الزجاجي الذي لا يتيحُ البخار رؤية ما وراءه. أسأله ضاحكا: "ها! شلون معرِسنا؟" يردُّ: "شباب! نزل مني نفظ!" ضحكتي صارت ابتسامة. لو أن صاحبة القول ترى حفيدها اليوم!

عزمتنا على الانطلاق إلى صالة شيخان الفارسي للأفراح في السُرَّة، مقر زفاف الرجال، بعد تجمعنا في ديوانية الروضة. نستأنف احتفالنا بفهد، بعد عُرس الرجال، نُزفه إلى عروسه في القاعة المسائية في فندق شيراتون العاصمة، حيث حفل النساء. ما أسعد فهدًا مساؤنا ذلك. يوزع ابتساماته على كل شيء في الديوانية. بدا مختلفا، بذقته الحليق وحرصه على إبقاء شاربيه طويلين منخفضين عند زاويتي شفتيه، خلافا لإزالة الشارب تماما حسب موضحة دارجة. يُميل عقاله مثل عبدالكريم تماما. يجلس ثابتا على الأريكة في الديوانية لئلا تتجعد دِشداشته. يمنعنا من التدخين كيلا يُفسد الدخانُ رائحة البخور ودهن العود في ملابسه. لم يتزحزح من مكانه إلا لزاوية الديوانية عند المبخر والعمود العربية التي وضعتها والدتي لهذه المناسبة. حتى وقت صلاة العشاء بقي ساكنا خوفا على دِشداشته: "أصلِّها بعدين يهاتف أمه بمزاحها إن كان بوفيه العشاء في الشيراتون يضمُّ مطبَّق سمك. تستعجله تنهي المكالمة. ينهيا: "مياااو!"

ما إن فرغنا من صلاة العشاء يؤمنا ضاوي حتى استقام فهد يحمل بشتهُ أمام المرأة يتأكد من سلامة مظهره قبل خروجنا. لكز أيوبو يشير إلى زاوية الديوانية: "هات العود" استغرب ضاوي عاقدا حاجبيه. غمز له فهد: "أقصد دهن العود يا شيخ!" دس ابن خالي

يده في حيب دِشداشته يناول فهداً زجاجة صغيرة: "دهن عود من مكة.. ولا في عرس أمك تحصل مثله!" ضحك فهد وهو يمسح العود على ظاهر كفيه ورقبته. مدّ يده بالزجاجة إلى ضاوي. رفض الأخير استعادتها يقول إنها هدية يوم زفاه.

تركنا الديوانية. كنت مرتبكا أكثر من فهد الذي اشترط أن تجمعنا سيارة واحدة، هو وصادق وأنا: "أبيكم معاي" لوّحت له بكاميرتي أخبره بأني سوف أتبعهم من أجل تصوير مسيرة مُصعّرة سنقيمها في الشارع. أكّد ألا حاجة للتصوير فأمه متأهبة مع المصورات في قاعة الفندق تاليا. أشار إلى ضاوي: "أو هو يصور نظر ضاوي إليّ لم يُجر جوابا. فتحتُ باب سيّارتي. كرّر فهد باهتا: "أبيكم معاي!" أطبقتُ الباب أدير المحرك. أشرتُ إلى ساعة معصمي. أتفهم دافع ارتبائه وقت سفر أبيه للعمرة يوم زفاه. انطلق صادق بسيارته يصحبُ فهداً، تبعتهما سيارة ضاوي يصحبُ أيوباً، في حين لحقتُ أنا بالسيارتين مهملاً كاميرتي على المقعد إلى جانبي. ضجّ شارع دمشق بنفير سيّاراتنا، ووميض إنارتها، نرّف فهداً. يستعرض ضاوي بسيارته يرسم دوائر على الإسفل. سرعان ما انتقلت حالنا إلى السيارات في الشارع عند تقاطع الإشارة بين الروضة والعديلية. مضينا إلى مدخل السُّرة، شارع طارق بن زياد، أو شارع محظوظة ومبروكة. انعطفتُ سيارة صادق يمينا نحو صالة شيخان الفارسي للأفراح، لحقتُ بها سيارة ضاوي، تنزلق على الإسفلت، يظهر من نافذتها نصف أيوب ملثماً بغترته. مضيتُ أسلك شارع دمشق عائداً إلى الروضة.

\* \* \*

## يحدث الآن 9:27 PM

يركض الشرطي إلى سيارته. يشعلُ وميضها. ألحق به أستمهله  
لحين أتأكد من وصول أيوب إلى ضفة السُرَّة. ينظر إلى الساعة في  
معصمه. يرفض. بعد ثلاث دقائق تبدأ المروحيات بتمشيط المنطقة.  
ولكن. لا استثناء. أرجوك. لا رجاء. أركض نحو سيارتي أتبعه. وصور  
أيوب في النهر تحاصرني. أتأكل النار ضاويًا ويلع النهر أيوبا؟! بعض  
البيوت على الشارع تشتعل. تأكلها النيران ولا سيارات إطفاء في  
الجوار. أنا ألفتُ شعور الخوف منذ زمن. ما يتتابني الآن يجاوز  
الخوف. ألتفتُ إلى حصّة في المقعد ورائي. على شفتيها ابتسامة وفي  
عينها قلق. أستمد من طفولتها أبوةً تمنحني تماسكا. أرفعُ غطاء الدُرج  
أسفل مرفقي أتناول زجاجة العطر تقربُ حصّةً وجهها بين المقعدين  
الأمامين. يرتفع صوتها: "كلونيا أم بنت؟!!" تمدُّ كفها ميسوطة.  
تسحبها. تناولني كفها الأخرى الخالية من رسم الفأر. أصبُ قليلا من  
السائل الذهبي في راحة كفّها. لا أسألها كيف تعرّفت إلى العطر  
القدم. تنتشّق العطر في نفسٍ عميق: "أبوي يحب كلونيا أم بنت!"  
تقطع صمتي بصوت خفيض: "وأنا أحب أبوي" أصوات مروحيات  
الاستطلاع تقترب من بعيد. أدنو بسيارتي من سيارة الشرطي أكثر.  
أدير مؤشر المذيع. إذاعة الكويت تندم، على ما يبدو، لعدم موارثها  
حقيقة قبل قليل. تبثُّ أغنية: عمار يا كويتنا.. عمار يا أمنا.

"أعرفه.. عبدالكريم.. أبوي بحبه.."

أبتلع إجابتي: "وانتي تحبين أبوك" يبدو أنك ووالدك تحبان الكثير يا حِصَّة. أستعيد وجهها قديما يصاحب الصوت في المذياع ولا أجيها: "وفهد بحبه" أتلفت. ترصد عيناى الدمار. تسمع أذناى الـ عمار. أدير مؤشر المذياع يأكلني حجل. هو الأمر ذاته مع أولاد فؤادة. في ذروة انحدار كل شيء نتغنى: "هذي بلاذ تطلب المعالي كذبنا. ولأن من الكذاب يمرُّ صدقٌ كثير، تمنينا لو أننا نصدق في هذه وحسب. تقطع سيارة الشرطي الدوّار. أتبعها. إذاعة أخرى تبث سورة قرآنية: ﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (1) لَيْسَ لِمَنْ يُلْقِيهَا كَاذِبَةٌ (2)﴾. أذني مع الإذاعة. عيناى تجوبان الجوار. دويُّ انفجار عظيم يشقُّ سكون الليل. يرتعش الشارع تحت عجلات السيارة. صوت الإذاعة يواصل: ﴿خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ (3) إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًا (4) وَبُسِّ الْجِبَالُ بَسًّا (5)﴾ حِصَّة أسفل المقعد الخلفي تحاكي الانفجار صراخا. محطة الوقود ورائنا تصير نارنا بعلو بناية. ﴿فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا (6)﴾. تزداد المسافة بين سيارتي وسيارة الشرطي. أزيد سرعتي أتبعه. نقطع شوارع الجابرية باتجاه الخط السريع. عند منعطف أخير، بالقرب من متحف طارق رجب، يوقف الشرطي سيارته أمام أحراش تحاذي سوراً من الشبك المعدني يطل على الشارع الرئيس. يطفئ وميض سيارته. صوت يتخلل التشوشات في جهاز اللاسلكي في حزامه. لا أتبين من كلامه عدا اسمي قرطبة والعدلية. يوجّه الشرطي سبابته صوب نفق مشاة مظلم يؤدي إلى الرميثة. أتمسكُ بالمقود: "وسيارتي؟". يحذرنى. لا يخلو الأمر من خطورة. الحافظ الله.

يفكر قبل أن يشير إلى ما وراء الأحرار. إلى جانب النفق. هناك شقٌّ  
في الشبك المعدني يتسع لمرور سيارة يفضي إلى خارج الجابرية.  
يستمهلي. يمضي نحو سيارته. يعود بمقصّ أسلاكٍ معدنية يناولني إياه.  
لربما جبال الإطارات المشتعلة تسدُّ مداخل السُرّة. أحدّق في عينيه.  
أسأله الخروج معنا. الجابرية تشتعل. يؤكد بما يشبه استسلاماً:  
محطات الوقود في الجابرية وقرطبة والروضة والعديلية.. كل المناطق  
أكلتها النيران.. "وين أروح؟!"

يشير بذقنه إلى الشارع. تبتسم عيناه من وراء الكمام. يمدُّ كفه  
يصافحني:

احموا الناس من الطاعون..

\* \* \*

## الفصل التاسع

لم يعتب فهد على انصرافي عن حضور زفافه. تفهّم حجّة ما نطقتُ بها. غفر لي معانقا حين وجدني عند بوابة الشيراتون، قبل منتصف الليل، منتظرا إياه لأزفّه إلى عروسه. اكتفى ضاوي يصافح فهداً، عند مدخل الفندق، يهنئه قبل انصرافه متحمّجا بالتزامه بموعد آخر لم نلزمه بالبقاء متفهمين تحاشيه الفرقة الموسيقية في القاعة التي تنتظر دخولنا. لا أدري أي القليين كان يخفق أسرع، قلبي أم قلب المعرّس، ونحن نقطع الممر نحو القاعة، لنقطع ممرا آخر، في منتصفها، يفضي إلى منصّة العروسين. ترتفع أصوات الطبول عاليًا كلما اقتربنا. وصلنا إلى خالتي عائشة في آخر الممر ملوّنا وجهها. تمسكُ بطرف حجابها أسفل ذقنها، تفوحُ خليطا من عطور، فيما بدأ الحجاب مرتجيا بالكاد يغطي شعرها المنفوش. شرحت لنا سريعا كيف ندخل وبأي سرعة نمشي إلى المنصّة. انفجرت الزغاريد في وقت واحد فور دخولنا وراء فهد. يمشي في المقدّمة بخطى وثيدة على إيقاع قرع الطبول. كانت القاعة مظلمة إلا من دائرة ضوء تحيطنا، نقودها أو تقودنا على مهل نحو وجهتنا، ترانا النسوة ولا نراهنّ. فيما ارتفع



صوت فطومة ممسكة بالميكروفون: "يا معيريس، عين الله تراك.. القمر والنجوم تمشي وراك" يرتفع رأسي، لا إراديا، أنظر إلى السقف أتحمق مما لا أدري. انعطف فهد، خارج بقعة الضوء، خلافا لكلام خالتي عائشة، بشكل أربكنا نحو مقاعد الحضور الجانبية المظلمة. أضيئت القاعة بالكامل. انحنى فهد على رأسي زينب يقبله. يقبل يدها. ارتفعت الزغاريد أكثر. تبعناه، صادق وأيوب وأنا، بالمثل نفعل. كانت تسند كفيها إلى عصاها لا تكتم بكاء فرحها. بدت في كامل زينتها رغم التعب البادي على وجهها. توصي فهداً على حفيدتها محذرة: "عين الله تراك!" قرب صادق وجهه إلى جدته: "قومي إرقصي يمه زينب!" ضحكت تشير له أن يقرب أذنه. أفصحت بغم نصفه مفتوح: "ماكو أغنية عراقية!" احمرت أذنا صادق يتلفت حوله يفتعل ابتسامة وقت خالط الحزن ضحكي.

تحلقت قريبات العروسين حولهما تلتقطن صوراً أثناء انصرافنا. خالتي عائشة توجه المصورات مثل مخرجة محترفة. لم أشاهد من حوراء عدا ذيل ثوبها الأبيض. كانت قد غطيت برداء لؤلؤي اللون، يستر كتفيها ورأسها. نسيت قلق الشهور السابقة فور ما طبع فهد قبلته على جبين زوجته. جلست كتمثال لم تبد تجاوبا مع هنتتنا: "مبروك" وكأني أرى الفرحة في عينيها الكحيلتين ووجنتيها الحمراوين وراء ساتر وجهها.

كنت أمضي تاركاً صادقاً وأيوباً يهثنان خالتي فضيلة، وقت سكت فطومة تُفسح وقتاً للـ DJ يُحيي العرس بأغنية لعبدالكريم

اختارتها حوراء. لمحتُ فوزية ثابتة في مقعدها. حَدَقْتُها صوبِي مباشرة. أبعدتُ نظري إلى الباب مرتبكا. التفتُ لها ثانية. عيناها باردتان نحو الأرض. شتمتُها في سرِّي كم تبدو فاتنة، بثوبها الوردى وشعرها الأسود الداكن. هي الطفلة إياها التي كانت ترقص في الأوبريت القديم. فراشة وردية تحلّق في حدائق الأغنيات والبهجة. لا بهجة في وجهها رغم الأغنيات. هو الوجه ذاته. هو الأنف سلّة السيف. هو الشعر الذي يجاوز منتصف مؤخرتها يحو ذكرى آلة الحلاقة القديمة، وهي البشرة السمراء التي أُحِب. هي هي. إلا جسدها لم تزده السنوات سوى ماذا؟ أشحتُ بنظري بعيدا عنها وعن خيالاتي. استفاق شيء في داخلي وقت هَمَدَ صوت عبدالكريم وأُخْرِست الطبول في رأسي. صرتُ أنصتُ إلى أغنيتها القديمة في أعماقي: "بنقول لكم سالفه.. وللسامعين كافة.. أحلى السوالف" تركتُ القاعة وفوزية وبيبي زينب والعروسين وأحلى السوالف ورائي.

انتقلت حوراء إلى السكن، في جناح علوي، في بيت أهل زوجها بعد منافسة مجنونة بين النسيبين على محل الإقامة. شرع كلاهما يقحم نفسه، في حياة الزوجين، نكاية بالآخر كان الأمر مضحكا في البدء، وكان مادة للتندر في ديوانية الروضة، عندما كانت الخلافات سطحية، أو عندما كانت تبدو كذلك، وقت تأنيث جناح العروسين. "أبوها يقول إسفنج البغلي أحسن، وأبوي يقول إسفنج الجريوي!" قاطعه أيوب: "يجيا American Mattress!" فهد لا يضحك مقابل ضحكنا. يواصل: "أبوي يقول إلكترونيات

LG وأبوها يقول Panasonic" ولأنني لحتُ الجديّة في وجهه، سألته: "ليش؟" أجابني، بقناعة الرجلين، مثلاً دارجا: "دهننا في مكبتنا!" أسترجعتُ أسماء الشركات والوكلاء التي ذكرها تواء، أردُّ واحدها إلى طائفة، مدركا إلى أي حدّ وصل بهما الأمر. راح فهد يتحدّث عن اختيار أبيه ونسيبه لأسماء بعينها في حال رُزقا بولد أو بنت. ختم مهونا: "إحمد ربك أبوك وأمك ما عندهم هالسوالف!" فرغ من تأييث سكنه. ملأ مكبتهُ دهنا من هنا ودهنا من هناك إرضاء لطرفين لن يرضيا أبدا، لعله يتحاشى مضايقاتهما.

بعد شهر سبعة من زواج فهد، هاتفتني زوجة خالي حسن في الديوانية. لم أفهم منها كلمة بين لهاثها وصراخها عبر الهاتف. ولم أستوعب حقيقة ما يجري وقت بث التلفزيون خيرا عاجلا عن هجمات لشباب كويتيين ضد جنود مشاة في قاعدة أميركية في جزيرة فيلكا. قُتل اثنان من منفذيها. أُلقي القبض على متهمين كثر لم يُفصح عن أسمائهم. أكدت زوجة خالي أن ضاوي أحدهم. حبسنا أنفاسنا في الديوانية نترقب مصيره. أفرجت النيابة العامة، بعد أسبوعين، عن اثني عشر متهما من بينهم ضاوي الذي بقي صامتا. لم يفصح عما جرى له وقت احتجازه. لم يفصح عن شيء عدا حزنه على بقاءه معتقلا، على ذمة التحقيق، وتخلّفه عن صفوفٍ مُشيعين قدّروا بالآلاف رافقوا المجاهدين إلى مثواهما الأخير. كان يعرف أحدهما. يتحدّث عنه بإجلال؛ رجلٌ وعد وأوفى. كنا نستمعُ إليه يُفضي بحرقّة: رحمه الله، عاهد نفسه على الانتقام وقت عرض تلفزيون الكويت مشاهد للمجازر الإسرائيلية في خان يونس في غزة.

فعلها وانتقم. تدخل صادق: ومن قال إن خان يونس في فيلكا؟!  
فهُض ضاوي بعينين حمراوين ووجه صارم. قابله صادق نافخا صدره.  
لا يفصل بين أنفيهما سوى مسافة صغيرة. "يهودي!" قال ضاوي.  
ردَّ صادق: "أشرف منكم!" تداركنا الموقف، فهد وأيوب وأنا،  
بعدهما أوشك الاثنان على اشتباك بالأيدي.

عادت المنافسة بين النسييين اللدودين في الشهر الأخير لحمل  
حوراء، فبراير 2003، وبعد معرفتهما بجنس الجنين ذكرا، شرعا  
يؤكدان على أسماء اختاراها لحفيد مقبل. يحذّر كلاهما من اختيار  
أسماء بعينها، في وقتٍ كانت فيه أمي زينب بعيدة في جناح وحدة  
جراحة القلب في مستشفى مبارك. تضيقُ عينيها أملا في قراءة شريط  
الأخبار أسفل شاشة التلفزيون الصغيرة، يأكلها قلقٌ إزاء أخبار  
استعداد القوات الأميركية لخوض حرب محتملة على العراق. توصي  
ابنها: "إذا فتحَ الحدود، أمانة، ترحون بيَّه هناك.. عدلةٍ چنت لو  
ميتة" تنتفض فضيلة: "بعد عمر طويل إنشالله" تلتفت أمي زينب  
إلى حوراء. تشير لها أن تقترب. تمسح بطن حفيدتها بكفها: "وانتي!  
يمته تجيين؟" تبتسم حوراء. تُردف جدتها: "لا تتأخرين

يفضي لي فهد بكل ما يجري هناك، بعيدا عني. يصف لي خوف  
حوراء. وحينما طمأنته بأنه شعور طبيعي لأي امرأة تخوض تجربة  
ولادة أولى، هزَّ رأسه: "حوراء خائفة على أمي زينب" ينهي حديثه:  
"وأنا بعد أردد داخلي: "وأنا بعد"

ابتسم فهد وهو يمدُّ لي يديه يحمل صغيره في ممر مستشفى  
الولادة: "حسن.. على اسم خالك حسن تذكرتُ وجه خالي في

ذاك النهار، يوم أزيح عنه اللثام. نظرتُ إلى الصغير نائما بين يديّ. رددتُ إلى فهد ابتسامته. أذكره: "وعلى النظاراتي حسن افتعل ارتبكا: "هشششش—!"، برّر: "كنا جهال!" كنت أنظر إلى وجهه تمرُّ في خيالي حياتنا في ثوان. قط المطابخ صار أبا لقطّ صغير يُشبهه. وعندما طال وقوفي في ممر المستشفى سألته عن حوراء. أجاب: "الأهل بخير هزرتُ رأسي متفهما قبل أن أمضي إلى خارج المستشفى. نحن لم نعد أطفالا كي يُسمح لي بالدخول أهنئها بمولودها الأول. "سلم عالاهل"، قلت له.

أتمّ الصغير يومه الثاني في مستشفى الولادة. حمله فهد تاليا إلى غرفة العناية المركزة في مستشفى مبارك. لم تقو أمي زينب على حمله بين ذراعين مثقلتين بأنايب المغذيات، وأصابع موصولة بأسلاك قياس نبض القلب وضغط الدم. لم تقو كلاما. بالكاد ابتسمتُ عيناها لمراى حسن الصغير، قبل أن تطبق جفنيها ببطء. تُغمض عينيها بسلام.

قرأتُ إعلان نعيها في صحف اليوم التالي. أرملة الحاج عبدالنبي عبّاس محمد. لم يشفع لها لقب عائلة، كان عريقا، بذكر اسمها صراحة، لئلا تُكشف هويتها. ماتت من دون اسم. سقطت ورقتها الأخيرة وقت سقوط عراقها بأكملة.

\*\*\*

## يحدث الآن 9:42 PM

"عمي.. تقدر تشوف؟!"

تستعيد حِصَّةَ صوتها بعد استفاده صراخا صاحب تفجير محطة الجابرية. أقود سيارتي ببطء بلا أنوار. متمهلا كما لو أن للسيارة ذراعين تتحسَّسان الطريق. أجيِب سؤال الصبيِّة مؤكدا. نعم. رغم أني لا الظلام، هنا، أشدُّ من سواه. كأني تركت البدر ورائي في الجابرية. شيء يشبه سُحبا، أو غُبارا عالقا في السماء يزيد الليل عتمة. أتذكر أُمي حِصَّةَ تحذِر فهذا: "أقدر أشوف في الظلمة" هي تقدر على أشياء كثيرة، وحدها تقدر. أخشى لو أشعلتُ أنوار السيارة أن تدرك الرصاصات دربا يقودها إلينا. أنعطف يمينا مع ارتفاع الطريق نحو شارع دمشق. في سوادٍ يَجْنِبُ سالِك الدرب بشاعة مألوفة؛ لآلال رمادية في حذاء الرصيف، وحجارة ومتاريس وأوساخ على جانبي الشارع. لا أرى شيئا هنا. وحدها الرائحة تنشط كما لو أننا قرب الجسر. أنصتُ إلى صوت عجلات سيارتي تخوض في ماء يُغرِقُ شارع دمشق. شعور يعيدني إلى الطريق أسفل الجسر، وقت بدأ يطفح بمياه المجاري قبل بضع سنوات. أترانا إزاء نهر جديد يُمهِّد لظهوره؟

تمس حِصَّة: "ممكن أسأل؟" هي لا تكف عن السؤال منذ حرَّرها أيوب من المصعد. آه يا أيوب. تتخذ الصبيِّة من صمتي رخصة لسؤالها:

"عمي.. يقدر الإنسان يتنفس تحت الماي؟"

دافعُ السؤال يُلمني صمتا عن إجابةٍ تعرفها. تُفكر في أبيها. أفكر في أيوب. يخبو صوت الماء تحت العجلات. يُخنفي عند دخولنا شارع طارق بن زياد. اسم الشارع، في العادة، يجرُّني إلى ذكريات نشأتني. هذه المرة لا أفكر في شيء لولا أن حصّة راحت تستعرض معلوماً حول مسلسل عُرض لأول مرة قبل ولادتها بسنوات طوال. شارع محظوظة وميروكة. مستشفى الطب النفسي. فؤادة والفئران الآتية. هي، بسبب إذاعتنا، تعرّفت إلى المسلسل. تابعت حلقاته على الـ يوتيوب، وأحبّته كما تقول، لولا نهاية لم تعجبها. تسألني لماذا هربت محظوظة وميروكة، في الحلقة الأخيرة، إلى مستشفى المجانين؟ لماذا لم تواجهها الفئران؟ تروح الاثنان، في مشهد أخير موشوم بالذاكرة، تجريان هلعا داخل رأسي في هذا الشارع. لا أجيب الصبيّة بأن هربما جاء دافعا لأولاد فؤادة بعد سنوات ليغيروا المشهد. لا تنتظر حصّة أجابة لسؤالها. يقودها صمّي إلى غيره. "عمي.. البيت بعيد؟" أشير لها أمامي باتجاه ما لا أراه: "شارع علي بن أبي طالب" يدفعها الاسم تسأل:

"رضي الله عنه أم عليه السلام؟"

على من تتذاكين يا صغيرتي؟! استهلكني زمن طويل لكي أكون في موضع أمي حصّة، أمام سؤال أزعجها حول موقع حديقة الحيوان بين العُمريّة والعُميريّة. في ظلامنا هذا لا أجد مهربا من سؤالها. لا حمامة تحطُّ على سورٍ قريبٍ تصرف الصبيّة عن سؤالها. لا قفص عن





الصدئ لا يشبه ملمسا قديما أعرفه. أحاول عبثا إخراجه من ثقب  
البلاط بلا جدوى. تجلس حصّة على ركبتيها. تدسُّ كفيها  
الصغيرتين تعالج المزلاج. تنجح في رفعه. تستقيم واقفة. تدفع الباب  
إلى الداخل تسبقني إلى الحوش.

\* \* \*

## الفصل العاشر

لآثار الحروب تجلياتها، ليست مخلفات السلاح أبشعها. أي هلع تلبّس والدتي وقتَ انطلقت صافرات الإنذار، تحسُّبا لصاروخ يتسلل من الناحية الشمالية المقصوفة، تنعق فوق مباني المدارس. هيأتُ ركنا في البيت أحالته ملجأ وق الخطر. لا تني هاتف أبي وأخوتها تتوسل إليهم البقاء في أماكن آمنة. طار النوم من عيني والدي خشية تدهور سوق الأوراق المالية المنتعش بحال عدم الاستقرار الذي خيّم على الكويب وقت قصف بغداد. هاتفتني أمي كلّ ساعة تطمئنن إلى وجودي: "والله لو طلعت من الديوانية وقت صفّارات الإنذار.. لو أهما تدرك خطورة ما يجري داخل الديوانية! ابتعدتُ أحمل هاتفي ألومها. هي بأسلوبها هذا تظهرني أمام أصحابي خوفاً. إجابتها جاهزة: "من خاف سلم!" كان التلفزيون يعرض مشاهد مباشرة لقصف بغداد. نيران وأدخنة وقذائف وأصوات طيران حربي. كنا نتابع في صمت. لا أدري ماذا يدور في رأس كل واحد منا في نوبة خرّس. صوّبتُ عيني إلى الشاشة ولم أشاهدها. تذكّرنا صغيرين، فهد وأنا، نتقمّص جنديين عراقيين هتف، نُهوس، ونعدُّ الأمة بنصر من الله

قريب. تذكّررُتنا، صادق وفهد وأنا، نجمع حجارة صارت تلاً في حوش آل بن يعقوب، لعلنا نصير أطفال حجارة. تذكرتُ فوزية و"بلادُ تطلب المعالي تذكرتُ صالح وصورة الرّيس. تذكرتُ عبّاسا وصورة روح الله. تذكرتُ أمي حصّة تبجلّ فهد الأحمد، الشيخ الشهيد، الرجل، الذي حارب اليهود. تذكرتُ حديثها الليلي عن زوجها مُنصِتاً إلى خُطب، الزعيم، جمال عبدالناصر، يطرب لحديثه. تذكرتُ كلّ شيء، وعيناى على الشاشة ثابتان. تذكرتُ، وأدركتُ كم كنا فتران تجارب في معمل كبير يُديره من؟

دوَى صوت انفجار في التلفزيون يُخلّفُ جيماً تلون الشاشة. ضاوي أشدنا تأثراً. صارم الملامح لا تخفي عيناه الحمراوان ما يعتملُ في داخله. هزّ رأسه يستشهد بحديث النبي؛ أخرجوا المشركين من جزيرة العرب. انفعّل. أمسكُ أيوب بالريموت كونترول يكتم صوت التلفزيون. دخلنا في حرب تسميات، بين ضاوي وصادق، غزو العراق أو تحريره. لا أدري كيف يجرُّنا كل نقاش إلينا في النهاية. القاعدة الأميركية في جزيرة فيلكا. الأساطيل الأجنبية في مياه الخليج، العربي تارة، والفارسي تارة أخرى. بدأت الملاحظة كمزحة يناكف بها واحدهما الآخر اتخذتُ المزحة منحى خطيرا. اختلفا. ارتفع صوتاهما. كان اسمه. صار. قبل بعد. في خرائط قرون مضت. حقيقة. ادعاء. تزوير تاريخ. قاطعتهما مستخفاً بجديّة لا تناسب الموضوع. أدعو كلاهما لتسمية خليجه وفق قناعته وإنهاء الأمر. اتفقا برّدهما: "ما يصير!" دارت العجلة من جديد. خليج فارسي. خليج عربي. تدخل فهد: "تسكتون والا أجيّب العود؟".

صاح ضاوي وقتما اتسعت رقعة النار في الشاشة الخرساء. عجز حرف الرء يجد له مكانا في لسانه: "حرام!" سأله فهد أي حرام في أن يُقتل قاتل أبيه: "هذا وانت ولد شهيدا!" امتقع وجه ابن خالي ترتعش شفثاه. هو الذي يأمل عودةً لأبيه، أو ربما شهادة تليق به. هو الذي أمضى سنواتٍ لا يعرف مصيرا للمفقود يراوح بين نعتين لا يدرك أحدهما؛ أسير أو شهيد. يصفعه النعت المخاتل يفتح أبواب الاحتمالات على مصاريعها. تدخّل صادق يحاول إقناع ضاوي بضرورة ما يجري: يموت أحدهم لتعيش أنت! استعدتُ مشاهدَ لبرٍ مِشرف، قبل تقسيمه، وقت دخول آليات الحفر؛ الجرايع المذعورة والضبان المشردة والكلبُ ضحية اللُغم. صرتُ أفكرُ في مصير طائر الصرد الرمادي. انصرفتُ عن مشاهد قديمة. تذكرتني بعيدا، لا يعنيني من أمر العراق شيء عدا أن يبسي زينب أطبقت عينيها قبل أن ترى النيران وإرثها الرمادي، وقلق انتابني على حين غفلة لفكرة وجود خالي حسن في معتقلاتٍ عرضة للقصف. والناس هناك؟ كنت أسألني. وجدتني منجراً وراء عاطفتي تجاه من لا يربطني به عدا عجوز ماتت قبل أيام. استعدتُ وجوه عبداللطيف المنير وجاسم المطوع وخالي حسن وجنودا عاثوا في بلادي فسادا، حرائق آبار نפט وألغام، ولافتات ضخمة تحملُ شعار "كي لا ننسى"، أستمدُّ منها مبرراتٍ فشلتُ تقنعي بعدالة ما يجري. تذكرتُ الصور الصامتة على شاشة التلفزيون. وأصوات صافرات الإنذار لا يصدُّها زجاج نوافذ الديوانية، تماهى مع نشيج ضاوي الذي صار يبكي مثل طفل أمام الشاشة. شُلتُ ألسنتنا ينظر واحدنا إلى الآخر. جَمَعْنَا سؤال لضاوي

لم نجروُ على لفظه: على من تبكي يا ابن الخال.. على ما يصير رمادا في الشاشة أمامك، أم على يقين مباغت لموت خالي حسن.. هناك؟  
ومع شكوك حول مصير الخال، جاء اليقين بمصير ابن فهد وحوراء. مات حسن الصغير. رغم بقائه حيًّا، تحفظه جدُّته عائشة من الفناء، في كاميرتها الديجيتال. ثمان وعشرون صورة بعدد أيام عمره قبل أن يأخذ الصغير الموتُ في حضن أمِّه. انخنت عليه تُلقمه ثديها. مالت عليه. غَفَّت. غفى. استيقظت. وجدته بين ذراعيها أزرق الوجه. لم تستعطف صرخاتها ملك الموت الذي مضى بروح رضيعها بعيداً. نشط خلاف النسيبين، رغم حزَّهما، في ذروة الفاجعة. في أي من المقبرتين يُدفن الصغير. مقبرتنا. مقبرته — هم. وكأن إحدى المقبرتين تُفضي إلى نار وأخرى تفضي إلى جنة. اختفى فهد يحمل صغيره. عاد بوجه جامد، يجيبُ من يسأل عن مكان دفنه: "في التراب"

أقيم لحسن الصغير عزاءان. أحدهما في حسينية والآخر في بيت آل بن يعقوب. يقف فهد، صباحاً، يتقبَّل التعازي هنا، وعصراً يتقبَّلها هناك. غاب عن الديوانية. صار قليلاً ما يزور. بقي إلى جانب حوراء ينقلها من عبادة نفسية إلى أخرى. كان ضعيفاً، ولكن ضعف زوجته أجزه أن يتحلى ببعض قوَّة. ساءت حالة أم حسن. لم تعد تسمح لزوجها اقتراباً. يطمئننها: "الله يعوضنا بغيره" تنفجر في وجهه باكية. تنشب أظفارها في ثديها الأيمن تُدميه. تصيح: "ما أييه!"  
اضطر فهد لإبقائها في مستشفى الطب النفسي، إذعانا لأوامر أطبائها، خوفاً عليها من نفسها. يُخبرني صادق؛ لا تحسُن في حال

شقيقته. تقضي ساعات صحوها، في غرفة المستشفى، ساهمة تنظر إلى النافذة. تصيح فجأة. تطبق كفها على ثديها تعصره. تركز على أسنانها: "ما أبيه!" يتحلّق حولها الأطباء والمرضون يحقنونها بأدوية مهدئة يُقَيِّدون رسغها إلى طرفي السرير. أمضت سنة في المستشفى. في ذلك الوقت انتقل عبّاس وعائلته إلى بيت جديد في الرميثة. يقول صادق إن قرار انتقالهم جاء بسبب صعوبة البقاء في البيت بعد رحيل أمي زينب. ويعزو فهد السبب إلى ضيق نسيبه بحيرة لم يعد يحتملها مع أبيه. لا يتردّد يُفصي: "بصراحة.. أحسن!"

في لقاءاتي القصيرة مع فهد، وحدنا في الديوانية، كان يحدثني عن زوجته بحسرة. بُهاتفه: "ولهانة عليك" يأخذه الفرح إلى المستشفى. تصرخ به: "اطلع برّه!" هالات سود تحيط عينيه. أوشك أن ييأس من شفائها رغم تأكيد الأطباء: مسألة وقت. طال الوقت. هَجَرَ جناحهما الجديد منذ انتقال زوجته إلى المستشفى. صار المكان، من دونها، موحشا. انتقل للنوم في غرفته القديمة مقابل غرفة فوزية. أهاتفه ليلا، يجيبني عبدالكريم: "يا طول الليل من دونك، يا طول الليل.. يا طول الوقت من دونك، يا طوله حيل يُلحق الأغنية بصوته مُسجّلا: أنا غير موجود حاليا، الرجاء ترك رسالة. أدريه يسمعي: "فهد.. ارفع السماعة" لا يرفعها. أردفُ قبل أن أهني مكالمتي المسجلة: "أدري تسمعي.. أنظرك في الديوانية" لا أمكثُ أكثر من ربع الساعة حتى أسمع صوت ارتطام باب سيارته. يدخل الديوانية بوجه شاحب. أصبُّ له الشاي في الاستكانة. أناوله إياها. "قول يُمسك باستكانة الشاي يُقلِّبُ سُكَّرها. يقول: "أبوي قال،

ما دام ما بينكم عيال، طلقها!" يقول إن فضيلة تتهم عائشة: "سحرتُ بنتي" فلتت مني ضحكة. "الأمر جدّي"، قال منفعلًا. فضيلة مؤمنة تمامًا بما قالتها لها امرأة تدّعي كشف الغيب. التعويذة مدفونة تحت سِدرة أُمي حصّة. يتجدّد تأثيرها كلما مرّت بها أم حسن دخولا أو خروجًا من البيت. قال وهو يَمَلِّقُ في الأرض: "صار لي يومين أحفر تحت السدرة.. ما لقيت شي تدارك وهو يغتصب ابتسامه: "لقيت جوازك القديم!" من شأن مفاجأة العثور على جواز سفرٍ، دفنناه قبل أربعة عشر عامًا، أن تثير اهتمامي في ظرفٍ غير ظرفي ذاك. تراحمت الكلمات على لساني، ولكن أيا منها لم تلفظه شفتاي. كان يشعر بأن لعنة تطارده بسبب أهله، وكان أُمي زينب، برحيلها، تركته وزوجته بلا بركة. أشار إلى زاوية الديوانية ما إن فرغ من شرب شايه. ناولته العود. اكتفى يعزف، من دون غناء، لحنا مألوفًا. رحّت أبحاث عن كلماته بين أغنيات عبدالكريم: ما أصعبك.. كل يوم لك حال جديد، مرّة قريب مرّة بعيد!

نظر إلى عينيّ، ذات ظهيرة، يسأل إن كان قرار زواجهما صائبًا؟ هزرتُ كتفه: "فهد!" أشاح بنظره بعيدًا: "آنا تعبان" بين فقد ولد، وزوجة توشك أن تفقد عقلها ترفض الإنجاب، وتدخّل الأهل في شؤونه، لم يقو على شيء، بعد قوله: "ما تبيني"، عدا أن يحجب وجهه بكفيه. يهتزُّ جسده. يكتُمُ صوته. طلبتُ منه أن يأخذني إلى المستشفى. أدريه ينزعج. ولكن: "يصير أزور إختي؟" مسح وجهه بكفه يجيب محرّجا: "يصير

قاد سيارته صامتا. أو لم يكن صامتا تماما ما دامت الأغنية تدور في مشغل الأقراص في السيارة. بلغنا السادسة والعشرين تلك السنة، 2004، وهو لا يزال كما أعرفه طفلا ومراققا. أستعيد كلامه، صغيرا، عن مطربه الأثير: "يغني لي بروحي أنظر إليه في المقعد جانبي صامتا منصتا، أسألني بعد مرور كل تلك السنوات: هو وعبدالكريم، أيهما مخلص للآخر؟!"

"علينا وضعنا مكتوب، نعيش البعد بالمحجوب، مشينا والزمان دروب، وليالي الحزن تطوينا"

أمدُّ يدي أخفض صوت الأغنية. أسأله: "شلون فوزية؟" يبعد يدي عن المذياع. يعاود رفع الصوت:

"تعبنا واحنا نتأمل، نبي أحلامنا تكمل، وضاع إللي نبيه أوّل، وضاعت كل أمانينا"

ضغطتُ زرَّ مشغل الأقراص أحرصه. التفتُّ إليه: "ما ضاعت.. صدقني!" اغتصب ابتسامة.

كانت أول مرّة أزور فيها مستشفى الطب النفسي في منطقة الصباح الصحية. مكان خانق يشبه المستشفيات في الأفلام المصرية القديمة. بلاط عتيق مثل بلاط حوش أمي حصّة. جدرانٌ باهتة بيضاء مصفرّة. تفحصتُ الممرات ووجوه المرضى. لا شيء يشبه المكان الذي أعرفه صغيرا في مسلسلٍ صوّر لنا المستشفى، رغم بؤس حكاياته، مكانا يضحُّ بالحب، بالضحك والمقابل. سبقني فهد إلى



غرفة زوجته، قبل أن يأتي صوتها: "تفضل دفعْتُ الباب. يجلس صادق إلى جانب أيوب الذي يزور ابنة عمه، في حين يُرتبُ فهد حجابها يُخفي خصلاتِ بَدَتِ ظاهرة من شعرها. يهمس في أذنها: "حبيبي.. شوفي منو جاي يسلم عليك" نظرتُ إليّ في صمت. عيناها الكحيلتان استدعتا ذكريات طويلة في ثوان. عاودتُ النظر إلى النافذة. ترك صادق الغرفة يمسك هاتفه المحمول الذي شرع بالرنين: "هلا يُيه"، أجاب قبل أن يختفي وراء الباب. أخذتُ أستدرج حوراء للحديث. شلونك؟ لم تجب بغير الصمت ووجه ثابت صوب النافذة. ذراعاها طليقتان رغم قيدين معدنيين يحيطان رسغيها. تبدو في حال لا بأس بها. عاد صادق، يُمسكُ هاتفه المحمول، يخبر فهداً: "أبوي يسأل عن أبوك إذا كان هني والالاً" صار كلاهما يسأل عن مواعيد زيارة الآخر تحاشياً للقاءه. يزور واحدهما المستشفى بما يشبه جدولاً محدّد الساعات. قليلاً ما يزور صالح. وإذا فعل فإنه يفعل من أجل فهد وحسب. يتدخل أيوب بأن الإثنين في حاجة للعلاج هنا، حتى لو استدعى الأمر جلسات علاج بالكهرباء تُمحي ذاكرتهما المريضتين. ضحك صادق: "مثل محظوظة ومبروكة" ضحك فهد رغم حزن وجهه. لفتني تنهيدة نُمت عن حوراء. ارتسمت على وجهها نصف ابتسامة. شجعتُ أيوباً يحيكُ نكاته. نظر إليها يدعوها تخمن من رأى في ممر المستشفى قبل دخوله غرفتها. لم تبدِ تجاوبا. أردف: "الدكتور شرقان وأبو عقيل يركضون وتلحقهم فؤادة بمصيدة الفيران!" نصف الابتسامة، على وجهها، صار ابتسامة كاملة. الابتسامة الكاملة صارت ضحكة. الضحكة أعادت اللون إلى

وجه فهد الأصفر. اللون في وجه فهد بث في داخلي سلاما. السلام في داخلي حرّك شفّتي: "الحمد لله" لم يمضِ وقت طويل حتى جاء عبّاس. "شلونها؟"، سأل قبل أن يجلس إلى جانب ابنته. كانت قد أخذت دواءها قبل دخولنا بنصف ساعة. أمسك أبوها بجريدة كانت على الطاولة الصغيرة. ثبّت نظارته الطبية على طرف أنفه. هزّ رأسه عاقدا حاجبيه لخبر على الصفحة الأولى. كانت الأخبار تملأ الصحف عن مجازر تحدث في العراق، وتصفيات لطائفة ضدّ أخرى، بعد سقوط نظام كتم أنفاسها لعقود. وفي ردّ فعلٍ لما تتعرض له الطائفة هناك، حشد البعض، هنا، لتظاهرة تحمل شعار نصرة إخواننا في العراق، ضد طائفة معتدية توالي الجمهورية الإيرانية، في إشارة صريحة لاسمي الطائفتين. كان في مقدّمة المتظاهرين أعضاء برلمان يمثلون تيارا دينيا. "حمير!"، قال أبو صادق واصفا المتظاهرين، قبل أن يفرد الصحيفة أمامي يشيرُ إلى الصورة في صدر الصفحة: "هذا الحمار ولد خالك ويأهم!" تدخل صادق يلوم أباه: "يه!"، في حين إصبع أبيه لا تزال تشير إلى وجه ضاوي، في الصورة، بين الحشود الذين أصدرت الحكومة قرارا بفضّ جمعهم. التفت إلى فهد يسأله: "صويلح أبوك ويأهم؟" شرع يشتمُهم من دون تسمية. احمرّت أذنا صادق واكتفى فهد بصمته، في حين انفرجت شفّتا حوراء وهي تنظر إلى النافذة ساهمة: الفئران آتية!

\*\*\*

## يحدث الآن 9:53 PM

مولد كهرباء ضخمة وسط الحديقة الصغيرة. تماماً في موضع قفص الدجاجات القديم. يزعم هديرها ساكنات سيدة أمي حصّة. تبدو الشجرة في صحة جيدة. فارعة الطول كثيفة الأوراق. أُطبق كفيّ على كف الصغيرة أمضي بعرجي مسرعاً نحو الداخل. أتخاشى النظر إلى ما صار عليه الحوش. يبدو صغيراً ليس كالذي ملأناه ركضاً قبل سنوات. هنا لعبنا عنبر. هناك وقفتُ أمام كاميرا الفيديو القديمة أسجلُ رسالة إلى والدتي. وعند الباب الأسود هذا تشبّبنا بعباءة أمي حصّة نرجوها تأخذنا. هي لم تفعل، ولا استجاب الله إلى دعائها يوم ضحكت: "الله ياخذكم!" تستمهلي الصبيّة تشدُّ يدي. تنظر إلى الشجرة مذهولة كما لو أنها في متحف مهجور. هنا تسكن الجنّيات؟ أجيها بضيق صدر: "بعدين

أمشي بحذر في الممر القديم. يبدو الوضع طبيعياً في بيت لا أعرفه. السجاد الفارسي سماوي الزرقة صار رخاماً بارداً. اختفت الكنديشة من الجدار. تقوم بدورها فتحات التكييف المركزي في سقفٍ بلا نقوش، ولا تتدلى منه الثريات الكريستالية. حلّت مكانها إضاءة السبوت-لايت تنتشر مثل نجوم قرية. أنا لا أعرف هذا البيت لولا صور يغص بها جدارٌ مقابل. فهد الرضيع. الطفل. المراهق. المعرس. وصور أخرى لجميع من مرّوا من هنا.. أمي حصّة وتينا

وصالح وفوزية وهوراء وحسن الصغير .. الضباب السائل في عيني  
لا يتيح لي رؤية المزيد. هاتف حوراء على منضدة في منتصف غرفة  
الجلوس. ألقطه. أدسه في جيب دِشداشتي.

"ما في أحد في البيت عمي

تضغط كفي. أمضي أطرق أبواب الغرف. أفتح واحدا تلو  
الآخر غريب في بيت غريب. لا أحد هنا فيما يبدو. أرتقي درجات  
السلم أستعين بالدرازين على آلام ركبتي. غرفة فوزية أولا أطرق  
بأها. لا رد. أذفع الباب. أدخل بقدمي اليمنى. كأن مسأ كهربائيا  
يصيبني فور ما تطأ قدمي السجاد الوردي. كل شيء هنا كما تركته  
آخر مرة. الميداليات على الجدران. الصور القديمة للأمير وولي العهد  
وأعلام الكويت. الفستان الوردي المنفوش. أشرطة الفيديو وروايات  
إحسان عبدالقدوس مهترئة مُصفرّة الأوراق، وكرسي القراءة في  
مكاهما. أشيح ببصري إلى الزاوية ورائي. ينتصبُ تمثال أُمي حصّة  
بعاءها الكالحة قرب السرير. وجود الصغيرة يُلزمي أبقى كبيرا.  
تناولني حصّة منديلا من حقيبتها. انتبهُ إلى دموع لم أشعر  
بأنها غزيرة على وجهي.

"عمي .. إنت تبكي؟"

أهز رأسِي. أعزو سبب دموعي إلى الرائحة في طور حموضة  
تحرق العين. تستل نفسا عميقا. تنفخ صدرها. تلتفت في الجوار:

- "لكن .. ما في ريحة هني!"

تتقدّم نحو الفستان الوردي المعلق إلى الجدار. ترفع رأسها  
تنظر إليه. تقول بأنه يشبه فستان الفتاة في رسم الصفحة الأولى  
من قصص سلسلة ابن الزرور. أومئ برأسي من دون أن أقول  
إنها لو رأت صاحبة الفستان صغيرةً لأدركت أنها الفتاة إياها. يرَن  
هاتف حوراء في جيب دِشداشيتي يومض برسالة. لا أتردّد أقرؤها  
تحمل رقم صادق: "إذا رجع فهد.. أنا أرجع" أرمي بثقلي على  
سرير فوزية ورائي. أهاتفه على الفور. مرة. ثلاث. عشر. الجهاز  
مغلق. نصف المهم يسقط عن كتفي. نصفه يتقل كتفي الثانية. أعبث  
بالهاتف أبحث عن رسائل أخرى. لا شيء عدا رسالة قبل أيام ثلاثة  
من عبدالكريم.. أعني من فهد، يرُدُّ على رسالة لحوراء تدعوه فيها  
ليفكر في أمر الطلاق. كتب في رده: "بوَدّعك يا ليل العذاب..  
بوَدّعك، وأرحل على متن السحاب.. وبتشوفني مثل الضباب.. مثل  
الوهم.. مثل السراب" تخرج العبارة من بين شفتي لقاء صورٍ يضحُّ  
بها رأسي:

"قال الله ولا فالك"

تسألني حصّة:

"عمي.. فيك شي؟"

"لا"

تنطفئ الكهرباء فجأة. تنتفض حصّة تلتصق بي. ترتعش مثل  
حمامة مبتلة: "ما أحب الظلمة!" أطمئنّها. لا شك في أن مولد

الكهرباء قد خلا من الوقود. ننتبه إلى صوت في غرفة الجلوس في الأسفل. تعصر ذراعي تشدّها إليها:

"في أحد تحت!"

أمدُّ سبّابتي أمام شفّتي: "هشششش — أحمّلُ ثلاثاً من ميداليات الجدار مستعينا بضوء الهاتف. ألفُ شرائط الميداليات حول قبضتي أُبّنتُ المعدن إلى ظهر كفيّ. تتبعني حصّة. تمّذي. تستعيد صوراً لاقتحام بيتها. يرتفع صوتها. المثلّمون. عمي عمي.. المثلّمون. جاؤوا إلى هنا. أمسك بكتفيها أهرّؤها: "لا تخافين!" خوفها يواجهني. بما يعتمل في داخلي، وهو ما لا أحتمله في لحظتي هذه. أسحب خطواتي أقترّب إلى السلم. أحدهم يقول: "باب الحوش مفتوح!" أطل برأسي على غرفة الجلوس في الأسفل. رجلٌ عجوز بلحية طويلة يحمل مصباحاً يدويًا، وامرأة منقّبة و

\*\*\*



## الفصل الحادي عشر

مطلع 2005، كنا في ما يشبه عنق زجاجة، امتدَّ بقاؤنا في قاعها طويلاً، لا ندري إلّا تفضي فوّهتها. كان كل شيء غريباً من حولي. ألحظه، منذ سنتين، ولا ينتبه إليه الآخرون، أو ربما يفعلون ولكن! أسرُحُ، وقوفاً عند إشارات المرور، مع أغنيات عراقية ترتفع من السيارات حولي، بعد صمت دام ثلاث عشرة سنة منذ عام تسعين. كان أول شيء خرج من العراق، بسقوط نظامه، هو أغنياته، الرديئة منها والأصيلة. لا أدري هل صمت الناس عن غنائهم سنوات الحصار، أم أن أغنياتهم لم تكن لتعبّر حدودنا الشمالية. أستدعي أمي زينب من الذاكرة. لو كُتبت لها حياة، أعود بيبي زينب. يرتفعُ صوت ناظم الغزالي في حوش بيتها. لا تضطر إلى خفض صوتها مداراةً للهجة تُهمّة. ترقص في زفاف صادق على أغنية عراقية، ثم تموت باسم عريق لعائلة عراقية شهيرة؟ تتعد الأغنيات في الشارع. تصير نفير سيارات ورائي، ينهني إلى الإشارة الخضراء.

كان الجوّ ملوثاً. تنشقّ الهواء الفاسد دوغماً انتباه. صار لهواتفنا المحمولة دورٌ جديد. ابتدعناه بأنفسنا. يكفي واحداً فتح البلوتوث في



هاتفه ليعي إلى أي حدُّ نحن نعيش في مكان موبوء. صورٌ ولقطات فيديو، يتبادلها الناس، لرجال دين وخطب دينية وفتاوى ومعجزات مفتعلة. اضحك مع المعممين. مناظرة بين الشيخ والسيد. مباحلة فلان وفلان. شاهد جهل النواصب. مؤامرات الروافض. كنا نتشقق كراهيتنا كما الهواء، لا مفر منها. صار كلُّ شيء بين الـ هُم والـ نحن صراحة. حتى إذا ما تصفحت اليوتيوب بحثاً عن أغنية أو مشهد من مسرحية كوميدية، لا بد وأن تأخذك التعليقات أسفل اللقطة إلى مكان بعيد. تصنيف المطرب أو الممثل. رافضي ناصبي. القبي الذي انتشر في الإنترنت تسلل إلى القنوات التلفزيونية. قنوات متخصصة. مناظرات يتابعها ألوف. بين السيد والشيخ، من يُفجّم من. وأنا، في كل مرة، أغلق التلفزيون، أطبق شاشة الكمبيوتر المحمول، أو الهاتف، لاعنا عبّاساً وصالحاً وكأنهما يقفان وراء كل ذلك. لا أدري أن في كل بيت صورة عن أحدهما. أتخيل الغد، ولا غد يجمعنا في أرض مضطربة، مثل حوش أمي حصّة، يجمعنا تارة، يفرقنا أخرى.

صرتُ اكتب القصص في جريدة الراي، بدعمٍ من أبواب الذي التحق بالعمل فيها. أفسح لي زاوية أسبوعية أنشر فيها قصصي، أمرُّ خلالها ما أريد قوله رمزا، وكأنني أغسلُ كفي من ذنب جمعي نمارسه. في كل مرة أكتب فيها تكون فوزية هي قارئتي الضمنية، أستمدُّ منها محبة، تُشبه عينيها، للأرض والناس. كانت قصصي تدور في شارعنا القديم. قصص كتبت نفسها بلا تصرُّفٍ من خيالي إلا في ما يخص الأسماء. اتخذتُ أسماء بديلة لنا وللشجرة. قصص أصدقاء ثلاثة، صاروا خمسة؛ تركي، مهدي، مشعل، جابر وعبدالله!

لم تكن والدي راضية عما أكتب لولا أن زاويتي صارت مقروءة. تشيد صديقاتها بكتاباتي. والدي لا شأن له بي، عدا تكراره سؤالاً عن جدوى الكتابة. لم يكن متحمساً لما أكتب ما دامت الكتابة لا تدرُ دخلاً. كانت قد تضحّمت ثروته أكثر من أي وقت مضى، ينوي بناء بيت جديد. يأخذني بعيداً عن بيت أوشك يصيرُ بيّتي، بعد ثماني سنوات، ساهمت الديوانية، رغم كلِّ شيء، في جعله مكاناً محبباً. أفنّعته والدي بأن يكون بيتاً في الخارج، لأن البيت في الخارج "ذخراً" إذا ما حدث وأن! فقدت والدي اطمئنانها زمن تفجيرات العام خمسة وثمانين، وفي التسعين فقدت ثقتها تماماً. ونزولا عند رغبتها واقتناعاً، كان البيتُ في لندن. في تلك الأثناء، حقّق والدي ثروة طائلة، ضاعفت أرصدته في البنوك، مستفيداً من الوجود الأميركي في العراق. امتلك أسطول شاحنات يراوح بين ذهاب وإياب في طريق شمالية أغلقت حدودها سنوات. يورد طعاماً ومعدات طبية وفق عقودٍ أبرمها مع الجيش الأميركي. كنا في ذلك الوقت، معظمه، في الديوانية، نلعبُ ورقاً وصل إلى الكويت، من العراق، بكميات محدودة وثمان باهظ، اشتراه صادق من أحدهم. أوراق اشتهرت بعد سقوط النظام العراقي. تحمل كل ورقة صورة من صور المطلوبين في النظام. كان ابن خالي قد قاطع الديوانية بسبب والدي: "أبوك يشتغل معاهم!" لامني على صمّتي. صرخ في وجهي عندما أخبرته بأن والدي لا يعنيني: أموال أبيك ملطحة بالدم. اختفى. بقي الدم ماثلاً في طعامي وشرابي وكل شيء في البيت؛ بلاطه وسقفه وجدرانه. وحين سألتُ والدي، قال إنني لا أفهم. لا

أفهم ماذا، استفهمته. أجب: "من صاها عشي عياله" صاها والدي.. ..

وردتني أخبار ضاوي، لاحقاً، من أمي. صار معظم وقته في ضيافة جهاز أمن الدولة، لزوم تحقيقات لا تنتهي حول حادثة اشتباك، في منطقة أم الهيمان، بين قوات الأمن وجماعة مسلحة تتبع تنظيم القاعدة، اتخذ لها الشارع مسميات عدة بين مجاهدين وإرهابيين. كانت الكويت في حال استنفار أمني مقيت. ولأن لضاوي ملف في وزارة الداخلية، كانت أصابع الاتهام تطاله في كل جريمة أمن دولة. طالتنا التحقيقات بسبب ارتباط ضاوي بديوانيتنا التي حامت حولها شبهات. أجفلت أمام أسئلة المحقق حيال سبب تجمُّعنا في الديوانية، وعلاقتنا بمن لا نعرف، والأماكن التي يتردد عليها ضاوي. "سجاير وعود وبلاستيشن وورق لعب!"، هذه هي ديوانيتنا، قلت للضابط قبل أن يخلي سبيلي. قال إن قصصي التي أنشرها في الجريدة لا توحى بأن لي توجهها، مثل ابن خالي، عدوانيا. ما كنت أدري أنهم، في أمن الدولة، يقرأون القصص! ضاوي الذي أحضر السُرَّة في الروضة، والذي كان صاحب فكرة تجمُّعنا في الديوانية، صار سببا في إقفالها وتشظي روادها. قاطعها صادق وأيوب في البدء، إثر نقاشات حول اقتتال الطائفتين في العراق: "يلعن أبو إلهي دحل ضاوي الديوانية!"، قال ديوانياتنا التي جمعنا حول البلاستيشن وورق اللعب، صارت تجمُّعنا في أحاديث يرويها كل على طريقته؛ خلاف تاريخي بين وبين.. لولا موقف فلان لما كان.. سقوط الخلافة العباسية في بغداد بسبب. وإذا ما تدخلت أنهي

الحديث صرتُ رجعياً أصادر حريتهم في التعبير وصارت ديوانيتي مكاناً خانقاً. توسلت إليّ أمي ابتعاداً عن المشاكل: "بلا ديوانية بلا عوار راس!"، تقول إن أصحابي مثل خيشة الفحم، لا بدّ وأن تترك أثراً على دِشداشة حاملها. أردتُ إحراجها أذكرها بأن أحد أصدقائي هو ابن شقيقها. لم تكترث: "كلهم!"

بقي فهد، وحده، يتردّد بين حين وآخر كلما جرّه حنينٌ إلى عودِه الممنوع في بيته. كانت حوراء قد تجاوزت محنتها تماماً إلا من رغبتها في الإنجاب. كلما حاول فهد اقناعها ترجوه أن ينسى الأمر. استقرّت أسابيع في بيت الرميثة لدى والديها، تحصّنها فضيلة بآيات فك السحر تغسلها بماء السدر، قبل عودتها إلى بيت صالح. لم يكفّ صاحب البيت يضغط على ولده: "طلّقها" تفتّت ديوانيتنا إلى مقاهٍ عدة. نجتمع فيها بين حين وآخر، اجتماعات مشروطة من جانب صادق وأيوب؛ على ألا يكون ضاوي موجوداً. وإذا ما جاء ضاوي صارت اجتماعاتنا حكرًا علينا، هو وفهد وأنا. خصّصّ أيوب شقةً كانت للهو، بديل ديوانية الروضة، في بناية يملكها أبوه في الجابرية. تجمّعنا، بعيداً عن ضاوي، فهد وصادق وأيوب وأنا.. أنا الذي أكره لعبة شدّ الحبل. صرتُ الحبل.

\*\*\*

## يحدث الآن 10:05 PM

ألقي بالميداليات عند قدمي. بين غرفة فوزية والسلم. أراقب الداخلين في الأسفل يحملون مصابيح يدوية. الصبيّة تحضني من الخلف. خطوط الضوء، تمتد من المصابيح، تتداخل وتبتعد في الظلام. حوراء تبحث عن هاتفها المحمول فوق المنضدة وسط غرفة الجلوس: كان هنا.. أنا متأكدة! ولداها يمسكان بيديّ امرأة. أهي فوزية؟ من سواها يرفع رأسه إلى السقف أبدا كمن يحصي نجوما تَلدُ أخرى؟ المرأة المنقّبة والعجوز اللتحي يلزمانني تردّدا قبل نزولي. منذ أحالوا النقب واللحية إلى مصدر رعب ونحن نحسبُ الخطوة بيننا وبين أصحابها. تقف المرأة إلى حوار الرجل العجوز. يمسك الأخير هاتفه يعث بأزراره. يُطمئن حوراء بأنها سوف تعثر على هاتفها. حوراء تبدي قلقا إزاء السيارة المهشّمة عند الباب. يرّ الهاتف في جيب دِشداشتي. ينظر الجميع، باستثناء فوزية، إلى أعلى السلم. أهبط تتبعني الصبيّة. خطوط الضوء تلتقي عند وجهي. الهاتف في يدي يومض باسم أبي سامي. أصافح الرجل الذي لا يشبه رجلا أرعبي بكلمه السلوقي طيلة سنوات طفولتي. لا يتعرّف إليّ لولا أن حيّني حوراء. ولا أتعرفُ إليه لولا اسمه في هاتف حوراء في كفيّ. يركض الولدان نحوي يعانقاني: "عمي.. عمي!" يسألان:

"وين راح أبوي؟"

أجلس على ركبتيّ أبادلها عناقا. أنظر في عينيّ أمّهما تحمّلان  
سؤالا سكنت عنه: "ووين راح أخوي؟" تشعل المنقبة شموعا فوق  
المنضدة منتصف غرفة الجلوس. تلتفت إليّ تهزُّ رأسها بما يشبه تحية.  
تشير حوراء نحوها تُعرِّف:

"أم سامي.. فلورنس"

أبادلها التحية. فوزية، في ضجّة الأسئلة، تنظر إلى السقف  
صامتة. تبدو أخرى. مكتنزة بلا عافية. منطفئة بشعر أشيب وبشرة  
أقرب إلى الرمادي من سُمره قديمة. ينتشر البهاق في جبينها ووجنتيها  
يرسم ما يشبه قارات عالم مجهول. تُضيق عينيها الخاليتين من النور.  
تستحيل أذنا كبيرة نصتُ إلى صوتي. تتخذ شفتها شكل ابتسامه  
يعجزني فكُّ رمزها. أتقدّم صوبها مادّا كفيّ:

"فوزية شلونك؟"

تتسع ابتسامتها. تهزُّ رأسها وروح الطفلة تغمر وجهها شاخ قبل  
أوانه:

"زينة"

حتى صوبها لا يشبه صوبها. تُنبّها حوراء إلى كفيّ الممدودة:

- "مدّي إيدك فوزية"

تردد. تمدُّ ذراعيها أمامها تحركُ أصابعها في الهواء. بياض عينيها  
يختفي وراء حُمْرة لامعة. أتردد. أقربُ وجهي بين كفيها المكتنزتين.  
تُمسكُ أذني. وجنتي. تُمررُ إصبعًا مرتعشةً بين أنفي وشفتي. دموعها  
تنثالُ على وجنتيها:

"كتكوت.. هذا انت؟"

أومئ برأسي بين كفيها. تديرُ وجهها. تميلُ رأسها تقربُ أذنا  
صوبي تتحرّى إجابة. أتدارك: "هذا أنا" ولا أقول لها إن  
الكتكوت صار ديكًا منتوف الريش لا يجيدُ شيئًا عدا الصياح:  
الفئران آتية. والفئران لا تخشى ديوكا لا تجيدُ إلا الصياح بين بيض  
مكسور. "تفضلوا"، تدعونا حوراء إلى الجلوس وهي تفرقع أصابعها.  
يستأذن أبو سامي وزوجته. يقول إنه لن يشغلَّ المولد الكهربي لئلا  
يلفت الانتباه. ينصرف. تشرع حوراء تخبرني عن اتصال وردها قبل  
أكثر من ساعتين: نصحني مجهولٌ بأخذ الحيطه بعد حرق المقر. الدور  
على البقية. نية محتملة لاقتحام بيوت أولاد فؤادة وتصفيتهم. لم يمر  
وقت طويل على المكالمه. طرق أحدهم الباب. عجزتُ عن التصرف.  
أرسلتُ إلى أيوب أخيره. خرجتُ بالولدين وفوزية من باب الكراج  
الخلفي إلى بيت أبي سامي. كنت مرتبكة حتى أني نسيتُ هاتفي  
هنا.

يرقُ صوتها. تسألني عن فهد وصادق بوجه ملؤه الأمل: لم يكن  
أحدهما في المقر أثناء حرقه.. أليس كذلك؟ أجيبها بصوت يشبه  
صوتي: وحده ضاوي. تكمّمُ فمها بكفيها: "ضاوي؟!". أهزُّ رأسي

صاغرا: "ضاوي" تتفرّس وجهي. تسألني عن حاله. أعجز عن القول. يصفّر وجهها. تبكيه. أو ربما تبكي. أتذكّر رسالة صادق في هاتفها. أفز على فجيعتي. أخبرها بأمر الرسالة. تقرأها. اطمئنانها على شقيقها يضاعف قلقها على زوجها. "وفهد؟"، تسألني. أتذكّر رسالته الأخيرة لها: "بودّعك يا ليل العذاب.. بودّعك، وارحل على متن السحاب" أجيب: "خير.. إنشالله خير ضربات قوية على الباب لا تنبئ بخير. تشهق حوراء تضم ولديها. تلتصق بي حصة. تؤكد أنهم المثلثون. هكذا ضربوا باب البيت قبل اختطاف أبيها. سوف يقتحمون المكان. لن يمكننا في الخارج طويلا. بكاؤها المكتوم يصير أنينا حاداً. سائلٌ دافئ أسفل فحذي تشربه الأريكة. أتقدّم نحو المنضدة أطفئ الشموع. أحمل الصبّية بين ذراعي. أدعو الجميع إلى الاختباء في الأعلى. تسبقنا فوزية نحو السلم. تتبعها، هي المبصرة الوحيدة في عمتنا.

\*\*\*





## الفصل الثاني عشر

كنت أظننا انسلخنا عن محيطنا، منذ صرنا المحيط. منذ أزلنا الصور عن الجدران. منذ قطعنا كل خيط يربطنا بالماضي. إلا أن حرب تموز 2006، بين قوَّات حزب الله في لبنان والجيش الإسرائيلي، أظهرت وجهها آخر، للكويت، كان غائبا سنوات طويلة. شيء شبيهه جرى قبل ست سنوات وقت انسحب القوات الإسرائيلية من الجنوب اللبناني. سرعان ما انتشرت صور أعلام الحزب الصفراء، تُلصق على زجاج السيارات، تفاعلا مع بيانات أمين عام الحزب الذي صار صورته تحتل أركانا في بعض الديوانيات. حتى أيوب الذي لا همَّ ديني يؤرقه أو موقف سياسي يشغله، رفع العلم الأصفر في شقة الجابرية لأيام. لم يقتصر الأمر على طائفة بعينها. لم يكن نصرا خاصا بـ هُم. احتسبت كلتا الطائفتين نهاية الحرب انتصارا يسع الجميع. إلا قِلَّة، من بينها ضاوي الذي كان متحفظا يذكرنا بتورط الحزب باختطاف الطائرة الكويتية في أواخر الثمانينيات، ووالدي الذي لم ير في الأمر إلا خرابا للبنان وضرب السياحة فيه. كل على لبلاه يعني. كأني بأمي حصَّة لو بقيت على

قيد حياتها، تضمُّ اسم أمين عام الحزب إلى أسماء "الرجال" في قائمتها.. زوجها، والزعيم جمال عبدالناصر، والشيخ فهد الأحمد.. كنت أرصد ما يجري حولي لا رأي لي. يناكفني صادق: "ولد أمك" هو يدري أن لا رأي لوالدي في شيء. لأن كل شيء يدعو إلى الخوف. ولأن: من خاف سلم! ربما هو محق. ظنَّ بأنني سوف أنتفض: "آنا ولد أبوي!" ولكنني لم. ليس جبا بوالدي، لكن.

رن هاتفي المحمول في وقت متأخر من الليل، منتصف 2007، يومض باسم فهد. كنت أحاربُ نعاسي أُحررُ قصَّة قبل إرسالها إلى الجريدة. اتصاله يحملُ مصيبة، قلتُ لنفسِي. "آنا من الظَّهر في المستشفى"، قال لي. أحبته، بين نوم وصحو، دونما سؤال عن سبب: "أغبر ثيابي وأجيك" لم أدرِ حتى في أي مستشفى كان. نزعْتُ البيجاما أرتدي دِشداشتي. ركبتُ السيارة. ما كدتُ أشعل سيجارةً حتى وردتني رسالته النصيَّة: "مستشفى حسين مكِّي جمعة" سحقتُ سيجارتي في منفضة السيارة قبل أن أشعلها. ارتعش هاتفي المحمول بين يدي أعاود قراءة الرسالة. حسين.. مكِّي.. جمعة. المستشفى الذي يتشام الناس من لفظ اسمه. يشيرون له رمزا مثلما يشيرون إلى المرض الذي يفتكُ بالناس في أجنحته، خشية أن يسمع المرض اسمه على ألسنتهم، يحسبهم ينادونه، يستجيب. يستعيضون باسم آخر غير اسم مشؤوم؛ المرض الخبيث.. الشين.. المرض الذي عافانا الله، أو اسمٌ أكثر لظفا وفق اللغة الإنكليزية: كانسر طمأننا الطبيب بأن الورم يُصيب النساء بعد الخمسين في الغالب. حوراء لم تتم ثلاثينها بعد. "الله كريم"، قال طبيها. هلعٌ على وجه فهد كأنه حامل المرض.

اطمئنان على وجه حوراء كأن الجزء المصاب في جسدها لا يخصها. فضيلة لا تنفك تقرأ آيات فك السحر على ابنتها. مرّت أيام بطيئة لحين ظهور نتيجة الفحص. كنا نُمَنّي أنفسنا بأن الورم الذي استوطن ثديها الأيمن لا يعدو كونه ورما حميدا. ولكنه لم يكن. "أختي مجنونة!"، قال صادق، بعد أيام، في أحد ممرات مستشفى حسين مكّي جمعة. كان طبييها لطيفا. مهّد لها. لم يكن اكتشاف الورم الخبيث متأخرا جدا، ولم يكن مبكرا في الوقت ذاته. شرح لها وسائل علاج متاحة، آخرها أسوأها، لا سمح الله؛ بتر الثدي. يقول صادق إن شقيقته قفزت على علاجاتٍ محتملة إلى علاج أخير. سألت طبييها عن احتمال البتر. أجابها الطبيب آسفا: "احتمال وارد" لم تمهله يثها تفاقولا قاطعته قبل أن يستطرد. تضمّ كفيها أسفل ذقنها. تهمز رأسها تبتم بفرح لا يشبه إجابته: "مشكور.. مشكور دكتور

ليت استئصال الأورام، كلها، يتم بالسهولة التي استئصل فيها ورم حوراء بتر ثديها بعد ثمانية شهور من اكتشاف المرض. وبين رغبة صالح بانفصال الزوجين، وإيمان فضيلة المطلق بسحر دبرته عائشة، دفنته في مكان ما، كان فهد في المنتصف. لم يغير شفاء حوراء الكثير. بعض الأورام لا يكف نموًا إلا بموت الجسد، يقول فهد. ليتهم يموتون جميعًا، ندفن واحدهم، نكايه، في مقبرة الآخر، ونعيش نحن. لمته وأنا أتفهم ضغوظا يواجهها. أجابني: "يا أحيي نبي نعيش!" غيرت الموضوع أسأله عن زوجته. حوراء سعيدة، قال. وقت تحسّست صدرها بعد العملية الجراحية أخترتها، بصوت منهك، بأنها مستعدة، الآن، للإلجاب. ولكن الأمر لم يكن يسيرا

وقتذاك. ليس قبل خمس سنوات، أو ثلاث على أقل تقدير، كما أخبرها طبيبها. "خمس سنوات من دون إنجاب وامرأة ناقصة عقل ودين و.. ثدي!"، قال صالح لفهد، يحضه: "طلقها!"

جلستُ وفهد، وحدنا، بعد أيام في الديوانية وقتَ هاتفه أبوه يسأل: "عبّاسو ويّاهم؟! " ما كنت أعرف شيئاً لولا أخبرني فهد عن إقامة مجلس تأييني، في جامع الإمام الحسين، لأحد عناصر حزب الله. كانت الصحف قد أشارت إلى اسمه قبل عشرين عاماً ضمن المتورطين في قضية اختطاف طائرة الجابرية. كان، وفق ما يراه الطرفان، نفقاً أو استشهد، في سوريا قبل أيام. سألته بعدما أنهى مكالمته أبيه من دون أن يجيبه، إن كان عبّاس هناك بالفعل. أطلق زفرة يقول: "عمي عبّاس وصادق" أسندتُ جبيني إلى كفّي ألعن مسرحية تافهة. جميعنا أبطالها. يديرها مخرج فاشل أو ربما ذكي إلى حدّ نجعله. احتقاننا الطائفي وصل حدّاً لا رجعة بعده. في الوقت الذي كان فيه المؤبّن في اللامكان، انشطرننا نصفين، نشغل بمصيره: في الجنّة، لا، في النار. ولم يكن في النار عدانا، وقتَ صار، ما أمضينا حياتنا نخفيه في نفوسنا، يتمثّل في مقالات على صفحات الجرائد صراحة، أو سجلات علنية في البرلمان، ينصرفُ إليها الناس، في الوقت الذي كنت فيه سادجا لا أزال أكتب قصصاً رمزية في حذر!

هاتفني أيوب، بعد التأين بأيام، من مكتبه في جريدة الراي، يخبرني عن عزم بعض الحركات السياسية على إقامة ندوة وحدة وطنية، وفقاً لتسمية صارت دارجة، تضم شخصيات سياسية ودينية بارزة من الطائفتين. "ضروري تتلاقى هناك". أيوب البارد في طبعه

كان جادًا كما لم أعرفه من قبل، وهذا أمرٌ يرضيني، يرضيني جدا، أنا الذي يأكلني القلق إزاء مصيرٍ مُحتمل، لا أحتمل أن أكون وحدي. كنا في حاجة مُلِحَّة إلى من يشير إلى الجرح صراحة، وإن استدعى الأمر فتقه وهدر دمه الفاسد. استبشرتُ خيرا بالندوة لعلها تفعل شيئا، أو على أقل الأمل تقول. هائفُ أيوب كُلاً من فهد وصادق وضاوي: "الساعة سبع ونص، يوم الثلاثاء" هاتفي ضاوي يستغرب اتصال أيوب واهتمامه: "إقامة الندوة حقٌ يراد به باطل!" توسلت إليه بأن يؤجل حُكمه وحِكمَه إلى ما بعد مساء الثلاثاء.

في صف المقاعد الأخير، جلسنا أربعتنا، في حين حَمَلْ خامسنا كاميرته وآلة التسجيل يُحضِر لتغطية أحداث الندوة. غص المكان المفتوح بالحضور. هبَّ المنظمون الشباب يتحققون من سلامة الإضاءة والصوت. كانت مسرحية مجانية ساخرة. هزأ بنا، نحن الحضور، بشكل فجٍّ. اصطفَّ ضيوف الندوة. وزراء سابقون ورجال دين وأعضاء برلمان، وراء المنصة كلٌّ ينتظر دوره خلف مايكروفونه. يبدأ أحدهم خطبته بالصلاة على النبي محمد وعلى آله وصحبه. يبدأ آخر بالصلاة نفسها، ولكن، وقوفا عند آله من دون صحبه. يتفاعل نصف الجمهور مع هذا، ونصفه الآخر مع ذلك. تحدثوا كثيرا وأنا أتململ في جلستي. كنت أستمُدُّ صبري من الأمل في وجه أيوب وهو يغير زوايا التصوير يحضِر لخبر نظيف ينشره في غدٍ متَّسخ. لا أدري ما الذي سوف يكتبه في تغطيته للخبر. كنت ألتفت إلى فهد وصادق وضاوي في استغراب إزاء استخفاف رجال المنصة، وقت صفق الجمهور بحرارة، وارتفعت الهتافات:

## وحدة وحدة وطنية!

كنتم صادق ضحكه إزاء شعاراتٍ مجانية. نظر إليّ يتظاهر بأنه  
يُمسكُ قلما يرسمُ على باطن كفه دائرة صغيرة. ضغظها بسبّابته  
مرارا. هزرتُ رأسي: "يا ليت!" وقف أحد الضيوف، المعروفين  
بفسادهم المالي، يُخطب. تظهر صورته وراءه على شاشة كبيرة. يجرُّ  
ذراعيه بروح مسرحية وأداء تعبيرى مبالغ. يصرخ والزبد يتجمّع في  
شدقيه:

رغم العاصفة.. تجمعنا عاطفة.. ولا تفرّقنا طائفة.. و..

انفلت لساني عند أذن فهد:

"شوف ابن الكلب إيش قاعد يقول؟"

استغرب فهد الشتيمة على لساني. أنا نفسي استغربتها. ضَعَطَ  
على ركبتي:

"عادي عادي.. نشوف إللي بعده"

انتقل المايكروفون من يدٍ إلى أخرى. الأصوات تختلف والكلام  
واحد. اتفقت العمامة واللحية والبشت، السياسة والدين، ليلتنا تلك،  
على الكلام ذاته: "الأمر طيبة ونحن بخير ختم عضو في البرلمان بأن  
ما يجمع الطائفتين أكبر، وأن لا صحة لما يشيعه المتربصون بأمن  
الوطن حول صدع بين الطائفتين، وكلام صور لنا بلادنا حنة، وأن  
كل ما يجري لا يعدو كونه كذبا وافتراء وخيالا في نفوس مريضة.

وكما ينبغي، كان لا بد أن يستشهد بحديث النبي حول الفتنة ولعنة الله على من يوقظها. أُصِبتُ بحية كبيرة. أنا الذي أَقْفَلْتُ ديوانيتي وأوشكتُ على خسارة أصحابي جرّاء سُمِّ تجرعوه في بيوتهم صغاراً. أنا الذي عانقتُ خرسى منذ رفعت والدي كَفَّها تُهدِّد بأن تصفعي على شفتي إن أنا تفوَّهتُ بكلمة. تذكرتُ مشاجرتي الأولى في المدرسة. كأنها حدثت للتو. الدماء على قميص صادق. الدُّل في وجه فهد، بيكي، بين صبيين يمنعانه عن نجدة صاحبه. إغماءتي على الرصيف البارد وسقوط سيني. ارتعشتُ. جفَّ ريقِي. صرتُ أنصتُ إلى قرع طبول في صدري، كأن أحدهم هز سِدرَةَ أُمِّي حِصَّةً في داخلي مطلقاً جنياًها. وقفتُ أرفع ذراعي ما إن بدأت مداخلات الجمهور. لم ألتفت إلى صادق وفهد ورجائهما لي بأن نرحل. يُسَخِّف صادق انفعالي: "تحب الدراما" انتبه فهد إلى حالي. سألني:

"ليش معصب؟"

كانت المداخلات كلها للحضور، من الشخصيات المهمّة، في مقاعد الصّفّ الأول، بما يشبه اتفاقاً مسبقاً. رفعتُ صوتي أمدُّ ذراعي عالياً:

"مايكروفون مايكروفون!"

لا أدري ما الذي بدر مني لينهض ضاوي من كرسيه مرتبكاً يربتُ على كتفي. نفحتني رائحة دهن العود في كفه:



"إذكر الله!"

أجبتة: "هذي مسخرة!" أتذكر كلمات سقط معظمها من ذاكرتي. كنت أردّد: "احنا مو بهائم يضحكون علينا هذول!"

أحدنا كان في عالم آخر، ضاوي أو أنا. كان يُسيطر الأمر ولم أكن أراه بسيطاً. يدفعني إلى الصراخ كل ما خنفته داخلي، منذ طفولتي، إزاء كراهية لم تزدها الأيام إلا نمواً. أدار الحضور رؤوسهم ينظرون نحونا. بدا الحرج على وجه ابن خالي، في حين لازم فهد وصادق مقعديهما كأههما لا يعرفاننا. أمسك ضاوي بذراعي يعصرها. همس:

"هذي هذي.. يجيب الله مطر"

لم أقصد أن أعيره بعلّة في لسانه. ولكنني فعلت. أجبتة أصرخ في فورة غضبي:

"ما أبي مطو.. أبي المايكووفون!"

أقلت ضاوي قبضته عن ذراعي. جلس إلى جانب صادق وفهد. سؤال واحد بصقته في وجوه أراجوزات المنصة. ما دامت الفتنة نائمة. وما دام ذلك الشيء المبحلق المتربص بنا شيئاً آخر غيرها. وما دُمتنا ملائكة إلى هذا الحدّ، وما دامت بلادنا جنّة، وأمورنا طيبة ولا خوفٌ علينا في ظل حكومتنا الرشيدة: ما الذي يدعوكم إلى إقامة مثل هذه الندوة؟!

سحبتُ غترة أحد المنظمين بعدما سحبَ المايكروفون من يدي  
غصبا قبل إتمامي. مثل أولاد المدارس. قابلني بصدرة. قابلته بصدري.  
دفعني دفعته. شتمَ أُمي شتمتُ أسلافه. ضربني ضربته. لا أتذكر عدا  
أصوات تشتمنا. عُتِرُ على الأرض، أنعل تتطاير. فهد يضرب بعقاله.  
صادق يدوس بطن أحدهم. أيوب يُنزل حامل الكاميرا على ظهر  
شاب يمسك بخناق ضاوي. البعض يردّد: "اذكروا الله يا جماعة!"  
ذكرنا الله في مخفر الشرطة وقتَ إمضائنا على تعهدٍ بعدم تكرار  
الفعل. وكانت ليلة وحدة وطنية بامتياز! من دوها، ما كان لديوانية  
الروضة أن تفتح بابها من جديد. تجمّعنا، نحن الخمسة، من دون  
تحفظ. تحلّقنا في اليوم التالي حول الجرائد نقرأ عناوينها: مندسُون  
يفسدون ندوة الوحدة الوطنية! فهقه أيوب لقاء الوصف. رفع قبضته  
عاليا يُفخّم صوته: "فلتحيا جماعة المندسين!" رفعَ فهد قبضته،  
وصادق وضاوي بالمثل يضحكون: "عاشت عاشت" التفتت إليَّ  
أيوب يسأل: بماذا تفكر؟

\*\*\*

## يحدث الآن 10:28 PM

لا أفكر في شيء عدا كوني في صحبة امرأتين وثلاثة أطفال إزاء خطر قريب محتمل. نقطع درجات السلم صعودا في طابور أوله فوزية وآخره أنا. أحمل حصّة بين ذراعي بثوبها الرطب. يرتفع هدير مولّد الكهرباء في الحوش فجأة. إضاءة السبوت-لايت تصحو من نومها. يتكشف لنا الخوف عارياً في وجوهنا. حصّة بين ذراعي في شبه إغماءة. أهدنا يخاف العتمة، والآخر، في وضع احتباء، يخاف النور. يرن هاتف حوراء. المتصل أبو سامي. يقول إن سيارة سوداء تقف عند باب بيت آل بن يعقوب. ترجل أحد ركاها. تسلق سور البيت. قفز إلى الداخل. تخور قوى حوراء. تجلس على السلم. تحضن ولديها: "راح نموت!" أرجوها أن تُسرع إلى الأعلى. رجلاها لا تساعدان. تمهمم بما يشبه هذيانا: "بني نعيش صوت أحدهم يفتح باب الممر المؤدي إلى غرفة الجلوس في الأسفل. يرتطم الباب بالحائط بقوة. من شأن أي صرخة أن تبت ذعرا في نفوسنا، إلا صرخة أيوب:

"حوراء.. يا حوراء.. وينكم؟!"

يركض الصغيران تبعهما أمهما إلى الأسفل. يسقط أيوب على ركبتيه مُنهكا عند مقدمة السلم. عاريا إلا من سروالٍ داخلي أبيض

مضمخ بالدم، وعلى جسده أشياء تشبه طحالب. يرفع رأسه ينظر إلىَّ وحِصَّة يغالب ابتسامة: "شفت السكراب عند الباب.. عرفت إنكم هني أحلس على السُّلم ألتقط أنفاسي. أتركُ الصبيَّة إلى جانبي. أهدق في عينيه ولا أجيّب. يدريني غاضب من تصرُّفه عند الجسر. يستلقي على ظهره يضحك بوجه حزين، أو ييكي بوجه فرح، إزاء موت مجاني أوشك يأخذه: "كنت راح أموت" أنظرُ إلى ساعة معصمي أحسبُ وقتا أمضاه منذ اختفائه في النهر. يعتدل في جلسته يبرر تأخيره. عدا رصاصات رجال الجسر.. تباعة الجيف صارت تماجم الأحياء! لولا تلقاه رجال دورية متطوعون في سيارتهم وأقلّوه إلى هنا، لما وصل وهو يحمل كلُّ هذا. يقول ذلك وهو يشير إلى جروح أدمت جسده. كأنه ينتبه للتو إلى عريه. يطأطي: المذرة. تصعد حوراء إلى الطابق العلوي. تعود بدشداشة من دَشاديش فهد. يرتديها أيوب بعد اغتساله.

تجلس حِصَّة على الأرض. ترسمُ فترانا على كفوف الصغيرين المستسلمين لها تماما. تفتح حوراء التلفزيون. تقلّب قنواته. الفضائية الكويتية تهب بالأهالي الابتعاد عن مناطق الخطر، وتُحسب المرور بسبعة شوارع رئيسية، والتزام المساكن تجنبا للميليشيات. أسماء المناطق تظهر على الشاشة في حين يقرأ المذيع النشرة. شارع دمشق يطفح بمياه المجاري. تظاهرة سلمية في شارع القاهرة رغم حظر التجوّل. سكَان حوَكّي يُخمدون النيران المشتعلة عند مدخل شارع تونس. الخالدية؛ اشتباكات في شارع طرابلس بين مسلحين وعناصر أمن. السلمية؛ شارع بغداد تحت سيطرة المتمردين، والأهالي يطالبون برفع حصر

التحوّل لتسهيل خروجهم إلى أماكن آمنة. ضاحية عبدالله السالم؛ انفجار عبوة ناسفة بين مسجد فاطمة ومحطة الوقود في شارع صنعاء. إغلاق شارع المسجد الأقصى من دون ذكر أسباب. تنتقل النشرة، بعد بثّ أسماء الشوارع السبعة المحظورة، إلى كيفان؛ صور لرجال الدفاع المدني ينتشلون جثثاً تحت أنقاض البيوت المطلة على شارع فهد براك الصباح. أنظر إلى وجه فوزية واسم المنطقة على الشاشة. أممّ يدي إلى حوراء أنتزع منها الريموت كونترول. أحرس صوت التلفزيون خشية انتباه فوزية إلى ما يجري في كيفان، وقد دأب الجميع منذ زمن على إخفاء أي خبر سيء يمسُّ منطقتها الأثيرة. أتابع الصور على الشاشة وأفكر في فوزية. هي ليست في حاجة إلى كل تلك الموارد. لا شيء في أخبار الإذاعة والتلفزيون يشير إلى مكان تجبّه. هي لا تدري بأن حديقة الأندلس صار اسمها حديقة واحة كيفان، وأن مسجد عبدالوهاب الفارس، الذي أُحرق قبل أسبوع، هو نفسه المسجد الذي درّج الناس قديماً على تسميته بمسجد بن عبيدان نسبة إلى إمامٍ أحبّ القرآن في صوته. هي تجهل أن مسرح المسعود صار مسرح التحرير، ومسرح التحرير صار معتقلاً بعدما غصّت السجون بالبشر. لو أنّها لم تفقد البصر يوماً، وأمسكتُ بالصحف، قبل عشر سنوات، لقرأتُ قرار المجلس البلدي؛ تغيير اسم شارع إشبيلية إلى شارع فهد براك الصباح. هي مطمئنة تماماً بأن ضرراً لم يمسّ أماكنها المحببة، وأن الجثث في نشرة الأخبار تُنتشل في شارع بعيد عن شارعها.. لو أنّها سمعت خيراً بثتهُ الإذاعة قبل قليل. وقتَ كنتُ أبحثُ عن درب آمن يُخرجني من الجابرية: كيفان منطقة منكوبة!

يقطع أيوب خيالاتي بانتزاعه الريموت كونترول من يدي. يطفئ التلفزيون. ينظر إليّ يسأل عما جرى لنا فجر اليوم.. صادق وفهد وأنا. أشيخ ببصري أنظر إلى حصّة وقد أوشكت تُنهي عملها على كفوف الصغيرين. ترسم علامات X تشطبُ الفئران. يصرُّ أيوب: "وينهم؟" تُردّد حوراء سؤاله مثل صدى: "وينهم؟" أنا أعرف تماماً ما جرى. ولكنني..

- "ما أدري وينهم.."

\*\*\*



## الفصل الثالث عشر

أمضيتُ شهورا أبذل كل ما في رأسي لإقناعهم. جماعة وطنية، حقيقية، أطرافها تضم أعضاء من كافة الأطياف. نحن. ندق ناقوس الخطر ونسمي الأشياء بأسمائها. نحن في حال مقرفة. "الأمرا لا يستدعي"، قال صادق بعدما ضحك على ما يراه مبالغة من جانبي: "تسوِّي من الحبة قبة" لم يمهلني أشرح بأن الحبة بالفعل صارت ورمًا خبيثًا: "جماعة بخمس أعضاء بس؟!"، قال مستنكرا. فيما أبدى ضاوي تحفظا، التزم فهد الحياذ: "إللي تتفقون عليه" وحده أيوب كان متحمسا مثلي، ربما أكثر عرض أن يكون مقر الجماعة، إن اتفقنا، في شقته. بناية أبيه في الجابرية. عارضه ضاوي: "لما تنظفها من المنكر تجاوز أيوب قوله. وعد بأن يفسح لي مساحة أكبر في الجريدة: "إنت تكتب.. والجريدة ما تمنع مضت أيام نعمل، أيوب وأنا، كل ما في وسعنا لتحقيق الفكرة. قال فهد، بعد أيام، إنه اقتنع تماما بأهمية المشروع بعدما أبدت حوراء وفوزية اهتماما. قال بأهمها أول المنضمين إلى الجماعة: "صرنا سبعة!" رفع ضاوي ذراعيه بما يشبه استسلاما. وجّه كلامه إلى فهد:



"الله يوفقكم، لكن أنا ضد الاختلاط، إما أنا أو زوجتك  
وعمتك!"

تحكم فهد بأعصابه:

"صلّ عالنبي يا شيخ!"

صلّي ضاوي على النبي وآله وصحبه. أرفد صادق يُحدّد:  
"الأخيار المنتجين" عقد ضاوي حاجبيه:  
"كل أصحاب النبي أختيار.."

أجابه صادق بلا مبالاة:

"أخيار عندك إنت!"

الخيبة التي أصابني في الندوة المسرحية، أصابني في الديوانية ليلتنا  
تلك. في كل منا عباس وصالح يظهران وقت نوشك على اتفاق. كنا  
قد أمضينا شهورا من دون أن نخطو خطوة تجاه تأسيس الجماعة.  
خشيتُ إن تفوّهتُ بكلمة أفسد كل شيء. أدريسي إن لم أحقق  
مشروعني فسوف يكون الأمر بمثابة فك ارتباط مع من بذلت كل ما  
في من أمل لإبقائهم أصدقاء. كان أملي الأخير بنا. نحن الخمسة، وقد  
صرنا سبعة، أن نفعل شيئا. كنت أنقل نظري بينهم، أنصتُ إلى  
آرائهم، أبحث عن أي شيء يُثبت لي عكس قول والدي عن  
أصحابي: "خيشة فحم!" فحم لا يقف ضرره على ترك آثاره  
السوداء على ثيابي. فحم يتقد يوما ثم يصير رمادا، لعله الرماد،

الذي لا تورث النار غيره، كما حذرت أمي حصّة قبل سنوات طويلة. راح فهد يقنع ابن خالي بأن دور حوراء، في البيت، يقتصر على إنشاء مدونة وموقع إلكتروني للجماعة: "أين الاختلاط في ذلك؟" تدخّل صادق محبطاً من تبرير فهد. "آنا أخواها وفهد زوجها ما عندنا مانع" تجاوز ضاوي قول صادق. سأل فهداً:

"وعمتك؟ الله يلطف بحالها، ضريرة.. شنو دورها؟"

أجابه:

"عمتي، الله يسلمك، ذاكرتها مهمّة. عندها سواف ومخزون أغاني وطنية ولا أرشيف وزارة الإعلام.. واحنا محتاجين.."

قاطع ضاوي:

"أغاني؟! الله يوفقكم، لكن آنا ضد الأغاني.. إما آنا أو عمتك!"

ارتفعت الأصوات في جدل يقنع واحدهما الآخر، في حين لاذ صادق بصمته. سأله فهد عن رأيه. أجاب والدماء محتقنة في أذنيه:

"الله يوفقكم.. لكن، إما آنا معاكم.. أو ضاوي!"

أيام مضت على حالنا تلك. توصلت إليهم أن ينصتوا إليّ. الأمر أبسط من كل تعقيداتهم. مدونة إلكترونية وصفحة على الفيسبوك وإذاعة إلكترونية ومساحتي الأسبوعية في الجريدة. هذا في البدء، ثم

تَسَعُ بِأَنْشَطَتِنَا، وَلِكُلِّ مَنَا أَنْ يَعْبِرَ عَنْ رَأْيِهِ فِيمَا لَا يَخَالِفُ هَدْفَنَا. وَجَهْ أَيُوبَ دَافِعِي الْأَوَّلَ لِمَوَاصِلَةِ الْحَدِيثِ رَغْمَ مَقَاطِعَتِهِمْ. لَمْ أَنْزَعِجْ، كَانَتْ نِقَاشَاتِهِمْ، رَغْمَ اخْتِلَافَاتِهِمْ، تَطْمَئِنِّي بِأَهْمِ مُؤْمِنُونَ بِأَهْمِيَةِ الْفِكْرَةِ. لَمْ تَنْفَقْ تَمَامًا لَوْلَا نَشَرْتُ الصَّحْفَ، أَيَامَنَا تَلِكْ، صَوْرًا لِعِبَارَاتٍ مَسِيئَةٍ لَصَحَابَةِ النَّبِيِّ عَلَى سُورِ أَحَدِ الْمَسَاجِدِ، وَخَبْرًا آخَرَ حَوْلَ إِطْلَاقِ نَارٍ عَلَى زَجَاجِ نَوَافِذِ حَسِينِيَّةِ. "وَيَنْ رَاجِحِينَ؟!"، قَالَ ضَاوِي كَأَنَّهُ يَسْتَشْعِرُ، لِتَوِّ، خَطُورَةِ الْحَالِ. أَجَابَهُ أَيُوبُ بِأَنَّنا، نَحْنُ، مِنْ يَحْدِّدُ وَجْهَتَنَا. تَرَدَّدَ ضَاوِي: "لَكِنْ.. قَفَزَ أَيُوبُ يَقْبَلُ جَبِينَهُ: "اللَّهُ يَخْلِيكَ بَدُونَ لَكِنْ! لَازِمٌ نَشْتَغِلُ عَالِمُوعَ" ابْتَسَمَ ضَاوِي كَمَا لَمْ أَرَهُ مَبْتَسِمًا مِنْ قَبْلِ: "يَجِيبُ اللَّهُ مَطَرَ رَاحِ أَيُوبَ يَجُوبُ الدِّيَوَانِيَّةَ يَزْفَنُ مَصْفَقًا. يَهْزُ كَتْفَيْهِ يَمْشِي بِخَطُواتٍ مَدْرُوسَةٍ. يَرِدُّدُ أَغْنِيَةَ شَعْبِيَّةٍ قَدِيمَةٍ: "طِيقْ يَا مَطَرَ طِيقْ.. بَيْتِنَا جَدِيدٌ.. مِرْزَامُنَا حَدِيدٌ عَدُوِّ التَّصْفِيقِ انْتَقَلَتْ إِلَيَّ، إِلَى فَهْدٍ وَصَادِقٍ، نَدُورُ نَحْنُ الْأَرْبَعَةُ حَوْلَ ضَاوِي الَّذِي افْتَعَلَ ثَقْلًا لَمْ يُوَارِ ابْتِسَامَتَهُ. تَصْفِيقُنَا صَارَ مَجْنُونًا، وَزَفَانُ أَيُوبَ بَلَغَ حَدًّا تَحَالَهُ فِي حَفْلِ زَارِ يَنْقِصُهُ الطَّارُ وَالْبَخُورُ. كُنْتُ أَنْصَتُ إِلَى ارْتِطَامِ قَطْرَاتِ الْمَطَرِ عَلَى إِسْفَلَتِ الشَّارِعِ. كُنْتُ أَشْمُ رَائِحَةَ التَّرَابِ الرُّطْبَةِ. كَانَتْ السَّمَاءُ تُمَطِرُ سَخِيَّةً دَاخِلَ رَأْسِي.

اتَّفَقْنَا أَلَا تَكُونُ جَمَاعَتُنَا مَدْعُومَةٌ مِنْ أَيِّ جِهَةٍ أَوْ حَرَكَةٍ سِيَاسِيَّةٍ أَوْ دِينِيَّةٍ أَوْ حُكُومِيَّةٍ، حَتَّى لَا نَمَثَلَ إِلَّا أَنْفُسَنَا. بَقِيَ اسْمُ الْجَمَاعَةِ. صَارُوا يَنْتَقُونَ الْأَسْمَاءَ اقْتَرَحَ أَيُوبُ: النَّاقُوسُ فِي حِينِ اخْتَارَ ضَاوِي اسْمَ: جَمَاعَةٌ وَأَدِ الْفِتْنَةَ. لَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهِ وَصَادِقٌ وَفَهْدٌ حَيْثُ اتَّفَقَا عَلَى اسْمٍ: مِثْلُ أَوَّلِ. كُنْتُ أَهْزُ رَأْسِي رَافِضًا اقْتِرَاحَاتِهِمْ. نَحْنُ فِي حَاجَةٍ إِلَى

اسم مخيف. اسم ييث الرعب في نفوس الناس من خطر مقبل إن بقينا  
على حالنا. التفتَ صادق صوبي:

"طيب.. إنت إختار اسم.."

مررتُ نظري على وجوههم قبل أن أفضي:

"جماعة أولاد فؤادة.."

حدّقتُ ضاوي في وجهي:

"فؤادة منو؟!"

استلقى فهد على ظهره يفهقه ما إن قلتُ لضاوي إنها فؤادةُ  
مسلسل على الدنيا السلام، مدرسة التاريخ المجنونة، فؤادة الفئران  
الآتية التي بحَّ صوتها، تحمل مصيدة الفئران، تنادي: احموا الناس من  
الطاعون. بالكاد تحكّم فهد بضحكه. سألني مبجلقا:

"فؤادة تخوّف؟! فؤادة تخوّفك إنت بروحك.. ما تخوّف

الناس!"

اعتدل في جلسته يفتعل جدّية:

"خلاص يكفي ضحك.. جد جد، إنت صاحب فكرة

تأسيس الجماعة، وإنت تختار لها اسم

تمسّكتُ برأيي:

"جماعة أولاد فؤادة. وشعارها: الفئران آتية.. احموا الناس  
من الطاعون!"

أجاب محبطا:

"لكن الاسم مسخرة يا أخي!"

كانوا ينظرون إلى وجهي يتحرّون إجابة جادة. أهيتُ:

"الوضع كله مسخرة!"

\*\*\*

كُلُّهُمْ سَفَلَةٌ  
الْقَتِيلُ وَمَنْ.. قَتَلَهُ  
يَدْعُونَ.. بِأَنَّهُمْ.. يَحْمِلُونَ  
الصَّلِيبَ إِلَى "الْجُلْجَلَةِ"  
وَهُمْ.. يَحْرِقُونَ الْعُرُوقَ  
إِذَا.. بَرَعِمَتْ.. سُنْبُلُهُ

علي السَّبَّيْتِي

الفأر الرابع

---

رَمَاد



## يحدث الآن 11:05 PM

"ما أدري وينهم!"

ألوذ بالصمت. أكره اختناقي بعراقي مثل طفل. أتذكرني، معهما، فجر اليوم. أتصنع السعال أشدُّ حبال صوتي. لا يزال أيوب وحوراء يصوبان نظرهما إلى وجهي يتحرّيان إجابة. فوزية تميل رأسها. توجه إليّ أذنا تتحسّس صوتي. تكرر سؤالهما: "وينهم؟"

"الذي أدريه كنا معا. نحن الثلاثة. نحتفي على طريقتنا وقت أتمت الهدنة يومها الأول بعكس سابقاتها من الهدن. فرغنا من بث آخر البرامج بعد منتصف الليل. اخترنا أغنية "بلاد تطلب المعالي"، يا فوزية، نملأ بها صمت الإذاعة ساعات الليل إلى حين استئناف البث مع نشرتك الصباحية يا أيوب. خرجنا من مقرّ أولاد فؤادة إلى الروضة. "نروح بيوتنا؟"، سألتهما وأنا لا أتخيلني في مناسبة كتلك أنهي يومي مثل أي يوم عادي. "لأ طبعاً"، أجابني صادق. كان صاحب الاقتراح. حديقة جمال عبدالناصر: "تتعشى هناك" ضحكت. من أين جاءتك الفكرة والحديقة ميتة منذ سنوات طويلة؟ قال إنه في حاجة إلى مكان بعيد عن الناس. قال إنه يشتاقي إلى مكان قديم. في الحقيقة كنت مثله. أنا دائماً أشتاق إلى مكان قديم. أوقفنا



سياراتنا في الساحة المقابلة للحديقة نحمل أكياس الطعام. لم يكن لفهد أن يوافق على الذهاب إلى أي مكان لولا كرهه العودة إلى البيت منذ خروجك يا حوراء تطللين الانفصال. كان يشناق للولدين. ولا داعي لأن أقول إنه كان يشناقك أيضا. لم تمر ساعة من دون أن يمسك بهاتفه يتحرى رسالة صوتية منك. أنا لن أواصل حديثي إن واصلت البكاء. هاك. جففي دموعك. حسنا. أمضينا ساعات ثلاثاً. ساعات موهلة في القدم. آه لو كنت معنا يا فوزية! الحديقة التي لم يتمكن مطعم ماكدونالدز من إحيائها منذ احتل أحد أجزائها، أحيتها ذكرياتنا. كانت عُلب وجبات الأطفال وألعابها البلاستيكية تتناثر على الأرض عند مدخل الحديقة مقابل المطعم المهجور. انحنى صادق يلتقط كرة مطاطية صغيرة. تلفت حوله كمن يخشى أن يراه أحد. أنت تعرف ابن عمك يا أيوب. مجنون. ولكنك لا تعرف إلى أين قاده جنونه قبيل فجر اليوم. نظر إلينا يُنقل الكرة بين يديه. يسأل: "تلعبون؟" تبادلنا النظر في ما بيننا، فهد وأنا، واحدنا ينتظر من الآخر تشجيعا. نزعنا أنعلنا. طوينا دَشاديشنا. لففنا أطرافها حول خصورنا. لم يفه واحدنا بكلمة. كانت عيوننا تضحك بما يشبه حجلا. راح صادق ييحث، أسفل سِدرة عتيقة، عن حجارة مسطحة متفاوتة الحجم، والكرة المطاطية في يده. لم يتردد فهد يعاونه. لا أدري ما الذي أصابني وأنا أشعري أتضاءل وأنكمش داخل دِشادشتي. صارت واسعة فضفاضة طويلة الكُمين. نظرتُ إلى وجهي فهد وصادق. لم يعد لكل منهما شارب كث ولحية نابثة. فهد بوجه أسمر أملس وعينين واسعتين وشعر أسود داكن، فيما

اكتست وجه صادق حُمره قديمة وانتشرت البثور على وجنتيه. شَمَرْتُ عن ساعديّ. رحت أجمع معهما حجارة تصلح للغرض. ذرنا الحديقة. لا شيء فيها يشبه الحديقة عدا بعض أشجار عملاقة تحاذي السور تقاوم الجفاف، ومراجيح صدئة مهملة على أرضية إسفنجية سوداء مغبرة. بنينا هرما صغيرا من سبعة أحجار وفق قانون لعبة عنبر. رحنا بشكل فريقيين. أحدهما ناقص. تبادلنا الأدوار بقذف كرة ماكدونالدز على هرم الحجارة السبعة. تناثرت على الأرض مثل بناء مقصوف. دفع واحدنا الآخر لالتقاط الكرة. تمرغنا بالتراب والعشب الجاف مثل قطط الشوارع. يرمي واحدنا بالكرة يصبّوها إلى رأس الآخر في خروج مجنون على قوانين اللعبة. ركض فهد يضحك. تبعه صادق يضحك. لحقتُ بالإثنين غارقا في العرق والضحك. انتقلت الكرة من الأيدي إلى الأقدام. ركلها فهد بعيدا. أخذنا يجريان نحوها. تقمّصتُ خالد الحربان. صرتُ أُعلّق على أداء فهد بصوت مرتفع: "مؤيّد الحدّاد معاه الكرة.. يعدّي.. يروح.. سدّدها بركلة قوية. مرّرها بين رجلي صادق. "قوووووووول! الله الله الله مؤيّد الحدّاد... يا سلاااااااا!" ألقينا بأجسادنا المتعبة على التراب نلتقط أنفاسا غالبها الضحك والسعال. اعتدل فهد في جلسته يمسك أسفل ظهره يتوجّع. أعاد لي صورة قديمة لأبيه مقرّفا على الأرض. خرجت كلماتي من فورها أنصحهُ بألا يستحمّ ليلا. مزحة أمي حصّة لأبيه قبل سنوات طويلة لم تدفع حفيدها اليوم للضحك. امتنع وجهه. قطّب صادق حاجبيه في حزن. دفع فهدا لأن يتحقّق من صندوق الرسائل الصوتية في الهاتف. أمسك فهد بهاتفه. لم يكن

صوتك حاضرا في صندوق الرسائل يا حوراء. اغتصب زوجك  
ابتسامة: الصندوق ماله مفتاح! خالط حزن ملامح فرح يرسم حيننا  
على وجه أخيك. "يااااه!"، قال صادق قبل أن يسأل فهد:

"شنو اللي ذكرك بالأغنية؟!"

تلقت فهد حوله. قال:

"هو نفسه اللي ذكرك بالحديقة.."

واصل صادق ترديد الأغنية. يفتح فمه على اتساعه مثل طفل لا  
ينقصه حماس: "والفتاح عند الحداد" شاركه فهد صارم الملامح مثل  
عبدالكريم: "والحداد يبي فلوس ما كادا ينهيان أغنيتهما: "والمطر  
عند الله"، حتى فتح صادق أكياس الطعام. رحنا نأكل بشهية أطفال  
جوعى. لم نجتمع نحن الثلاثة على هذا النحو، متحررين من كل  
شيء، ديوانيتنا ومقرنا وبيوتنا، منذ تركت السُرّة عام 1997، قبل  
ثلاثة وعشرين عاماً. صار واحدنا يتحقق من ذاكرة الآخر هل  
تذكر أبا سامح وأغنية عبي لي الجرّة؟ طبعاً، وأنت.. هل تذكر  
أمي زينب تدفع عربة السوق المركزي على الإسفلت؟ مشاجرتنا  
الأولى. مدرسة النجاح. الأستاذ دسوقي ذو الشفتين الغليظتين.  
الأستاذ مُرهف. مجمّع الأنبي ومكتبة البدور ومجلة الرياضي. قصص  
أمي حصّة وجلوسنا في الحوش وقت انقطاع الكهرباء سبتمبر 90،  
ونجم سهيل، في مثل هذا الوقت تماماً، قبل ثلاثين سنة. بطولة  
الصدّاقة والسلام. بيت الزلّمات. الحبال والقُمبار وسوق الذهب في

البصرة. فوزية والشوكولاتة واعتكافها في غرفتها تقرأ روايات  
إحسان..

"أنا؟!"

تقاطعني فوزية تسأل وقد لفتها اسمها في حديثي. يلتفت إليها  
أيوب وحوراء. أجبها: "أنتِ" تضيقُ عينها الباهتتين تقول إنها لا  
تتذكر عدا ما كنتُ أقرؤه لها. أذكرها. فوزية! روايات إحسان  
عبد القدوس. كنتِ تقرئينها. يوم كنتِ مبصرة. تتسع عينها. كأنها  
تحاول أن تتذكر. تشيح بوجهها بعيدا. تطأطي: لم أكن مبصرة في  
حياتي. أنظرُ إلى وجهها لا تسعني الكلمات أرد. تشير بسببها إلى  
أذنها: "كَمَلِ القصة" أسألها باهتا: "أي قصة؟" تجيب: "قصة فهد  
وصادق أكمال قصتهما ناظرا إلى وجهها:

"سألني فهد عن مسودة روايتي إرث النار وقت تحدثنا عنك  
وروايات إحسان. لم أجه وأنا متكتمٌ منذ بدأتُ في كتابتها. منذ  
قررتُ أن أكتبنا عراة كما نحن؛ فهد وصادق وأيوب وضواوي وأنا.  
من دون أقنعة تركي ومهدي ومشعل وعبدالله وجابر التي دأبتُ على  
الاحتباء وراءها. اتبه صادق إلى تحفظي. ابتسم وهو يمسك  
ساندويتشا، يقول: أتدريان ما أشتهي؟ لم ينتظرننا نخدمن. أجب:  
سندويتشات جابر المصري؛ معكرونة بالكاتشاب. ضحك فهد في  
حين أطبق الحنين شفتي. أجاهه ساهما: وأنا أشتهي طبخ أمي حصّة  
مع أجارها الحاذق. رن هاتفه بانصال من خالتي عائشة. قلقة عليه  
وقد قاربت ساعة الفجر رابعتها. طمأنها، وهو ينهض من الأرض،

يزيل نتف الحشائش عن دِشْداشْتِه، بأنه سوف يعود إلى البيت على الفور. قال قبل أن ينهي المكالمة: "يُمّه.. مشتهي مطبّق سمك" أُنهي مكالمته ينظر إلينا: "غدانا اليوم مطبّق سمك" خربش الهواء بكفّه:  
"مياااو!"

\* \* \*

## الفصل الأول

أكثر من ثلاث سنوات مضت منذ العملية الجراحية التي احتفت بها حوراء. أخبرها طبيبها باستعداد جسدها للحمل. ووفق خطة علاجية تحت إشرافه أنجبت في 2012 ولدين توأمين. صارا دافعا مضاعفا لفهد، أكثر من أي وقت سبق، كي يؤمن بأهمية جماعة أولاد فؤادة، وقد مضى على تأسيسها قرابة الأربعة أعوام. "عشان عيالي"، كان يقول. عمدنا في السنوات الأولى لنشاطنا، كل من خلال برنامج الإذاعي وصفحته على الإنترنت، الاقتراب من الناس باستشارة حنينهم. لم يكن الماضي مثاليا، لم نكن في حاجة للتذكير، ولكنه كان أفضل مما صرنا إليه. عملتُ على إعداد وتقديم برنامجي "حنين أسمى صادق برنامج" "أنا التاريخ كله"، كان أشد البرامج إثارة للجدل بسبب قضايا يطرحها محاولا إعادة قراءة التاريخ، وهو ما يرفض الناس إعادة النظر فيه. "حديث اليوم" برنامج ممنوع يغلبُ عليه طابعُ فنيّ تصدّي له فهد متكئا على أرشيف عمته فوزية. وفيما عمل ضاوي على برنامج ديني جامع، تخصصَّ أيوب في بث النشرات الإخبارية مستفيدا من عمله في الجريدة. الطابع

القدم لإذاعتنا، والاعتماد على ذاكرة الناس البعيدة، حقاً تفاعلاً كبيراً. صارت كبريات شركات الاتصالات والبنوك تتسابق للإعلان في إذاعتنا الإلكترونية وموقعنا على الإنترنت. انتشر أسلوبنا مثل عدوى. اتخذت الشركات الأسلوب ذاته، عبر إعلاناتها في التلفزيون والإذاعة والصحف، للوصول إلى العامة من خلال ذاكرتهم. تسوّق خدماتها عبر استثارة الناس إلى زمان أوّل أو زمان الطيبين على حدّ مصطلحات صار متداولة لا تكشف عن شيء سوى عطب الذاكرة الذي أصاب الجميع. وفيما كنا نُذكرُ المستلقين بما يحبون، كنا نمرر ما نريد قوله إزاء ما يغضون عنه الطرف كرها. أصابت جماعتنا في البدء قدراً لا بأس به من الانتشار. تلقاها الكثير من الناس باحتفاء كبير، فيما تحفظ البعض لقاء تحفظنا على الكشف عن أسمائنا ومقرّ تجمعنا ورفضنا الخروج في لقاءات صحفية. انشغل البعض يبحث لنا عن ائتماء. الموالون للحكومة أسمونا معارضين. المعارضون اتهمونا بالموالاة. الجماعات الدينية لم ترَ فينا عدا جماعة خارجة. الجماعات المعادية للدين صنفتنا حركة دينية. كنت قد توقفت عن نشر قصصي في جريدة الراي. أقنع أيوب إدارة التحرير بتخصيص زاوية أسبوعية لي لا تمتُّ للقديمة بصلة. صرت أنشر فيها المقال تحت اسم ولد فؤادة. طالني، في البدء، هجوم شرس أخرج الجريدة، رغم أنني لا أكتب عدا ما يدور حولي. لا أفهم كيف يتعاطى القارئ مع الكاتب. يصيرُ رقيباً أشدّ فتكا من أجهزة رقابية. هم يرتكبون خطأً. هو يكتب عن الخطأ. آخرون يلومونه على الكتابة!

كان عزائي بأيوب. وبأناس صاروا يؤيدوننا. لا أدري كيف صرنا تاليا، نحن السبعة، سبعة عشر.. سبعين.. أناس متحمسون تتزايد أعدادهم. طلبة جامعات وجمعيات تطوعية وناشطون، يقيمون ندوات وأنشطة فنية في الأسواق والأماكن العامة. يحملون شعار احموا الناس من الطاعون. ونحن، من بين المتفرجين، لا أحد يتعرفنا. مكوثنا، نحن الخمسة، معظم الوقت في المقر نعمل، قربنا إلينا أكثر من أي وقت. كنت أراقب ابن خالي. كثير الصمت. تغير كثيرا. يناكفه فهدت يذكره: "والجهاد يا شيخ؟" يجيبه، أولا، بأنه ليس شيخا. ثم يشير نحو جهاز الإرسال والميكروفون. يقول ثانيا: "هذا جهاد" وحده أيوب يشعر بما أشعر يتقدم إلى ضاوي يقبل رأسه. كلانا يدرك إلى أي مدى كان ضاوي حائرا بين إرث ثقيل حملة مذ كان مراهقا، وبين عقل متشكك يعيد النظر في كل شيء. لم يكن ضاوي في جهاد إلا مع ذاته. وبقدر ما حققت جماعتنا تقدما، كانت المشاكل بين الطائفتين تتعاضم، وتصير حِمما. ثورات دول الجوار توجج النفوس في الداخل.

جلسنا أمام تلفزيون الديوانية، ذات ظهيرة، كمن يحضر مجلس عزاء. ننصت إلى بيان صدرته السلطة. حملت فيه الشعب كامل المسؤولية تجاه سوء تعامله مع حريات ممنوحة. ما جلبت عليه البلاد منذ. حرية التعبير حتى أصيل لكن. الناس، بذريعة الحرية، أساءت التعامل مع. أحلتموها فتنة طائفية في الصحف والندوات العامة وداخل قبة البرلمان. صارت الطائفة مرجعا عوضا عن الدولة. ختم البيان: إننا، وبجزن شديد، إزاء ما يجري اليوم من أحداث تعصف بالبلاد،



نظطر آسفين إلى فرض نظام جديد، يتوافق مع المرحلة، عوضاً عن دستور 1962، لأن أمن الكويت فوق كل اعتبار.. سائلين المولى عز وجل أن يسبغ على وطننا الغالي نعمة الأمن والأمان.. والسلام عليكم ورحمة.. شهدنا تظاهرات لا قِبَل لنا بها قط. أمام المساجد والحسينيات، في الديوانيات والشوارع. ولأن المصيبة، على دأبها، تخجل أن تُقبل وحيدة، جاءت تجرُّ أصحابها. تدهور أسعار النفط. شدَّ الحزام وفرض ضرائب على. زيادة أسعار الوقود. وقف دعم المواد التموينية. تخفيض رواتب موظفي الدولة إلى ما دون النصف لحين. سعر الدينار الكويتي لأول مرة إلى ما دون.

وفيما كنا ننتظر رد فعل حكومي إزاء فوضى عارمة عصفت بالبلاد، خيمَ الإحباط على الجميع، وقد علّق مجلس التعاون الخليجي جلّ اتفاقياته. وقتَ اضطراب دولتين، من الدول الأعضاء، لفرض التأشيرة على المواطنين الكويتيين لقاء توافدهم في ما يشبه اللجوء، بحثاً عن مكان آمن لا يبعد عن الكويت كثيراً. وفيما انسحبت دولتان إثر خلافات على إنتاج حصص النفط، لا يزال الإعلام، إذاعة وتلفزيوناً، يث أغنية قديمة: خليجنا واحد.. وشعبنا واحد! وعندما سخر فهد، في حديث اليوم، من أغنية لا تشبه الحال، تم استدعاؤه من قِبَل وزارة الإعلام: "إنذار أخير.. أو يُحجب موقعكم الإلكتروني ويُعلّق نشاطكم!" جاء الإنذار أخيراً قبل أن يسبقه إنذار أول أو ثان. كانت ضربة موجعة لأولاد فؤادة وأنصارهم. كنا نختنق ببطء منذ فرضت الحكومة رقابة مسبقة على الصحف بعد حلّ البرلمان حلاً نهائياً، بصورة أسوأ مما كنا عليه في منتصف ثمانينيات القرن الماضي.

مضت الأيام سريعة والتوأم، أو حفيدا فؤادة، كما يسميهما فهد وهوراء، يكران بسرعة. لا يتخلفان عن معظم جلساتنا في الديوانية. يُنصتان إلى أحاديثنا عن الحوش القديم بلهفة. لا يكفان الأسئلة عن جدِّي أبويهما، حصّة وزينب. من أجلهما وحسب كتبتُ سلسلة ابن الزرزور. ومن أجلهما رسم صادق لوحات القصص كما وصفتها العجوز قبل سنوات. ومن أجلهما صار فهد يقرأ عليهما القصص كل ليلة قبل نومهما. يُبدل ببعض الكلمات العربية كلمات إنكليزية يفهمها الولدان.

صرتُ آخذ الصغيرين إلى البحر كل أسبوع، وقت بلغا خامستهما، مشرطا عليهما ألا يحدثاني بالإنكليزية. أبدا أبويهما تخوفاً من تعلّقهما بالأجهزة الإلكترونية، ولم يقلقهما أن الولدين يتحدثان عربية تشبه الرموز. كنت أجد متعة خالصة في صحبتهما. لا أدري لها سببا. علاقتي بالصغيرين دفعت فهذا يسألني مرّة أولى أخيرة:

"متى نشوف عيالك؟"

هو السؤال الذي ما انفكتُ أمي تردده. وهي إجابتي التي لم أفض بها يوماً وأنا أففُ على شفا دولة:

"لما أتطمّن على باكر.."

سرح فهد بعيدا ولسان صمته يقول: "ما راح نشوف عيالك".

ذات ظهيرة، أمضيتُ مع الصغيرين وقتنا على أحد شواطئ سلوى. بين البحر والمراجيح لعلِّي أبعدهما عن أجهزة إلكترونية أدمنها. أهرب من جوِّ خانقٍ يُخيم على البلاد بصحبتهما. أحب أسئلتهما على كثرتهما. أحاول فكَّ رموزها إن طعمها كلمات إنكليزية أجهلها. وأحب أني لا أدري أيُّهما من؟ يُشبه واحدهما الآخر مثل ولدٍ وانعكاس صورته على المرآة. توأمان تُخلِّقا في مشيمة واحدة. رضعا من ثدي واحد. لهما الوجه ذاته، والصوت والحركة والأسئلة. لا تنقصهما شقاوة. كلُّما سألتُ أحدهما من يكون، أجاب باسم أخيه. يُمهلاي أفرغ من حديثي موجهها كلامي إلى واحد وأنا أعني الآخر. ينفجران معا في ضحك مجنون: أنا لستُ هو.. أنا أنا!

"عمي.. إحنا شنو؟"

ألقي أحدهما سؤاله وهو يجري نحوِّي ينفض التراب عن سروال السباحة. استفهمته. تردَّد أخوه قبل أن يوضح:

"إحنا مثل أمي والا مثل أبوي؟"

لو أن أمي حصَّة هنا. بماذا سوف تجيب؟ نظرتُ إلى السماء:

"حبيبي! إنت مسلم وخلص.. والرسول يقول.."

تدخل أخوه مقاطعا. يتوسل إجابة لآخر سؤال:

- "الرسول.. مثل أبوي والا مثل أمي؟"

لذتُ بساعةٍ معصمي. نُهضتُ:

"نروح البيت.."

أمسكَ أخوه بذراعي وعلى وجهه رجاءٌ لسماعٍ إجابتي وهو  
يقسم بأنه آخر آخر سؤال. مدَّ سبَّابته الصغيرة إلى الأعلى:

"الله سبحانه وتعالى.. شيعي والا سني؟"

تقلَّصتُ أمعائي. خِلتُ السماء تهتز. رأيتُ كفَّ والدي ترتفع  
مهتدة. أشفقتُ عليَّ وعليها في موقفٍ مضى قبل زمن طويل:

"استغفر الله.. حبيبي انت تقول الله سبحانه وتعالى.."

يعني الله أعلى من الاثنين وأعلى من كل شي

"أستغفر الله"

"عَفِيَهَ على وليدي"

ألقيتُ منشفتين على جسديهما أذفعهما أمامي إلى السيارة.

في طريق عودتي إلى الروضة. سلوى عن يميني والبحر عن شمالي.  
الصغيران في المقعد الخلفي. صوتٌ وقور في الإذاعة يتحدث عن فِرَقٍ  
وطوائف الجن. هذه الطائفة أكثر صلاحاً. الطائفة الأخرى أشدُّ  
فساداً. أسكتُ المذباغ وأنا لا أعرف من الجن عدا ساكنات السُدرة  
المخلصات. مدَّ أحد الصغيرين ذراعه بين المقعدين الأماميين. يشيرُ  
نحو لافتة تصوَّبُ سهماً إلى شارع المسجد الأقصى يميناً. يدريني  
منزعج. وعدني بأنه آخر آخر سؤال:

"عمي.. المسجد الأقصى في سلوى؟!"

"لأ يا حبيبي.. في القدس

أطلّ أخوه برأسه بين المقعدين. قرّب وجهه إلى وجهي رافعا  
حاجبيه مبحلقا بعينيه الواسعتين مثل عينيّ أبيه صغيرا. سألتني آخر  
آخر آخر آخر سؤال:

"القدس؟.. وين هذي؟!"

\*\*\*

## يحدث الآن 11:30 PM

"أنت متأكد أنه قال لخالتي عايشة إنه يشتهي مطبق سمك؟!"  
تسأل حوراء مبخلقةً وكأن في الأمر مصيبة. أهزُّ رأسي. أواصل  
ما توقفتُ عنده:

"تمهلْه صادق. ما زلنا في أول السهرة! اعتذر فهد متعللاً بقلق  
خالتي عائشة. ولكي تنام أمُّه: "لازم أرجع البيت"، قال وهو  
ينصرف. ما كدنا نقطع الشارع حتى انتبهنا إلى مجموعتين من  
الشباب، في الساحة الترابية، حيث تركنا سيارتنا. سبعة. ثمانية. أو  
ربما عشرة. لا أتذكر. ظننتُ، وأنا أحمل سنواتي العشر خارجاً من  
الحديقة، بأنهم يحضرون لاحتفال ألعاب نارية بمناسبة إتمام الهدنة  
يومها الأول. جلَّهم مراهقون وبعضهم في منتصف العشرينيات.  
أكبر، ربما، بقليل. تبيَّنتُ وجوههم. أسلحة في أيديهم لا تنبئ بشيء  
سوى قرب وقوع مشاجرة. راح صادق وفهد صوب سيارتيهما في  
حين وقفتُ أتابع ما يجري في الجوار. احتدم النقاش بين اثنين من  
الشباب. يا كافر. يا ملعون. يا رافضي. يا ناصبي. أنتم. نحن.  
سريعاً صار الحوار بالهراوات والخناجر والزجاجات الفارغة. التفتُ  
إلى فهد وصادق أدعوهما لفعل شيء. أي شيء. هل كنت مخطئاً  
يا أيوب؟ فهد في سيارته. وقت أدار محرَّكها، أنزل زجاج النافذة:  
"حبول!". فتح صادق باب سيارته يهيمُ بالركوب. صحتُ به:

"صادق!" أدار رأسه ينظر إليّ من وراء كتفه: "يعني نموت عشان شوية فيران؟! " لعنتهما في سري. ركضت نحو الجمع. غصت في الغبار. صحتُ أذكرهم بالهدنة. الهدنة يا شباب الهدنة! أنت تفهم دافعي يا أيوب. وحدك تفهم. قل إنني كنتُ على صواب. ارتفعت نداءات صادق وفهد ورائي: تعال يا مجنون! توغلتُ في الجنون أكثر. دفعتُ واحداً أبعده عن آخر حلتُ بين هذا وذاك. مسحتُ وجهي بظهر كفيّ أزيل بصقة. يا ناصبي. لستُ ناصيبا. يا رافضي. لست رافضيا. تعالت الصيحات. عُمر. عُمر عُمر عُمر. هيهات منا الذلّة. هيهات منا الذلّة. أتذكر صرخاتهم كأنني أسمعها الآن. لا تنظروا إلى رعشات كفي. لو كنتما معي لفهمتما. فطيع ما جرى فجر اليوم. فطيع. كنتُ خائفا. كنت خائفا على.. على.. لا أدري ولكنني لم أكن خائفا علي. أنت تصدقني أيوب. حوراء أنا.. أنا لم أقصد أن أتسبّب لك بخسارتين. لم أفكر بأن الأمور سوف.. سوف.. أنزل أحدهم هراوته على ركبتي. سقطتُ أرضا. لكمني فوق حاجبي الأيسر. وجدتني بين صادق وفهد يسحباني على التراب بعيدا. أسندا ظهري إلى سيارتي. راحا يركضان إلى الجمع. صرختُ بهما مستوعبا خطورة الحال: "تعالوا يا مجانين!" جاءني صبي صغير يجري حاملا مفكّ صواميل والدماء تسيل من رقبتة. يبدو مذعورا. أشفقتُ عليه. أسندتُ كفي إلى الأرض أدفع جسدي للنهوض. لا تقلق. أربي الجرح. رفع يده بالمفكّ عاليا. حاولت تحاشي الضربة ولكنه سدّدها بالمفكّ قوية على شفتيّ. مادت بي الأرض. أتذكرني أبصقُ دما. أسعل بقوة كأنني أغص بحجر ركب الصبيّ سيارة. تمايل بقيادتها.

اصطدم بسيارتي قبل أن يفر هاربا. بالكاد وقفتُ أغالب دوارا خلّفته  
ضربة المفكّ. أبحث عن صاحبي. أرهف سمعي أتبع صوتيهما في حلبة  
الغبار. ولا صوت عدا: يا أبناء الحرام، يا خوارج، يا وهابية،  
يا فرس، يا خنازير! كان الأمر مفعجا. رجال دين، نالوا ما يشبه  
قداسة، يُشتمون بأقذع الألفاظ. لا علاقة للشجار بشعور الفجيعة  
الذي شلّني. الصراخ والاتهامات بصوتي فهد وصادق كانت وراء  
فجيعتي. واحدهما يصرخ في وجه الآخر أسندتُ جسدي إلى  
سيارتي. صرتُ أضعفي هكذا. هكذا. لا لا أشدُّ من هذا. هكذا.  
لعلني أستفيق من دوارٍ ألم بي. لعلّ ما سمعته بغير صوتيهما ليس  
إلا بقي جسدي ثقيلًا ورأسِي يدور. انسلّ كلُّ منهما بعيدا عن  
الجمع يواصلان شجارهما. اشتبكا بالأيدي. أبوك عبّاس. أمك  
عائشة. يا خرا. يا خنزير. تحاملتُ على ألم ركبتي أجر خطواتي  
العرجاء صوبهما. صرختي مخنوقة تمزّق حنجرتي بسني العالقة.  
يا كلب انت وياه. يا عيال الكلب. يلعن أبوكم. بس. بس خلاص.  
فهد! صادق! سمعتُ صوتي مكتومًا في أذني يصاحبُ صغيرًا يُبعد  
أصوات الساحة الترابية. تلفتُ فهد إلى الأرض حوله. يبحث عن.  
عن حجر. انحنى على الأرض يحمل واحدا بهذا الحجم. لا لا بهذا  
الحجم. أكبر بقليل. هوى صادق بقبضته على ظهر فهد. ركضتُ  
صوبهما أصرخ لا لا لا رفع فهد يديه عاليًا. كنت. كنت أركض  
قفزا على رجلٍ واحدة. طارت نعلي بعيدا. سقطت على الأرض  
مقلوبة. أيوب. حوراء. لا تنظران إليّ هكذا. أنت تفهميني فوزية.  
أنا. أنا حمار أترف. رحت نحو النعل أعدّها. لا أدري بأي دافع



فعلتُ. وفاء لأمي حصّة أو خشية وقوع السماء. لا أدري. تابعت الركن إلى الركن. ولكن. كان فهداً قد أنزل الحجر على رأس صادق. ربما كتفه لست متأكداً. سقط أرضاً ودماءه ترسم خطأً في الرمال. لو أنني لم أركض نحو نعلي المقلوبة لربما! أتذكر فهداً يرفع ذراعيه عالياً. ثم. ثم أسند كفيه إلى رأسه. انحنى على صادق يهزه. يصرخ به: "يا حمار لا تموت.. صادق صادق!" كنت على ركبتي أبكي مثل طفل بلا حيلة. أبكي كما أنا الآن. ركض فهد نحو الشارع يشتم نفسه. صرخ أحدهم ورائي. يا ابن الزانية. ضربي بشيء على مؤخرة رأسي. لا أدري ماذا. أتذكر الأصوات تجبو على صوت احتكاك عجلات سيارةٍ بالإسفلت مقابل الحديقة. والصورة في عيني تنطفئ على صادق يجبو فوق التراب نحو سيارته. ورجل بدشداشةٍ في منتصف الشارع يطيرُ في الهواء. لست متأكداً. ربما هو شخصٌ آخر غير فهد

"خالتي عايشة كانت في مستشفى مبارك مع عمي  
صالح.."

تقول حوراء ودموعها ملء وجهها. أنقل نظري بينها وبين أيوب أستفهمهما. تستطرد حوراء وسط نشيجها:

"حادث سيارة في الروضة.."

يُكمل أيوب:

- "أقرب مستشفى للروضة.. مستشفى مبارك.. الجابرية.."

تنهض حوراء تذكّرني. عودة خالتي عائشة من المستشفى حيث  
عمي صالح. خروجها ثانية بقدر مطبق السمك. تصرخ بعلو صوتها  
تفرع الصغيرين.

"كل هذا وما فهمت؟!"

يلتصق التوأمان بأُمهما:

"ماما.. وين راح أبوي؟ وين راح أبوي؟"

صاحت بنا حوراء:

"شنو تنظرون؟! فهد في مستشفى مبارك!"

\* \* \*



## الفصل الأخير

في الروضة كنا. في ديوانيتي المطلّة على شارع شهاب أحمد البحر، وقد أزيلت لافتة أبي حيان التوحيدي منذ سنوات، وصار الشارع شارعًا جديدًا، مثل شوارع كثيرة، بلا ذاكرةٍ تحتوينا. أتذكّرني يوم أزيلت اللافتة أستعيد كلماتٍ لأبي حيان حفظتها في مراهقتي: الغريب الذي لا اسم له فيذكر!

فيما يلهو الصغيران على الرصيف أمام البيت، كنا نحضّر لاعتصامنا السلمي الثاني "آتية 2"، ضمن سلسلة اعتصاماتٍ حضّرنا لإقامتها في الساحة المقابلة لمبنى البرلمان المقفل. كنا لا نزال نعيش نشوة الاعتصام الأول "آتية 1"، قبل يوم من وقتنا ذلك. اعتصام تناقلته وكالات الأنباء صار حديث الناس لأيام. خرج المعتصمون ألوفا، رغم برودة الطقس في مساء شتوي، يندّدون بتصريجات أدلى بها نشطاء دينيون متشدّدون في شبكات التواصل على الإنترنت، أدّت إلى اشتباكات في مناطق عدة، راح ضحاياها شباب متحمسون أعماهم التطرف. احتشد الناس في الساحة بعد مغيب الشمس. يتزاحمون مثل حجاج. ترتفع همهماتهم وتخبو مثل هدير بحر. نساء

ورجال. شيوخ وعجائز وأطفال. يتقدّمهم، في الصفوف الأولى، شيوخ دين وشعراء ونجوم تمثيل وغناء ورياضة أحبيناهم صغارا. بعضهم من شدّة حماسه تخاله صغيرا لا يزال. بعضهم معتزل فاجأ الناس بمشاركته بعد انزوائه بعيدا عن الأضواء. البعض الآخر أصر على الحضور رغم اعتلال صحته. دفعهم سوء حالنا إلى الخروج. الشاعر خليفة الوقيان يقفُ بـ بثته الشتوي عاقدا ذراعيه أمام صدره غارقا في الصمت، ربما لم يتعرّفه الناس، إلا أنهم يردّدون أبياتا من قصائده كنا نتكئ عليها في إذاعتنا. عبدالكريم عبدالقادر لا يقف بعيدا عنه. يستندُ إلى ذراع ابنه وعلى وجهه غضبٌ لا يُشبهه، يتحلّق الناس حوله يردّدون أغنيته وطن النهار. وفيما أضحكنا عبدالحسين عبدالرضا طيلة حياته، أبكنا يوما ذاك. بدا مُتعبا. بشارب أبيض لم نألّفه. ملقيا غترته على رأسه بإهمال. اكتست ملامحه جديةً وحرنا. استند إلى جذع نخلة ينادي بحرقه وقد تغير صوته كثيرا: "تبي نعيش!" يقترب منه شابٌ. يقبّل رأسه. يرجوه ألا ينفعل، وقد بدا منفعلا متقمصا نفسه في دور تراجيدي حقيقي لم نشاهده به قبلا على خشبة مسرح أو شاشة تلفزيون. مُؤيّد الحدّاد يجلس على رصيف قريب، يجاوره خالد الحريان، يضمُّ كفيه أسفل ذقنه يراقب الجموع ساهما. لا يوارى فزغا يطلُّ من عينيه على غدٍ مجهول. وقبل انتهاء اعتصامنا بوقت قصير، ظهرت محظوظة ومبروكة، حياة الفهد وسعاد عبدالله بثياب سوداء، تُمسكُ واحدتهما بيد الأخرى. تردّدان نداءات زميلتهن نزيلة مستشفى الطب النفسي: الفتران آتية.. احموا الناس من الطاعون! أتدكرنا وسط الحشود ينظر

واحدنا إلى الآخر والدموع تفر من عينيه. فهد وصادق وأيوب وضاي، وحوراء تحمل هاتفها، تتصل بفوزية، تُسمِعُها هتافات الناس.

كنا نسترجع مشاهد اعتصامنا الأول، في الديوانية، وقت انشغال أيوب بنشر إعلان الاعتصام الثاني، عبر شبكات التواصل في الإنترنت. اقتحم التوأمان الديوانية بوجهين باهتين يسابق واحدهما الآخر. يسألان والدهما عن طير أسود يحطُّ على سور البيت. طير أسود الريش والمنقار والساقين. أجاهما فهد ضاحكا بأنه غراب. قطبا حاجبيهما. وضَّح لهما بالإنكليزية Crow. هزاً رأسيهما ينفيان. قالاً بأن للطير عينين دائريتين في منتصف وجهه، ورأس كبير يعلوه ما يشبه أذنين مثل أذني القط. لم يتمالك صادق نفسه يضحك إزاء وصف القط وهو ينظر إلى فهد يرقص حاجبيه. قال: أولاد المدارس الأجنبية! في مثل سنهم كنا نعرف كل أنواع الطيور، المقيمة والمهاجرة. ابتسم وهو يقول للصغيرين بأن ما شاهداه هو طائر البوم. أردف يكوّر شفثيه ينطقها بإنكليزية مفخّمة: Owl. هزاً رأسيهما بمدّان ذراعيهما أمامهما مشدودتين، مثل تحية هتلر، يقولان: هذا ارتفاعه! وجدتني أضحك: إذن هو العقاب! ولسوء حظكما لا أعرف اسمه بالإنكليزية. رنَّ هاتف أيوب باتصال من الجريدة فيما كنا نختلف على ماهية الطائر الأسود. أوما برأسه جاحظ العينين من دون أن يفوه بكلمة عدا: "إنت متأكد؟!" ملامحه تقول إن الأخبار التي ينقلها المتصل أكيدة. أنهى مكالمته بمررٍ نظره على وجوهنا وقد اصفر وجهه: "مجمّع الآفنيوز.. راح!" لم يُتمَّ حديثه حول تفجيرات

ضخمة، دكَّت المجمع التجاري العملاق وقت ذروته. قاطع نفسه:  
بدأت!

صرخ به فهد غاضباً:

"إشاعات.. إشاعات!"

تمت

نوفمبر 2017

## يحدث الآن 12:00 AM

تتمتع حوراء بآيات قرآنية محتضنة ولديها في المقاعد الخلفية. فوزية صامته. حصّة تراقب من النافذة خوف ظهور ملثمين يعترضون طريقنا. إشارة الوقود، خلف المقود، تومض تنبّهني إلى فراغ الخزان. أتجاهله صاغرا وصور النيران تشتعل في محطات الوقود تبرق داخل رأسي. وفيما أمسكُ بمقص الأسلاك أخفف سرعة سيارتي محاذة سور الشباك المعدنية، يذكّرني أيوب: "مدخل شارع تونس دخان الجبال النارية لا يزال، ولكن من دون نيران تشتعل. نساء ورجال عند المدخل، يحمل بعضهم مصابيح. يُضيء البعض الآخر الطريق بإنارة السيارات، في حين يزيح البعض الإطارات المكتدسة يفسح دربا لمرور السيارات إلى الجابرية رغم حظر التحوّل.

مستشفى مبارك بإنارة باهتة، تكشف عن أعداد لا قبل لنا بها من تباعة الجيف. الساحات حول المستشفى تغص بالسيارات. نترجل إلا حوراء لا تحملها ساقاها: "خايفة" يُسندها أيوب. فيما يقود التوأمان فوزية، أمسكُ بكف حصّة نمضي نحو البوابة. شبابٌ يعترضون دخول الطيور السوداء. يحملون رماحا كالتي حملناها في القُمبار. لا نكاد نتجاوز بوابة المستشفى، بحماية الشباب، حتى تُفلت الصغيرة يدها من يدي. تركض في الفوضى. أناديها: "حصّة!" تتجاوز جرحى يفترشون الأرض. أتبعها بعيني. تختفي. قاعة الانتظار



حول ركن الاستقبال صارت غرفة عمليات طارئة. أبحث عن الصبيّة. أجدّها تعانق شابًا متورم الوجه. بجيرة تلفُ ساقه. يُسندّه رجلان. تصيح: "يّه.. يّه!" الشاب بوجه مهتلل. ينحني يعانق الصبيّة. يرفع نظارته الطبية يمّسح دموعا تفر سخية من عينيه. يمّسك كنفها. يتفحصها. يعاود عناقها يسألها عن أختها. تطمئنّه: "بخير.. عند الجيران" تنظر حوراء إلى طفليها تنخرط في نوبة بكاء. يهدّوها أيوب يتمنى لهما لقاء بأيّهما. أتقدّم نحو رجل بلباس الهلال الأحمر في ركن الاستقبال. أسأله عن النزول صالح آل بن يعقوب. ترفع حوراء صوتها ورائي: "فهد.. فهد صالح آل بن يعقوب" ينقلّ الرجل نظره بيننا. يسأل: صالح أم فهد؟ أجيبه: "الاثنين" يعالج أزرار الكمبيوتر. يجيب: "صالح في السرداب، وحدة الملاحظة، غرفة 4 عمومي تُسند حوراء يديها إلى دكّة الاستقبال تُرهف سمعها. يواصل رجل الهلال الأحمر بحثه في الجهاز: "فهد.. الدور السادس، غرفة 12 خصوصي تنحني حوراء تُمسك ركبتيها. لا تفوه بكلمة. يميل جسدها. يتقدّم نحوها أيوب يُسندها. يصيح بالمرضات يطلب كرسيًا متحركًا أو نقالة. "فهد في الدور السادس"، أقول له. يهز رأسه: "روح إنت" أركضُ أرتقي السلام متجاوزًا ألم ركبتي. الطابق الأول. الثالث. الرابع. ركضي يعود عرجًا ثقيلًا في ممر الطابق السادس. رائحة مطبخ قديم تخالط روائح معقمات. أقفُ أمام باب الغرفة 12 أحضّر نفسي لوجع مؤكد. أملاً صدري نَفَسًا كأنه أخير. أدفَعُ باب الغرفة ببطء. خالتي عائشة، بعباءتها، تقتعدُ كرسيًا مقابل السرير. تمسك بهاتفها المحمول بيدٍ ثابتة توجّهه إلى فهد. جامدة مثل تمثال. وهو ممدّدٌ على

السريـر لا يشبه فهـذاً أعرفه. بقعة زرقاء داكنة تحيط عينه. شفاه متورمة وفم خال من الأسنان. أجزاء من رأسه حلـيقة تتخللها غرز خيوط الجراحة. صدره مكشوف تملؤه المحسّات الطبية. أنبوب أصفر يخرج من جسده يجمع سائله في كيس معلق أسفل السريـر. أنبوب أحمر يدخل في وريده يعوّضه ما سال على إسفلت الروضة. ولأنني هياتُ نفسي لما هو أسوأ، تقبّلتُ صورة فهد بطيب خاطر. خالتي عائشة صلدة صامته. تراقب شاشة هاتفها صارمة الملامح. "السلام عليكم"، أقول هامسا. لا يتحرك فيها عدا شفيتها: "هشششش — تردف: "فهد نائم أتقدّم إلى السريـر. أطمئن إلى ارتفاع صدره وانخفاضه في تنفسٍ بطيء. إصبعه موصولة بسلك جهاز منتصب إلى حوارهِ، يصدر نغمة متقطعة لا لون لها. تُظهر شاشته خطوطا متموجة أجهل فك رموزها، ولكنها مطمئنة على أي حال. يتمم فهد، بصوت واهن، مغمض العينين: "أحبيّ المستمعين.. أحييكم في حلقة جديدة من برنامج حديث اليوم.. تيرا راء تيرا... يدندن لنا لإحدى أغنيات عبدالكريم، موسيقى خضراء يلجأ إليها عادة في فواصل برنامجه. يدخل بعدها في صمت يصحبه شخير ناعم. الصفير المتقطع للجهاز يصيرُ نغمة متواصلة. يُفزعني صوتها الأحمر يُحيل الخطوط المتموجة في شاشة الجهاز إلى خطٍّ أفقيٍّ وحيد. أهمُّ أهرُ جسده. تنهري أمه: "الولد نائم!" تشيرُ بعينيها إلى السلك وقد فكّه عن إصبعه. تريح هاتفها جانبا. تُمسكُ بإصبع ابنها تُنبتُ إليها السلك ثانية. تصمت النغمة الحمراء. يعاود الجهاز صفيره المتقطع، وتعود الخطوط الأفقية للظهور على الشاشة تقيس نبضات القلب

وأشياء لا أفقها. تستأنف خالتي عائشة التصوير هاتفها. أسألها ماذا قال الطبيب. تجيب من دون أن تبعد نظرها عن شاشة الهاتف: "هششش.. الولد نام" أتلفت حولي. فإدر طعام مُغْلَف بورق قصدير فوق الثلاجة الصغيرة في ركن الغرفة. أقف وراء خالتي عائشة أطلُّ على هاتفها. يظهر فهد في شاشته. أنقل نظري بين فهد على السرير وفهد في شاشة الهاتف يومض زُرُّها الأحمر. يُفزعني فعلها. أُنَبِّهها: "خالتي عايشة.. تقاطعي: "هشششش—" يفتح صاحبي عينيه ببطء. تتسع حدقاته ينظر إلى أمِّه يسألها ماذا تفعل. تجيبه والهاتف أمام وجهها: "حتى إذا قمت بالسلامة.. تشوف نفسك، وتعرف طريقك وين ودَّاك!" يطلق تنهيدة يدفع بها ابتسامة. تفر دمعة من عينه: "تكذبن يُمِّه؟" ينظر إليّ. شفتاه على حالهما بابتسامة كسولة. يتحكم بنبرة صوته ولا يكبح شهقات تُقَطِّع جملته: "خلاص؟ راح صادق؟" أومئ برأسي: "صادق بخير تتسع حدقاته: "وينه؟ ما أشوفه معاك" أربّتُ على كتفه: "موجود.. يسأل عنك" ابتسامته بلا أسنان تحيله عجوزا. يُردف: "وحوراء.. وينها؟ ما أشوفها معاك" أشير بيدي نحو الباب: "على وصول يقطُّبُ حاجبيه: "إحلف" أمدُّ سبَّاتي إلى السماء: "والله.. إللي رفع السما" يُغمض عينيه وهو يقول: "صدَّقْتِك" أمُّه لا تزال غائبة مع هاتفها كمن يتابع فيلما. يتمتم فهد بصوت خفيض: "أبي ماي" أسكبُ له ماء في كوب بلاستيكي. أقرِّبه إلى شفتيه ويدي الأخرى وراء رأسه. شربة أولى بالكاد يبتلعها. شربة ثانية يخلج معها ويريد في رقبته. يفتح عينيه بجفنين راخين نحو الباب. النغمة المتقطعة للجهاز

صارت نغمة متواصلة. شربة ثالثة لا تتم. يسيل خيط الماء من فمه المتبسم على كفي. تنتبه خالتي عائشة. تترك هاتفها على السرير. تُمسكُ بإصبع فهد تتحقق من سلامة السلك. الجهاز يواصل صفيره. الشاشة بخطُّ أفقي ثابت. الأرقام تصيرُ أصفارا. تفصل السلك وتعيد تثبيته وهي تراقب الشاشة. الصغير والخط كما هما لا يتغيران. تفصل السلك ثانية تلقيه أرضا. تمسكُ رسغ ابنها. تضربُ ظهر كفه كمن يعاقب طفلا. تقبلُ باطن كفه قبل أن تسندها إلى صدره. "نام يا حبيبي نام"، تقول ثم تدير ظهرها إليه. تخرج من الغرفة ثابتة الخطى بغير عجلة. عيناى على الشاشة، على إصبعه، على المحسّات في صدره، على عينيه الشاحصتين صوب الباب. تعود خالتي عائشة بصحبة ممرضة. لا تمكثُ الأخيرة طويلا. تركض فور رؤيتها شاشة الجهاز والصغير المتواصل. تعود يسبقها الطبيب. تناوله حقنة. يغرستها في الوريد. تناوله صاعقا كهربائيا. يزيل المحسّات عن صدر فهد. يثبّت الصاعق إلى صدره. ابتسامته على حالها. وعيناها صوب باب الغرفة رغم الصدمات الكهربائية. "البقاء لله"، قال الطبيب. غابت أم فهد في خيالها قبل أن تهرز رأسها: "إنت ما تفهم!" يبدو الأمر مألوفاً للطبيب. لا يفوه بكلمة. تكررُ أم فهد على أسنانها. تحمق فيه: "إنت طبيب؟ أنا ما أسرحك بعنم!" تشيرُ نحو الباب: "إطلع برّه!" يلتفت إليّ: "شدّ حيلك"، يقول قبل أن يدير ظهره تتبعه الممرضة. تمضي أم فهد بروود نحو الباب توصلده. تزيح عباءتها. تكوّرها. تلقيها بإهمال على الكرسي. تشمر عن ساعديها. تحمل قدر الطعام من فوق الثلاجة. تسنده إلى صدر فهد. تزيل ورق القصدير بعناية. تناولني

غطاء القدر: "إمسك" أمسكه ورائحة مطبخ تينا القلم تنتشر في  
الغرفة. تقرب خالتي عائشة شفيتها إلى أذن ولدها همس: "فهد..  
حبيبي اصحى.. مطبق السمك جاهز تدس كفتها في الرز داخل  
القدر. تقطع جزءا من السمكة تنتقيه بحرص. تضحك. تردّد لازمته:  
"مياو!" تقرب كفتها إلى شفيتها: "ياالله.. بسم الله" لا يُيدي حراكا.  
تخرج كلماتي مخالفة ليقيني:

"خالتي.. فهد نام.."

تومئ برأسها:

"أدري.. بس لازم يصحى.. الأكل صار بارد.. وهو  
يجبه حار.."

هزّ رأسها وعيناها بلون الدم. تستطرد بحة يشوبها صوت:

"حااااا.. مثل قلبي.."

ابتعدت عنهما. أسند ظهري إلى باب الغرفة. عينا فهد موصبتان  
إلى الباب. إليّ. تدسُّ أمه أصابعها في فمه. يرتفع صوتها: "إكل!"  
يرتفع صوتها أكثر:

"إنت قلت لي مشتهي مطبق سمك!"

تصرخ به وأصابعها بين شفيتها:

"إكل! إكل! إكل!"

ترفع كفها عاليًا ببقايا الرزّ والزيت. تُنزلها على وجهه صفعًا:

"تحسب إنه على مزاجك تموت؟! أذبحك، والله أذبحك إذا  
متّ وخليتني!"

تُدخل كفها في قدر الرزّ. تحشو فمه. تصفعه. تمرّر أصابعها  
بين خصلات شعره تشدّه. عيناه صوب الباب ثابتتان. تدفع القدر  
عن جسده تسقطه أرضا. تمسكُ بخناقه تمزّه. تضرب صدره  
بقبضتيها. تسند رأسها إليه. تطلق أنّة أحالها لا تنتهي. أنّة طويلة  
تشيعني إلى آخر المر: آآآه.. وا حرّ قلبي حرّاه!

أهبط السلام مسرعا. أسقط متعثرا بعرجي. أشتّم ساقِي. أدرك  
الطابق الأرضي. تُمسكُ حصّة بيدي. تجرّني إلى أبيها. أنقاد إليها بلا  
إدراك. يمدُّ كفه يُعرفني إليه: "اسمي إبراهيم منصور يسألني متهلّل  
الوجه: "انتو عيال فؤادة؟" أتجاوزه أمضي إلى ما لا أدري: "إحنا  
عيال كلب"، أقولها بصوت مسموع، يشدّني اسمه إلى اسمٍ لم ينجح  
خالي في جعله ساترًا بينه وبين مصيره قبل سنوات طوال. يجري  
الصغيران إليّ يتعلّقان بدشداشتي. يسألني واحدهما. يكرّر الثاني سؤال  
الأول: "عمي عمي! وين راح أبوي؟ وين راح أبوي؟" يصيح بي  
أيوب مناديًا عند مدخل غرفة الطوارئ. يجلس حوار فوزية. لا  
ألنفتُ إليه. يتبعني: "شلون فهد؟" أجيبه متجاوزا بوابة المستشفى:  
"ياكل مطبّق سمك.. أشير بسبّابتي إلى الأعلى: فوق" يرفع  
رأسه إلى الأعلى. يسألني متشككا: "والله؟" أجيبه ماضيا في السير:  
"والله". يرّن هاتفني منبها إلى رسالة: "والله إلهي رفع السماء، إذا ما

تركت الكويت.. لا أنت ولدي ولا أنا أعرفك!" أهم أقذف بالهاتف بعيدا لولا أتذكر صوتا أشتاقه تركتُ صاحبه ورائي. أصابعي تعمل من تلقاء ذاتها في أزرار الهاتف. أقرّبهُ إلى أذني: "أنا غير موجود حاليا، الرجاء ترك رسالة.. يشيعني صوت عبدالكريم في الساحة الترابية إلى سيارتي: "إرحل مع النسيان.. وبرحل مع سهيل ألقى الهاتف على الأرض. يلتقطه أيوب. يتبعني. أطبق باب سيارتي عليّ. يُدخل أيوب رأسه في النافذة يسأل: "وين؟" أدير محرّك السيارة زامًا شفّيّ. يستدير مهرولا يفتح الباب. يجلس إلى جانبي. أكبس مداس الوقود بقدمي أتخيل رؤوسا أمقتها. أقود مسرعا بلا إنارة. أيوب يعلم. أيوب يفهم. يسأل وكأنه يجيب: "الجسر؟"

لا أحد عند حاجز الأعلام الخضراء في مقدّمة الجسر في الجارية. أتابع قيادتي بسرعة أقلّ. تَبَاعَة الجَيْفِ تحومُ مئات في سماننا المظلمة. نعيها الجماعي يدفعني أطفئ شهورها. أحمّد جوعها. أفتح الدرج تحت مرفقي. أناول أيوبًا زجاجة كلونيا أم بنت. يصبُّ على إصبعه. يمررها بين أنفه وشفته يستلُّ نفسا عميقا. أمدُّ له كفي يصب فيها السائل الذهبي. أمرغ به وجهي. أسلحة متناثرة على الأرض مثل أطلال ساحة حرب. صرخات ترتفع في الجوار. أواصل قيادتي متمهلا. أتبيّن، قبل منتصف الجسر، ما تكشف عنه نيران البراميل المشتعلة. أضيء إنارة السيارة. اشتباك بينَ هُم وهُم. بالسيف وزجاجات المولوتوف والحجارة. أواصل قيادتي مسرعا. يجرضني أيوب. يصرخ: "أسرع.. أسرع!" أصدّم المسوخ أفرّق التحامها. تتناثر أجسادًا على جانبي الجسر. آخرون يرفعون سيوفهم

وحجارتهم يركضون ورائنا. يلتفتُ أيوب إلى الخلف. يصيح:  
"بسرعة.. بسرعة" قبل نهاية الجسر، عند متاريس الأعلام السوداء في  
السُّرَّة، يخبو هدير محرك السيارة. يخذم. خزان الوقود فارغ إلا من  
الهواء. يفتح أيوب الباب. يلتفت إلى كائنات الجسر بوجه مذعور:  
"إنزل.. إركض!" أترجل أدوس عَرَجِي في مقدِّمة شارع طارق بن  
زيد. أتخلَّص من نعليّ. لا ألتفتُ إليهما. أركض. يسبقني أيوب.  
يركضون ورائنا تحرسهم الطيور السوداء تنشد نعيها. يُبطئ أيوب.  
يمسكُ بيدي. نركض سوياً. يصيح واحدنا بالآخر: اركض..  
اركض.. اركض..

يركضُ، أركضُ، تحت سماء أتمنى سقوطها. قطرات على وجهي  
تدفعني أرفع رأسي عالياً. أرى بين غيوم متفرقة نجم سهيل يبزغ في  
البعيد، وشهابا يقطع الأفق.

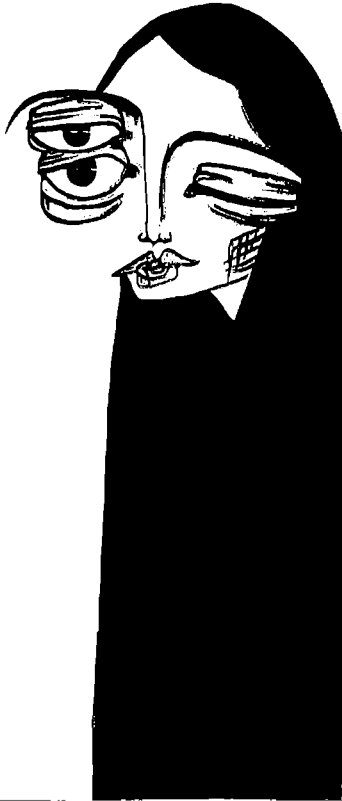
تمت

سبتمبر 2020





سهيل وصاحبه دخلت بينهما الفئران..



# ربيع الكتاب



[book-spring.blogspot.com](http://book-spring.blogspot.com)



[facebook.com/spring.book.eg](https://facebook.com/spring.book.eg)

ما عادت الفران تحومُ حول قفص الدجاجاتِ أسفل  
 السِدرة وحسب. تسلّلت إلى البيوت. كُتُّ أشمُ رائحةً  
 ترائية حامضة، لا أعرف مصدرها، إذا ما استلقيتُ  
 على أرائك غرفة الجلوس. ورغم أني لم أشاهد فأراً  
 داخل البيت قط، فإن أُمي حصّة تؤكّد، كلما أزاحت  
 مساند الأرائك تكشف عن فضلاتِ بنيةٍ داكنة تقارب  
 حبات الرُّز حجماً، تقول إنها الفران.. ليس ضرورياً  
 أن تراها لكي تعرف أنها بيننا! أتذكّر وعدها. أذكّرها:  
 «متى تقولين لي قصة الفيران الأربعة؟». تفعل انشغالاً  
 بتنظيف المكان. تجيب: «في الليل». يأتي الليل،  
 مثل كلِّ ليل. تنزع طقم أسنانها. تتحدث في ظلام  
 غرفتها. تمهدُ للقصة: «زور ابن الزرزور، إल्ली عمره  
 ما كذب ولا حلف زور..».

ISBN 978-614-01-1544-6



9 786140 115446

للإصدارات  
العلمية

جميع كتبنا متوفرة على الإنترنت  
في محاولة نيل همتك كشم  
www.nwf.com

منشورات ضفاف  
DIFAF PUBLISHING  
editions.difaf@gmail.com



الدار العربية للعلوم ناشرون  
Arab Scientific Publishers, Inc.  
www.asp.com.lb www.asppbooks.com